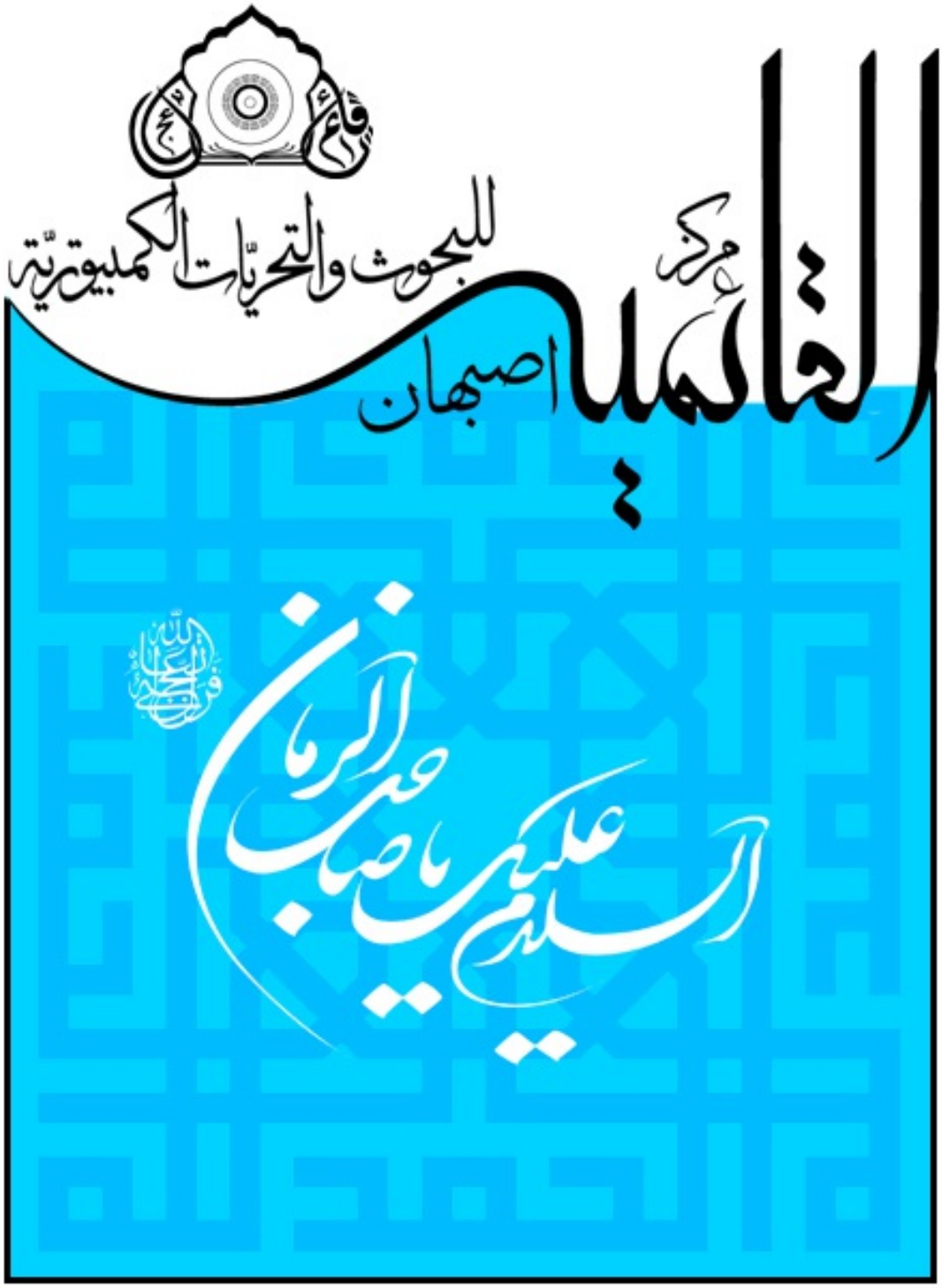

www.Ghaemiyeh.com
www.Ghaemiyeh.org
www.Ghaemiyeh.net
www.Ghaemiyeh.ir

من روائع القرآن

تأملات علمية وأدبية
في
كتاب الله عز وجل

الدكتور محمد سعيد رمضان البوطي

مؤسسة الرسالة

بسم الله الرحمن الرحيم

من روائع القرآن

كاتب:

محمد سعيد رمضان البوطى

نشرت فى الطباعة:

مؤسسة الرساله

رقمى الناشر:

مركز القائمية باصفهان للتحريات الكمبيوترية

الفهرس

الفهرس ----- ۵
من روائع القرآن ----- ۱۲
اشارة ----- ۱۲
مقدّمة ----- ۱۲
مقدّمة الطبعة الثّالثة ----- ۱۴
تمهید أوّل تعریف بهذا الکتاب و أهمّ ابحاثه ----- ۱۵
تمهید ثان بتعریف أهمّیّة القرآن فی الأدب العربیّ و وجوه ذلک ----- ۱۷
اشارة ----- ۱۷
السبب الأول- ----- ۱۷
السبب الثانی- ----- ۱۷
السبب الثالث: ----- ۱۸
السبب الرابع: ----- ۱۹
القسم الأول تاریخ القرآن و علومه ----- ۲۰
اشارة ----- ۲۰
تاریخ القرآن ----- ۲۰
القرآن تعریفه، و حقیقته ----- ۲۰
نزول القرآن منجّما و الحکمة فی ذلک ----- ۲۳
اشارة ----- ۲۴
حکمة نزول القرآن منجّما: ----- ۲۴
أسباب النّزول ----- ۲۶
اشارة ----- ۲۶
أولا- حکمة ارتباط الآیات بأسباب النزول: ----- ۲۶
ثانیا- أمثلة لأسباب النزول. ----- ۲۷

ثالثا- أهمیة معرفة أسباب النزول: ۲۸
رابعا- اهتمام العلماء بالکتابة فی «أسباب النزول». ۲۸
کیفیّة جمع القرآن و کتابته و الأدوار الّتی مرّت علی ذلک ۲۹
أولا- ترتیب القرآن و کتابته فی عهد رسول اللّه صلّی اللّه علیه و سلّم. ۲۹
ثانیا- ما جدّ من ذلک فی عهد أبی بکر: ۳۱
ثالثا- ما جدّ من ذلک فی خلافة عثمان: ۳۲
رسم القرآن و المراحل التحسینیة الّتی ندرّج فیها ۳۴
اشارة ۳۴
فأما الظاهرة الأولی: ۳۵
أما الظاهرة الثانیة: ۳۶
الأحرف السّبعة ۳۷
علوم القرآن ۴۱
تمهید ۴۱
اشارة ۴۱
ما هی علوم القرآن؟ ۴۱
(علوم القرآن) اصطلاح خاص: ۴۲
متی ظهر هذا الاصطلاح: ۴۳
التّفسیر حقیقته، نشأته و تطوّره، مذاهبه و شروطه ۴۴
حقیقته: ۴۴
نشأته و تطوره: ۴۵
اشارة ۴۵
الطائفة الأولی: و هم أصحاب عبد اللّه بن عباس، من علماء مکة المکرمة ۴۶
الطائفة الثانیة: و هم أصحاب عبد اللّه بن مسعود، من علماء الکوفة ۴۶
الطائفة الثالثة: و هم أصحاب أنس بن مالک و غیره ۴۶

مذاهبه و شروطه: ----- ۴۸
المکّیّ و المدنیّ تعریف کلّ منهما، خصائص کلّ منهما، الفائدة من معرفة ذلک ----- ۵۱
تمهید: ----- ۵۱
تعریف المکّی و المدنی: ----- ۵۱
خصائص کلّ منهما: ----- ۵۲
الفائدة من معرفة هذا العلم: ----- ۵۳
المبهم و المتشابه فی القرآن ----- ۵۴
تمهید: ----- ۵۴
المبهم: أنواعه، أمثلة له، الحکمة منه: ----- ۵۵
اشارة ----- ۵۵
النوع الأول: الأحرف المقطعة التی افتتح بها بعض السور ----- ۵۵
النوع الثانی: جمل و ألفاظ ----- ۵۶
المتشابه: المقصود به، حکمه ----- ۵۹
القراءات و القرّاء لمحة دراسیّة سریعة فی ذلک ----- ۶۱
منشأ القراءات: ----- ۶۱
الحکمة من مشروعیتها: ----- ۶۱
ما معنی تحدیدها بالسبعة و متی حددت بهذا العدد: ----- ۶۲
الضابط العلمی لاعتماد القراءات: ----- ۶۳
الفرق بین القراءات المتواترة و الشاذة: ----- ۶۳
حکم القراءات الشاذة: ----- ۶۴
القسم الثّانی منهجه و أسلوبه ----- ۶۴
اشارة ----- ۶۴
أسلوب القرآن دراسة عامة لخصائصه ----- ۶۵
اشارة ----- ۶۵

الخاصّة الأولی (جریانه علی نسق بدیع خارج عن المألوف): ۶۵
الخاصّة الثانیة (جریانه علی مستوی رفیع واحد علی الرغم من تنوع المعانی و الموضوعات): ۶۶
الخاصّة الثالثة (صلاحیة صیاغته لمخاطبة الناس عامة علی اختلاف ثقافاتهم و عصورهم): ۶۷
الخاصّة الرابعة (ظاهرة التکرار للألفاظ و المعانی): ۶۸
اشارة ۶۸
فالنوع الأول منه: ۶۸
و أما النوع الثانی منه: ۶۹
الخاصّة الخامسة (تداخل بحوثه و موضوعاته): ۷۰
إعجاز القرآن تعریفه، وجوهه، دلیله، مظاهره ۷۲
تمهید لا بدّ منه: ۷۲
تعریف إعجاز القرآن: ۷۳
الدلیل علی ثبوت الإعجاز فی کتاب اللّه فی الجملة: ۷۴
وجوه الإعجاز القرآنی ۷۷
اشارة ۷۸
أولا: الإعجاز اللفظی أو البلاغی: ۷۸
اشارة ۷۸
مصدر الإعجاز البلاغی فی القرآن: ۷۸
اشارة ۷۸
المظهر الأول (الکلمة القرآنیة): ۸۱
المظهر الثانی: الجملة القرآنیة: ۸۳
اشارة ۸۳
أولا: الاتساق اللفظی و الإیقاع الداخلی: ۸۳
ثانیا: دلالتها بأقصر عبارة علی أوسع معنی: ۸۴
ثالثا: إخراج المعنی المجرد فی مظهر الأمر المحسوس: ۸۵

ثانیا: الإعجاز بالغیبیات: ۸۶
ثالثا: الإعجاز بالتشریع: ۸۸
رابعا: مظهر جلال الربوبیة: ۹۰
الذین کتبوا فی إعجاز القرآن ۹۳
موضوعات القرآن و طریقة عرضه لها ۹۳
التّصویر فی القرآن مظهره و رسائله ۹۶
تمهید: ۹۶
الأمثال فی القرآن ۱۰۲
القصّة فی القرآن أغراضها، خصائصها ۱۰۷
اشارة ۱۰۷
الأمر الأول: إثبات الوحی الإلهی و الرسالة النبویة لرسول اللّه صلّی اللّه علیه و سلّم ۱۰۸
الأمر الثانی: العبرة و الموعظة ۱۰۸
الأمر الثالث: تثبیت فؤاد الرسول صلّی اللّه علیه و سلّم فی مجال الدعوة ۱۰۹
منهج القصة فی القرآن: ۱۱۰
*** القیمة التاریخیة لقصص القرآن: ۱۱۵
المنهج التّربویّ فی القرآن ۱۱۸
النّزعة الإنسانیّة فی القرآن ۱۲۱
اشارة ۱۲۱
أولا- النزعة الإنسانیة فی القرآن من حیث الموضوع: ۱۲۱
ثانیا- النزعة الإنسانیة فی القرآن من حیث الأسلوب: ۱۲۴
فلسفة القرآن عن الکون و الإنسان و الحیاة ۱۲۵
اشارة ۱۲۵
نظرة القرآن إلی الکون: ۱۲۵
نظرة القرآن إلی الإنسان: ۱۲۶

نظرة القرآن إلی الحیاة: ۱۲۷
هل من الممکن ترجمة القرآن؟ ۱۲۸
القسم الثالث دراسات تطبیقیة ۱۳۲
اشارة ۱۳۲
تمهید ۱۳۲
فی الإلهیّات (من سورة الرعد، من آیة ۸: إلی آیة ۱۴) ۱۳۳
اشارة ۱۳۳
تعریف عام بالآیات: ۱۳۳
شرح الآیات: ۱۳۳
فی الوصف (من سورة غافر. من آیة: ۱۰ إلی آیة: ۲۰) ۱۳۷
اشارة ۱۳۷
تعریف عام بالآیات: ۱۳۷
شرح الآیات: ۱۳۷
فی المبادئ و الإنسانیّات (من سورة الإسراء من آیة: ۲۳ إلی آیة ۲۹) ۱۴۲
اشارة ۱۴۲
تعریف عام بالآیات: ۱۴۲
شرح الآیات: ۱۴۲
فی القصص (من سورة هود، من آیة: ۳۵ إلی آیة: ۴۹) ۱۴۷
Point ۱۴۷
*** تعریف عام بالآیات: ۱۴۸
شرح الآیات: ۱۴۸
فی الحجاج و النّقاش (من سورة النمل من آیة: ۵۹ إلی آیة: ۶۶) ۱۵۲
اشارة ۱۵۲
تعریف عام بالآیات: ۱۵۳

شرح الآیات: ----- ۱۵۳

کلمة أخیرة ----- ۱۵۸

تعریف مرکز القائمیة باصفهان للتحریات الکمبیوتریة ----- ۱۵۹

من روائع القرآن

اشارة

نام کتاب: من روائع القرآن

نویسنده: محمد سعید رمضان البوطی

موضوع: اسباب نزول / جمع / قرائت / اعجاز ادبی

تاریخ وفات مؤلف: معاصر

زبان: عربی

تعداد جلد: ۱

ناشر: موسسة الرساله

مکان چاپ: بیروت

سال چاپ: ۱۴۲۰ / ۱۹۹۹

نوبت چاپ: بی‌نا

=========

من روائع القرآن تاملات علمیه و ادبیه فی کتاب الله عزوجل

بوطی، محمدسعید رمضان

موضوع:

علوم قرآنی = مطالعات تطبیقی

شرح پدیدآور: بقلم محمد سعید رمضان البوطی

ناشر: موسسه الرساله

محل نشر: بیروت

سال نشر: ۲۰۰۳م=۱۳۸۲

رده کنگره: BP۶۹/۵/ب۹م۹

مشخصات ظاهری: ۲۹۴ ص

مقدّمة

بسم اللّه الرّحمن الرّحیم

من روائع القرآن، ص: ۵

الحمد للّه بجمیع محامده ما علمت منها و ما لم أعلم، علی جمیع نعمه و آلائه، ما علمت منها و ما لم أعلم.

و الصلاة و السلام علی سیدنا محمد النبیّ الأمیّ المبعوث رحمة إلی العالمین.

و بعد، فهذه طبعة جدیدة لکتاب روائع القرآن، أقدمها إلی طلاب العربیة و هواة الأدب العربی و کل من یعنی بدراسة القرآن.

و لقد تمنیت أن یتاح لی من الوقت ما یسمح لی بالتوسع فی بحوثه و التعمّق فی دراساته، بالقدر الذی یتفق مع روعة القرآن و عمق مرامیه و دقة بیانه. و لکنی علی یقین بأن الزمن کله أضیق من أن یتّسع لشرح یتکافأ مع عظمته، و الطاقات کلها أقل من أن تنهض

باستيعاب دقائقه، و الحياة كلها جزء يسير من مدّه الزاخر و إشراقه السامى و معانيه التى لا تنقضى! ...

قُلْ لَوْ كانَ الْبَحْرُ مِداداً لِكَلِماتِ رَبِّى لَنَفِدَ الْبَحْرُ قَبْلَ أَنْ تَنْفَدَ كَلِماتُ رَبِّى وَ لَوْ جِئْنا بِمِثْلِهِ مَدَداً (الكهف: ۱۰۹).

و لقد شرّفنى اللّه بتدريس القرآن و بلاغته بقسم اللغة العربية فى جامعة دمشق ثم فى جامعة اللاذقية، فما رأيت ذا رشد فى فكره، و ذوق فى نفسه، يتاح له أن يعلم علما عن هذا الكتاب و أن ينصت إلى شىء من

من روائع القرآن، ص: ۶

بيانه، إلا و تهتز منه الجوانح طربا لرائع قوله و سمو إشراقه، ثم يقف مستسلما مشدوها تحت مظلة إعجازه! ... لا يحول دون استعلانه بذلك فكر عرف به أو هوى يميل إليه أو عصبية تسيطر عليه.

هذا، على الرغم مما انحدرت إليه الدراسات العربية من الضحالة و السطحية و الضعف، و مع كل ما انتهى إليه طلابها من فساد الذوق و عجمة اللسان و فهاهة البيان.

و أشهد لو أن العربية كانت تعيش على ألسنة العرب اليوم أيام شبابها، إذا لكان للقرآن أثر فريد فى حياتهم الفكرية و الاجتماعية و السياسية و الأخلاقية.

و لكن عدوا شرسا لهذه الأمة عرف كيف يسدد الطعنة إليها، و أدرك السبيل إلى تجفيف روافد العز فى حياتها، فانحطّ فى أسباب الكيد لثقافتها العربية و ذاتيتها الإسلامية، عن طريق إبعادها عن سلطان هذا الكتاب و حجبها عن أسباب التأثّر به.

و إن التاريخ ليرصد السعى إلى هذه المكيدة بإحصاء دقيق، و إن ذهل عنه كثير من السادرين و السكارى من أهله، و إنه ليذكر و لا ينسى يوم وقف وزير المستعمرات البريطانى «غلادستون» بين زملائه فى مجلس الوزراء يقول، و قد أمسك بيده قرآنا يلوّح إليهم به: لن تحقّق بريطانيا شيئا من غاياتها فى العرب و المسلمين إلا إذا سلبتهم سلطان هذا الكتاب أولا. أخرجوا سرّ هذا الكتاب مما بينهم تتحطم أمامكم جميع السدود «۱»! ...

و بعد، فإن الإحاطة بأسرار هذا الكتاب و جوانب إعجازه، أمر

---

(۱) كان هذا التصريح عام ۱۸۹۵.

من روائع القرآن، ص: ۷

عسير بل مستحيل تقف دونه قدرات البشر جميعا.

غير أن ما لا يدرك كله لا يترك كله؛ و لقد ساعدنى التوفيق الإلهى على توسيع دائرة البحث فى إعجاز القرآن من هذا الكتاب، بالقدر الذى سمح به الوقت و امتدّ إليه الجهد.

و كلّ ما زدته أو توسعت فيه من هذا البحث، ليس إلا بمثابة إصبع تشير من على الشاطئ إلى المحيط المتلاطم الذى لا يستبين له حدود.

و إنما المهم من دراسة الإعجاز القرآنى أن يصل منها القارئ إلى ما يدرك معه أن صياغة هذا الكتاب ليست مما من شأنه أن يخضع للطاقة الإنسانية، و أن معانيه ليست مما قد يأتى بمثله الفكر الإنسانى.

و أحسب أننى قد أتيت من الحديث عن إعجاز القرآن (على إيجازه) بما يعطى القارئ هذا اليقين و يسلّمه إلى هذه الحقيقة.

أما سائر البحوث الأخرى فقد زدت فى كثير منها بالقدر الذى أسعفنى الوقت، كما غيّرت فى بعض منها بالمقدار الذى يقتضيه التنقيح أو الإصلاح.

و إننى إذ أتقدم بهذه الطبعة الجديدة من كتابى هذا إلى طلابى قسم اللغة العربية، و سائر الإخوة القرّاء، آمل أن يجعله اللّه فى أيديهم مفتاح عناية شاملة بالقرآن، و عكوف جادّ على دراسته و اتقان تلاوته، و خضوع جديد تحت حكمه و سلطانه.

و اللّه المستعان فى كل هداية و توفيق.

محمّد سعيد رمضان البوطى دمشق فى ۱۵ شوال سنة ۱۳۹۵ ۲۰ تشرين أول سنة ۱۹۷۵

من روائع القرآن، ص: ۹

مقدّمة الطبعة الثّالثة

الحمد للّه وليّ كل نعمة، يمنّ بالتوفيق ثم يثيب عليه، و يلهم الحمد ثم يجزى به! .. و أشهد أن لا إله إلّا اللّه تفرّد بالربوبية المطلقة فلا ربّ و لا معبود و لا حاكم سواه. ظهر فى آثاره و بديع مخلوقاته، فلو رأته العين لم يزدد برؤيتها له ظهورا، و خفى فى كنهه و حقيقته، فمهما تأمله العقل و انساح وراء تصوره الخيال لم يبلغ العقل و لا الخيال منه شيئا.

و الصلاة و السلام الأتمّان الأكملان على سيدنا محمد و على آله و صحبه أجمعين. و أسأله سبحانه و تعالى أن يمتّعنى بتوفيق من لدنه، و أن يهبنى من نعمة الإخلاص لوجهه الكريم ما يقينى من حظوظ نفسى و يعتقنى من سلطان كل مادح أو قادح.

و بعد: فقد شاء اللّه تعالى- و هو المتفضّل الكريم- أن أقدّم إلى القرّاء طبعة ثالثة من هذا الكتاب، بعد أن وفّقنى سبحانه و تعالى، فأدخلت عليه تهذيبا تناول متفرقات كثيرة من جمله و ألفاظه، و ألهمنى فزدت فيه بحثا من أهم ما يتعلق بآداب القرآن و علومه، و هو: الأمثال فى القرآن.

و لئن كان فى ذلك ما يدلّ على أن الكتاب قد سار خطوة أخرى نحو الكمال، فإنه لدليل فى الوقت ذاته على أنه كان و لا يزال يتّسم بالنقصان. و إنه لمن أجلى مظاهر الضعف و القصور فى الإنسان أن يشعر

من روائع القرآن، ص: ۱۰

بالنقص فى كل شئونه مع تصوره الكمال المطلق بعقله، فيشتدّ بها نحو غاية الكمال. و كلما ارتقى بها إلى درجة من درجاته اكتشف مزيدا من البعد بينه و بين غايته، فهو لا- يزال يفرّ من النقصان لأن حبّ الكمال مغروس فى كيانه، و لا يزال الكمال من فوقه لأنه من خصائص الخالق و هو مخلوق، و لأنه من صفات الربّ جلّ جلاله و هو عبد ضعيف!.

فلئن وجدت أيّها القارئ فى الكتاب- بعد هذا التهذيب الذى ذكرت- بقايا من مظاهر القصور و النقص- و لعلّك تجد منها الكثير- فذلك لأنى لم أستطع أن أتحرر عن سمة النقص فى ذاتى، و ما دان لى ذلك، و ليس لى من مطمع فيه. و لئن عثرت فيه على مظاهر التقدّم نحو الكمال، فذلك من فضل اللّه علىّ و توفيقه. و لقد رأيت أن العبد كلما ازداد بصيرة بضعفه و ركونا إلى عبوديته زاده اللّه جلّ جلاله قربا إليه و تفضلا و إحسانا، و كلما ازداد نسيانا لضعفه و تعاظما فى نفسه، زاده اللّه تعالى بعدا عنه و وكله إلى نفسه و شأنه فلم يأت منهما بطائل.

و إنى إذ أشكر اللّه تعالى على أن ستر نقصى بتوفيقه، فإنى لأشكر سائر الإخوة القرّاء الذين كانوا و لا يزالون يمنّون علىّ بملاحظاتهم و استدراكاتهم، و من لم يشكر النّاس الذين ألهمهم اللّه تعالى تذكيره، لم يشكر اللّه الذى وفّقه للاستفادة من ذلك التذكير! ..

و ليس العيب أن يعترف العبد بقصوره فيتلقّى بيد الشكر نصيحة الناصحين، و إنما العيب كل العيب ما قد يتلبس به أحد رجلين: رجل يستكبر عن قبول الحق فهو يتباهى بين الناس بالباطل الذى ألصقه فيه كبره، و آخر يلتقط مظاهر النقص فى الآخرين فيشهرها بين الناس على رماح من ضغينته و حقده. ينبش السيئة من القبر الذى دفنت فيه و إن محاها ألف حسنة وراءها، و يدسّ الحسنات فى التراب مهما كان للناس خير فى تجليتها و ظهورها! ..

من روائع القرآن، ص: ۱۱

فأنا أضرع إلى اللّه عزّ و جلّ أن لا يجعلنى واحدا من هذين الرجلين، و أن يحشرنى إليه بقلب سليم قد أخلص للّه فى دينه، و أخلص مع الناس فى أخوّته لهم و صدقه معهم.

و أسأله سبحانه أن يمتّعنى بمرضاته و الإخلاص لوجهه، و أن يختم لى بصالح الأعمال إنه أرحم الراحمين و إنه ولىّ كل فضل و توفيق.

محمّد سعيد رمضان البوطى

من روائع القرآن، ص: ۱۳

تمهيد أوّل تعريف بهذا الكتاب و أهمّ ابحاثه

هذه تأملات علمية و أدبية سريعة فى كتاب اللّه تعالى، أردت أن أوضح من ورائها بعض ما ينطوى عليه هذا الكتاب من روعة البيان و إعجازه، و مدى تأثيره فى مختلف العلوم التى تزخر بها المكتبة العربية اليوم، مما لا بدّ للأديب و دارس العربية من الوقوف عليه.

و هى كما قلت، لا تزيد على أن تكون تأملات .. فلم أقصد منها استقصاء لبحث، و لا تحقيقا جامعا لفن، و لو قصدت إلى ذلك لضاقت بى السّبل و استعصى علىّ البحث، و لاحتاج الأمر إلى مجلدات واسعة عظيمة، و أنى لمثلى أن يأتى بتحقيق جامع لفنون هذا الكتاب المبين، أو أن يستقصى البحث فى آدابه و بلاغته و علومه؟! و إنما الذى قصدت إليه، هو أن أنال رشفة من بحر هذا البيان الإلهى، و قبضة من كنز علومه، أمتّع بهما الخاطر و النفس، و أسعد بهما الفكر و الخيال.

و حسبى، و حسب القارئ، أن نقف من وراء ذلك وقفة المتأمل الخاشع عند شاطئ هذا اليم. نمتّع البصر فيما يعجز عن إدراك كنهه العقل، و نرهف السمع لهذا الذى سجد لبيانه البيان.

و كم من جمال تذوب تأثرا به النفس، و لا يحدّه الفكر و العقل. و كم من حقيقة جاثمة وراء حدود دلالة النطق و الكلام، فلا يعبّر عنها إلا الحيرة الخاشعة و لا يتبيّنها سوى صادق الإحساس.

من روائع القرآن، ص: ۱۴

ثم إن هذا الكتاب الإلهى العظيم، ينطوى على علوم مختلفة هامة، تتعلق بمضمونه و تاريخ نزوله، كما ينطوى على صور رائعة من الجمال فى تعبيره و أسلوبه و إنما يتعلق الغرض هنا بعرض سريع موجز لكلا الجانبين. إذ لا معنى لدراسة الأدب العربى بدون أىّ دراسة لينبوع هذا الأدب كله، و هو القرآن.

و لا قيمة لدراسة فنون العربية و علومها بدون الرجوع إلى ميزان هذه العلوم و معتمدها الأول و لا اعتبار لأدب أديب يترطن فى تلاوة القرآن و لا يكاد يبين.

و هذا يعنى أن الغرض إنما يتناول من ذلك كله، القدر الذى يخصّ العربية و علومها و آدابها، أما ما يمتد من وراء ذلك إلى علوم الفقه و أصوله أو التفسير و علم الكلام، فلا شأن لنا به فى هذا المقام.

و هذه الحاجة المحدودة بهذا الشكل و القدر، هى التى ألجأتنى إلى الكتابة فى هذا الفن، رغم كثرة الشواغل و الصوارف المختلفة. فقد رجعت إلى كل ما وقع تحت يدى من كتب هذا البحث مما ألّف قديما و حديثا، فما وجدت فيه شيئا يفى بحاجة من يقبل على دراسة الأدب العربى، و إن كان كلّ منها يقع موقعا من حاجته و يسدّ مسدّا فيها. فالبعض منها يتناول زاوية صغيرة محدودة من مجموع ما يتعلق به الغرض فى هذا المقام، و البعض منها يطنب و يتوسع فى أبحاث علوم القرآن حتى يتجاوز الأمر بالقارئ حدود العربية و آدابها إلى الإسلاميات و علومها.

و لقد انتهى الضعف بطلاب العربية و علومها فى عصرنا إلى حدّ لا يكادون يستطيعون التعرّف فيه على شىء من هذه الكتب أو الأمّهات القديمة، و لا يكادون يملكون صبرا على قراءتها أو تصفحها، و يبدو أننا (و يا للأسف) لم ندرك بعد سرّ هذه الغاشية و لا علاجها.

فمن أجل كل ذلك اضطررت إلى أن أكتب بضع صفحات فى هذا الفن، أتيمم فيها حاجة الأدب العربى و كفايته، و استهدف من

ورائها أن يتـذوق طلاب العربيـة هـذا السـموّ الرائع فى البيان القرآنى، تـذوقا جيدا. فإنهم إذا تذوقوه طربوا له، و إذا طربوا له أقبلوا إليه قراءة و فهما، و إذا أقبلوا إليه بهذا

من روائع القرآن، ص: ۱۵

الشكل، استقامت ألسنتهم و تخلصت من عوج العاميّة و رطانتها و تذوقوا الأدب العربى فى كل فروعه و جوانبه.

و تحقيقا لهذا الهدف، قسمت هذا الكتاب بعد المقدمة و التمهيد إلى ثلاثة أقسام:

(القسم الأول) و يتناول خلاصة لتاريخ القرآن و علومه و هى تشمل:

۱- القرآن: تعريفه و حقيقته.

۲- نزول القرآن منجّما و الحكمة من ذلك ..

۳- أسباب النزول ..

۴- كيفية جمع القرآن و كتابته.

۵- رسم القرآن.

۶- الأحرف السبعة: خلاصة جامعة عنها.

۷- القراءات و القرّاء: لمحة دراسية عنها.

۸- المكّى و المدنى.

۹- التفسير: نشأته و تطوره و مذاهبه.

۱۰- المبهم و المتشابه فى القرآن.

(القسم الثانى) و يتناول دراسة موجزة لمنهجه و أسلوبه، و تشمل هذه الدراسة الأبحاث التالية:

۱- "أسلوب القرآن: نظرة عامة فيه، ثم دراسة لخصائصه.

۲- "إعجاز القرآن: بيانه و دليله و وجوهه.

۳- "موضوعات القرآن و طريقة عرضه لها: دراسة مختصرة سريعة.

۴- "التصوير فى القرآن: مظهره و وسائله.

۵- "الأمثال فى القرآن.

۶- "القصة فى القرآن: أغراضها و منهجها.

۷- "المنهج التربوى فى القرآن.

۸- "النزعة الإنسانية فى القرآن.

من روائع القرآن، ص: ۱۶

۹- "فلسفة القرآن عن الكون و الإنسان و الحياة.

۱۰- "هل من الممكن ترجمة القرآن.

(القسم الثالث) و يتناول نماذج من النصوص القرآنية فى بعض موضوعاته نتبعها بشرح أدبى مركّز، يكون تطبيقا للدراسات النظرية التى تناولها أبحاث القسم الثانى، و مثالا يحتذيه القارئ فى شرح بقية آى الكتاب الكريم، مستعينا على ذلك بالرجوع إلى مختلف تفاسير الكتاب الكريم.

و أسأل اللّه ربّ العالمين، أن يوفّقنا لأن نجعل دراستنا للعربية خدمة لكتابه، و لا يتركنا ندرس كتابه خدمة للعربية، و أن يبصّر عقولنا بالحق، و يجبّب إلى قلوبنا اتّباعه و التمسك به. و حسبى اللّه و نعم الوكيل.

من روائع القرآن، ص: ۱۷

تمهيد ثان بتعريف أهمّيّة القرآن فى الأدب العربىّ و وجوه ذلك

اشارة

لعلّ البعض يتساءل عن وجه الحاجة إلى دراسة القرآن، فى الأدب العربى، و لعلّه يحسب أن فى ذلك خلطا بين الآداب و الإسلاميات، لا وجه له و لا ضرورة إليه.

و الجواب، أن لهذا الكتاب العظيم أهمية بالغة من جوانب مختلفة متعددة. فإن له جانبا تشريعيا هاما، لا ينفكّ عن الحاجة إلى دراسته كل متطلّع إلى دراسة الفقه و التشريع. و إن له مع ذلك جانبا متعلقا بالعقيدة و الفلسفة و الأخلاقيات، لا ينفكّ عن الحاجة إلى دراسته كل مقبل إلى دراسة العقائد أو الفلسفة أو الأخلاق، كما أن له مع ذلك جانبا أدبيّا أصيلا بعيد الجذور فى تاريخ الأدب العربى، عظيم الأثر فى توجيهه و تطويره و تقويمه، فمن أجل ذلك كان لا بدّ لمن أراد العكوف على دراسة العربية و آدابها من أن يعكف على دراسة القرآن و علومه، و كلما ابتغى مزيدا من التوسع فى العلوم العربية و ثقافتها، احتاج إلى مزيد من التوسّع فى دراساته القرآنية المختلفة.

و إليك ملخصا من وجوه هذه الحاجة و أسبابها:

السبب الأول-

أن هذا الكتاب العربى المبين، هو أول كتاب ظهر فى تاريخ اللغة العربية «۱» و إنما نشأت حركات التدوين و التأليف بعد ذلك على

---

(۱) مضمون هذا الكتاب، كلام اللّه الأزلى القديم، و هو من هذا الجانب لا يبدأ من تاريخ و ليس له ميلاد ظهور أو تدوين، و لكننا نقصد بالكتاب فى هذا المجال هذه الكلمات و الأحرف و الصفحات التى تضبطه و تحدّه و التى ظهرت و دوّنت فى حقبة معينة من الزمن.

من روائع القرآن، ص: ۱۸

ضوؤه و سارت بإشراقه، و تأثرت بوحيه و أسلوبه. و من أجل ذلك، كان مظهرا هامّا للحياة العقلية و الفكرية و الأدبية التى عاشها العرب فيما بعد. فكيف يتأتى أن يكون هذا الكتاب مع ذلك بمعزل عن العربية و علومها و آدابها؟!

السبب الثانى-

أن اللغة العربية إنما استقام أمرها على منهج سليم موحد. بسر هذا الكتاب و تأثيره، و هى إنما ضمن لها البقاء و الحفظ بسبب ذلك وحده. فقد كانت اللغة العربية من قبل عصر القرآن أمشاجا من اللهجات المختلفة المتباعدة، و كان كلما امتد الزمن، ازدادت هذه اللهجات نكارة و بعدا عن بعضها.

و حسبك أن تعلم أنّ: المعينية، و السبئية، و القتبانية، و اللحيانية و الثمودية و الصفوية و الحضرمية، كلها كانت أسماء للهجات عربية مختلفة، و لم يكن اختلاف الواحدة منها عن الأخرى محصورا فى طريقة النطق بالكلمة، من ترقيق أو تفخيم أو إمالة أو نحو ذلك، بل ازداد التخالف و اشتد إلى أن انتهى إلى الاختلاف فى تركيب الكلمة ذاتها و فى الحروف المركبة منها، و فى الإبدال و الإعلال و البناء و الإعراب.

فقضاعة مثلا كانت تقلب الياء جيما إذا كانت ياء مشددة أو جاءت بعد العين، و كانت العرب تسمى ذلك: عجعجة قضاعة. و من ذلك قول شاعرهم:

خالى عويف و أبو علجّالمطعمان اللحم بالعشجّ

و بالغداة قطع البرنجيؤكل باللحم و بالصيصجّ و حمير كانت تنطق ب «أم» بدلا من «أل» المعرفة فى صدر الكلمة، و كانت العرب تسمى ذلك طمطمانية حمير، و من ذلك قول أحدهم لرسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم يسأله:

أ من امبر امصيام فى امسفر؟ يريد أن يقول: هل من البرّ الصيام فى السفر؟

و هذيل كانت تقلب الحاء فى كثير من الكلمات عينا، فكانوا يقولون

من روائع القرآن، ص: ۱۹

أعل اللّه العلال بدلا من أحلّ اللّه الحلال ..

و هكذا دواليك .. فقد كانت كل قبيلة تختلف فى النطق عن الأخرى بوجوه من الاختلافات كثيرة، حتى باعد ذلك بين ألسنة العرب و أوشك أن يحوّل اللغة الواحدة إلى لغات عدّة متجافية لا يتفاهم أهلها و لا يتقارب أصلها.

و لقد بلغ من تخالف هذه اللهجات و تباعدها، أن كثيرا من وفود هذه القبائل التى أخذت تفد فى صدر الإسلام إلى رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم كانوا يلقون كلمات و خطبا لا يكاد يفهمها القرشيون من أصحابه عليه الصلاة و السلام و لقد قال علىّ رضى اللّه عنه لرسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم، و قد سمعه يخاطب بنى نهد:

يا رسول اللّه، نحن بنو أب واحد، و نراك تكلم وفود العرب بما لم نفهم أكثره! .. فقال عليه الصلاة و السلام: أدّبنى ربى فأحسن تأديبى «۱».

فلما نزل القرآن، و تسامعت به العرب، و ائتلفت عليه قلوبهم، أخذت هذه اللهجات بالتقارب، و بدأ مظاهر ما بينها من خلاف تضمحل و تذوب، حتى تلاقت تلك اللهجات كلها فى لهجة عربية واحدة، هى اللهجة القرشية التى نزل بها القرآن و أخذت ألسنة العرب على اختلافهم و تباعد قبائلهم تنطبع بطابع هذه اللغة القرآنية الجديدة. فكان ذلك سرّ هذا الشريان السحرى العجيب الذى امتدّ فى أجلها، فاستصلبت بعد ميعة، و قويت بعد تفكك، و اتحدت بعد تناثر، ثم مرّت على مصرع أعظم لغة عالمية شاملة هى «اللاتينية» بينما تغلى هى حيوية و قوة و إشراقا. فكيف تمكن مع ذلك دراسة شىء من أدب هذه اللغة دون دراسة روحها التى تعيش بها و شريانها الذى يمتدّ فيها و ينسأ من أجلها؟

السبب الثالث:

أن البلاغة و البيان و جمال الكلمة و التعبير- كل ذلك كان

---

(۱) هذا الحديث مروى بطرق مختلفة كلها تدور على السدى عن ابن عمارة الجوانى عن على بن أبى طالب رضى اللّه عنه. و صحّحه أبو الفضل بن ناصر، و قال عنه ابن حجر غريب، و قال عنه السخاوى سنده ضعيف و لكن معناه صحيح. و انظر المقاصد الحسنة للسخاوى: ۲۹ و فيض القدير على الجامع الصغير: ۱/ ۲۳۵.

من روائع القرآن، ص: ۲۰

عصر القرآن أسماء لا تكاد تنحطّ على معنى واضح متفق عليه. و إنما بلاغة كل جماعة أو قبيلة ما تستسيغه و تتذوقه، و لذلك كانت المنافسات البلاغية تقوم فيما بينهم و تشتد ثم تهدأ و تتبدد، دون أن تنتهى بهم إلى نتيجة، إذ لم يكن أمامهم مثل أعلى يطمحون إليه و لا صراط واحد يجتمعون عليه، و لم يكن للبلاغة العربية معنى إلا هذا الذى يصدرون هم عنه من كلام فى الشعر و النثر، و هم إنما

يذهبون فى ذلك طرائق قددا، و يتفرقون منه فى أودية متباعدة يهيمون فيها.

و هيهات، لو استمر الأمر على ذلك، أن توجد للبلاغة و البيان العربى حقيقة تدرك أو قواعد تدرس، أو قوالب أدبية تهذب العربية و تحافظ عليها.

فلما تنزل القرآن، و التفتوا إليه فدهشوا لبيانه، و سجدوا لبلاغته و سموّ تعبيره، و أجمعوا على اختلاف أذواقهم و مسالكهم و لهجاتهم أن هذا هو البيان الذى لا يجارى و لا يرقى إليه النقد- كان ذلك إيذانا بميلاد مثلهم الأعلى فيما ظلوا يختلفون فيه و يتفرقون عليه، و أصبحت بلاغة هذا الكتاب العزيز بعد ذلك هى الوحدة القياسية التى تقاس إليها بلاغة كل نص و جمال كل تعبير، ثم تعاقبت الدراسات عليه من أرباب هذا الشأن و علمائه، فاستخرجوا منه قواعد البلاغة و مقوّمات البيان و مسالك الإعجاز فكانت هذه العلوم البلاغية التى امتلأت بها المكتبة العربية، و أصبحت فنا مستقلا بذاته. و لو لا القرآن لما عرف هذا الفن و لا استقامت تلك الأصول و القواعد، و لتبدّد المثل البلاغى الأعلى فى أخيلة فصحاء العرب و شعرائهم ... فكيف يستقيم مع ذلك، أن يدرس هذا الفن و أصوله بمنأى عن مثله الأعلى و مصدره العظيم الأول؟

السبب الرابع:

أن متن هذه اللغة، كان مليئا قبل عصر القرآن بالكلمات الحوشية الثقيلة على السمع المتجافية عن الطبع. و لو ذهبت تتأمل فيما وصل إلينا من قطع النثر أو الشعر الجاهلى، لرأيت الكثير منها محشوّا بهذه الكلمات التى وصفت و إن كنت لا تجد ذلك إلا نادرا فى لغة قريش.

و إليك هذه القطعة النثرية نموذجا لكلامهم فى الجاهلية، أو لكلام الأعراب الذين أدركوا الإسلام و لكن ألسنتهم ظلت على ما انطبعت عليه فى نشأة الجاهلية، و هى كلمات قالها أعرابى وقف بين الناس يستجدى مالا.

من روائع القرآن، ص: ۲۱

(أما بعد فإنى امرؤ من الملطاط الشرقى المواصى أسياف تهامة، عكفت علينا سنون محش، فاجتبّت الذرى و همشت العرى و جمشت النجم و أعجّت البهم، و همّت الشحم، و التحبت اللحم، و أحجنت العظم، و غادرت التراب مورا، و الماء غورا، و الناس أوزاعا و الضّهل جراعا، و المقام جعجاعا، فخرجت لا أتلفّع بوصيدة، و لا أتقوّت بمهيدة، فالبخصات وقعة و الركبات زلعة، و الجسم مسلهم، و النظر مدرهم، فهل من آمر بمير أو داع بخير) «۱».

فلما تنزل القرآن، و أقبلت إليه الآذان، أخذت هذه الكلمات الجافية تختفى عن ألسنة العرب رويدا رويدا، و أصبح متن اللغة العربية كله مطبوعا بالطابع القرآنى، و نما ذوق عربى فى نفوس العرب أنبته لديهم القرآن و أسلوبه.

و مردّ ذلك إلى أن كلمات هذا الكتاب المبين، رغم أنها كانت عربية لم تتجاوز حدود هذه اللغة و قاموسها، تمتاز، فى صياغتها و موقع كلّ منها مما قبلها و بعدها بجرس مطرب فى الآذن لم يكن للعرب عهد به من قبل، هذا إلى أن كثيرا من الاشتقاقات و الصيغ الواردة فيه، تكاد تكون جديدة فى النطق العربى، و هى مع ذلك توحى بمعناها إلى الفطرة و الطبع، قبل أن يهتدى السمع إليها بالمعرفة و الدرس. و سنسهب فى إيضاح هذا إن شاء اللّه عند حديثنا عن إعجاز القرآن.

---

(۱) الملطاط، حرف من أعلى الجبل أو جانب منه. و المواصى، أى المتصل. و أسياف جمع سيف يقال لساحل البحر. و محش بمعنى محرق أى أحرقت الزرع و الكلأ- و فاجتبت بمعنى قطعت. و العرى جمع عروة و هى القطعة من الشجر و جشت بمعنى حلقت، و النجم النبات الذى لا يستقيم على ساق، و أعجت البهم أى جعلتها عجايا و هى جمع عجى و هو ما فقد أمه من الإبل، و همت الشحم: أذابته، و التحبت اللحم أى قشرته عن العظم أى عوجته فصيّرته كالمحجن. و غادرت التراب مورا أى يمور مورا بمعنى يجيء و

يـذهب، و الغور: الغائر، و الأوزاع: الأقسام المشـتتة، و الضـهل: الماء القليل، و جراعا جمع جرع و هو ما لا يروى من الماء، و الجعجاع: المكان الـذى لا يطمئن من قعـد فيه. لا أتلفع: لا أشـتمل، بوصـيدة: أى بأى شـىء منسوج، و المهيدة: حب الحنظل، و البخصات جمع بخص: لحم باطن القـدم، و وقعه من قولهم وقع الرجل إذا اشـتكى لحم باطن قـدمه، و الزلعة جراحة فاسدة تكون من تشـقق اللحم فى القدم أو الركبة. و مسلهم:

ضـامر متغير. و مـدرهم من ضـعف بصـره بسـبب جوع أو نحوه، و المير: العطيـة من الطعـام. هـذا و راجع المزهر للسـيوطى لتقف على نماذج كثيرة من هذا القبيل.

من روائع القرآن، ص: ۲۲

فكـان من أثر ذلـك أن انصـرفت الأـذواق إلى الاسـتفادة من كلماته و الجديـد من صـياغته، و هجرت تـدريجا ما اسـتثقل و غلظ من الألفاظ و التراكيب.

و إنك لتـدرك هـذا جيـدا حينما نعرض للمقارنة نصّا أدبيا من العصـر الجاهلى و آخر من العصـر الإسـلامى. فسـتجد أن الأول يمتاز بتضاريس من الجمل و الكلمات الثقيلة الخشنة و أن الثانى قد صقلته البلاغة القرآنية فى كلّ من الأسلوب و الجمل و الكلمات.

فهذه خلاصة عن وجوه أهمية دراسة هذا الكتاب العظيم و أثرها فى دراسة الأدب العربى.

و إذا كنت تؤمن اليوم بهـذا الـذى ذكرناه من الناحية النظرية و العقلية المجردة؛ فلسوف تؤمن بذلك على أساس من البرهان التجريبى و التطبيقى عند ما تمارس هذا الكتاب الإلهى تلاوة مستمرة و دراسة دقيقة و تأملا هادئا.

من روائع القرآن، ص: ۲۳

القسم الأول تاريخ القرآن و علومه

اشارة

من روائع القرآن، ص: ۲۵

تاريخ القرآن

القرآن تعريفه، و حقيقته

القرآن هو: اللفظ العربى المعجز الموحى به إلى محمد صلّى اللّه عليه و سلّم المتعبّد بتلاوته و الواصل إلينا عن طريق التواتر.

إذا تأملت فى هذا التعريف، وجدت فيه قيودا أربعة، هى:

المعجز، الموحى به، المتعبد بتلاوته، المتواتر.

فلنشرح كلّ واحد منها على حدة، لنتبين حقيقة القرآن الكريم من وراء هذا التعريف، و نقف على ضبطه و حدوده.

أولا- المعجز: و يقصـد منه ما اتصف به القرآن من البلاغـة و البيان اللـذين أعجزا بلغاء العرب كافّة عن الإتيان بأقصـر سورة من مثله، رغم التحـدى المتكرر، و رغم التطلّع الشديـد لـدى الكثير منهم إلى معارضـته و التفوق على بيـانه. و للقرآن وجوه غير هـذا الوجه فى إعجازه، و لكن الوجه المقصود منها عند التعريف هو هذا. و لن نطيل هنا فى شرح معنى الإعجاز القرآنى و تحليله، فإن لذلك موضعا خاصا به فى هذا الكتاب إن شاء اللّه.

ثانيا- الموحى به: و معناه المنزّل عليه من اللّه عزّ و جلّ بواسطة جبريل، و هذا أهم قيد فى تعريف القرآن و تحديد ماهيته.

و إذا كان «الوحى» عنصـرا هاما فى حقيقة القرآن و تعريفه، فلا بدّ من دراسة وافية- و إن كانت موجزة- لهذه الكلمة، و تحليل صادق

لحقيقتها. و من أهم أسباب هذه الضرورة أن دراسات مختلفة حديثة حامت حولها، لا قصدا

من روائع القرآن، ص: ۲۶

لتفهمها، بل بغية مدّ غاشية من الغموض عليها، ثم الوصول بها إلى المعنى الذى يراد ربطها به، و إن لم تكن منه فى شىء.

فلنتنبه بفكر موضوعى مجرد و عقل علمى متحرّر، و لنتساءل مع المتسائلين:

ما هو هذا الوحى الذى جاء بهذا القرآن فوضعه بين يدى محمد عليه الصلاة و السلام؟

أ هو نوع من الإلهام النفسى أم هو حركة فكرية داخلية؟

أم هو إشراق روحى جاءه عن طريق الكشف التدريجى؟

أم هو ضرب من الصرع و الجنون كان ينتابه كما قد قيل؟

أم هو استقبال لحقيقة ذاتية مستقلة عن كيانه يتلقاها من خارج فكره و شعوره؟

و نحن لا نملك سبيلا علمية صحيحة للإجابة على هذه الأسئلة إلّا بالرجوع إلى حقائق التاريخ الثابتة الواصلة إلينا عن طريق النقل الصحيح.

و إذا رجعنا نسأل حقائق التاريخ فإنها تضعنا أمام حديث قصة بدء الوحى الذى رواه البخارى و مسلم و غيرهما.

و الحديث طويل، و حسبنا أن نجتزئ منه فى هذا المقام ما يكشف لنا سبيلا صحيحة للإجابة على هذه الأسئلة.

ففى الحديث أن ملكا فاجأه فى غار حراء يتعبد، فقال له: اقرأ، فقال:

ما أنا بقارئ، فأخذه الملك فغطّه حتى بلغ منه الجهد ثم أرسله فقال: اقرأ، فقال: ما أنا بقارئ، و تكرر هذا من الملك و الرسول عليه الصلاة و السلام ثلاث مرات، و فى المرة الثالثة قال الملك: (اقرأ باسم ربك الذى خلق، خلق الإنسان من علق، اقرأ و ربك الأكرم الذى علّم بالقلم، علّم الإنسان ما لم يعلم) فكان ذلك أول ما نزل من القرآن.

و فى الحديث أيضا أنه عليه الصلاة و السلام نزل عقب ذلك من الغار

من روائع القرآن، ص: ۲۷

عائدا إلى البيت و إن فؤاده ليرتجف خوفا. و فى الحديث أيضا أن خديجة ذهبت به إلى ورقة بن نوفل، و كان شخا كبيرا قد تنصّر فى الجاهلية فأخبره بالأمر، فقال له ورقة: إن هذا هو الناموس (أى الوحى) الذى نزل على موسى، و طمأنه أنه ليس شرّا. و فى الحديث أيضا أن الوحى قد انقطع بعد ذلك مدة طويلة من الزمن، و أن الضيق و الألم قد استبدا به صلّى اللّه عليه و سلّم من ذلك، خوفا من أن يكون قد أساء فتحول عنه الوحى لذلك. ثم إنه رأى ذلك الملك مرة أخرى، و قد ملأ مظهره ما بين السماء و الأرض، قال: فرعبت منه و رجعت فقلت:

زملونى زملونى .. فنزل عليه قوله تعالى يا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ، قُمْ فَأَنْذِرْ، وَ رَبَّكَ فَكَبِّرْ إلى قوله وَ الرُّجْزَ فَاهْجُرْ ثم تتابع الوحى بعد ذلك.

هذه الحقائق الواردة فى هذا الحديث لا يمكن أن نتجاهلها أو نردّها بشكل ما، لسببين:

أولهما- أن ظاهرة الوحى التى يتحدث الكاتبون عن حقيقتها إنما وصلت إلينا عن طريق هذا الحديث و نحوه، فإذا ضربت صفحا عن هذه الكلمة نفسها، إذ لا معنى للبحث فى شىء غير موجود و لا واقع من أساسه.

ثانيهما- أن الحديث ليس من قبيل هذه الاستنتاجات النظرية أو التاريخية التى يجنح إليها كثير من باحثى هذا العصر و يبنون عليها أحمالا و أثقالا من الأحكام الخطيرة الهامة، بل هو خبر نقل بواسطة سند متصل من الرواة، خلا أصحابه- بعد الدراسة لتراجمهم و أحوالهم- عن أى تهمة تبعث الشك فى كلامهم.

و إذا فرضنا أن يكون الوحى ليس إلا شعورا نفسيا أو إشراقا روحيا أو إلهاما داخليا، ثم عدنا إلى هذا الحديث، وجدناه يناقض هذا الفرض مناقضة صريحة صارخة، لأسباب كثيرة نذكر منها ما يلى:

۱- إن شيئا من حالات الإلهام أو حديث النفس أو الإشراق الروحى، لا يستدعى الخوف و الرعب و اصفرار اللون، و ليس ثمة أى انسجام بين

من روائع القرآن، ص: ۲۸

التدرّج فى التفكير و التأمّل من ناحية، و مفاجأة الخوف و الرعب من ناحية أخرى؛ و إلا لاقتضى ذلك أن يعيش عامّة المفكرين و المتأملين و الملهمين نهبا لدفعات من الرعب و الخوف المفاجئة المتلاحقة! و أنت خبير أن الخوف و الرعب و رجفان الجسم و تغيّر اللون- كل ذلك من الانفعالات القسرية التى لا سبيل إلى اصطناعها و التمثيل بها، حتى لو فرضنا إمكان صدور المخادعة و التمثيل منه عليه الصلاة و السلام، و فرضنا المستحيل من انقلاب طباعه المعروفة قبل البعثة إلى عكسها تماما.

إن صاحب الإلهام و الإشراق النفسى و الروحى، ليس من شأنه أن تتجسد إلهاماته أمام عينيه فجأة فيرتعد منها ثم يحسبها أتيّا من الجنّ.

و لقد فوجئ عليه الصلاة و السلام بالملك يخاطبه و يكلّمه، و لقد ارتجف خوفا منه و ذهب فى محاولة معرفته كل مذهب، حتى ظن أنه قد يكون من الجان، و ذلك معنى قوله لخديجة (لقد خشيت على نفسى).

۲- "لقد قضت الحكمة الإلهية أن يحتجب عنه الملك الذى رآه لأول مرة فى غار حراء، مدة طويلة؛ و لقد استبدّ به القلق و الضجر من أجل ذلك، ثم تحول القلق لديه إلى خوف فى نفسه من أن يكون اللّه عزّ و جلّ قد قلاه، بعد أن أراد أن يشرّفه بالوحى و الرسالة لسوء قد صدر منه، حتى لقد ضاقت الدنيا عليه، و راحت تحدّثه نفسه كلما وصل إلى ذروة جبل أن يلقى بنفسه منها .. إلى أن رأى بنفسه الملك الذى رآه فى حراء و قد ملأ شكله ما بين السماء و الأرض: يقول: يا محمد أنت رسول اللّه إلى الناس.

إن هذه الحالة التى مرّ بها محمد عليه الصلاة و السلام، تجعل مجرد التفكير فى كون الوحى إلهاما نفسيا ضربا من الهوس و الجنون.

إذ من البداهة بمكان أن صاحب الإلهامات النفسية و التأملات الفكرية لا يمكن أن يمرّ إلهامه أو تأملاته بشىء من هذه الأحوال.

و أنت إذا تأملت فى هذا الذى ذكرناه، اتضحت أمامك الحكمة الإلهية العليا فى أن يولد الوحى و تسير النبوّة فى حياة محمد صلّى اللّه عليه و سلّم بهذا الشكل الذى ورد به الحديث.

من روائع القرآن، ص: ۲۹

فقد كان اللّه عزّ و جلّ قادرا على أن يربط على قلب رسوله، و يطمئن نفسه بأن هذا الذى كلّمه ليس إلا جبريل: ملك من ملائكة اللّه جاء ليخبره أنه رسول اللّه إلى الناس؛ و لكن الحكمة الإلهية الباهرة تريد إظهار الانفصال التام بين شخصية محمد صلّى اللّه عليه و سلّم قبل البعثة، و شخصيته بعدها، و بيان أن شيئا مما قد نزل إليه من هذا الكتاب لم يطبخ فى ذهنه مسبقا، و لم يتصور الدعوة إلى شىء منه سلفا.

غير أن هذا وحده لا يكفى جوابا على كل شىء فى الموضوع. فقد يسأل سائل: فلما ذا كان ينزل عليه صلّى اللّه عليه و سلّم الوحى بعد ذلك، و هو بين الكثير من أصحابه، فلا يرى الملك أحد منهم سواه؟

و الجواب أنه ليس شرط وجود الموجودات أن ترى بالأبصار، إذ إن قوة الإبصار فينا محدودة بحدّ معين، و إلا لاقتضى ذلك أن يكون الشىء معدوما إذا ابتعد عن البصر بعدا يمنع من رؤيته. على أن من اليسير على اللّه عزّ و جلّ- و هو الخالق لهذه العيون المبصرة- أن يزيد فى قوة ما شاء منها فيرى ما لا تراه العيون الأخرى. و لعلك تعلم أن هنا لك ألوانا لا تراها كل العيون، و هنالك أيضا- كما يقول مالك بن نبى- مجموعة من الإشعاعات الضوئية دون الضوء الأحمر و فوق البنفسجى لا تراها أعيننا، و لا شىء يثبت علميا أنها كذلك بالنسبة لجميع العيون. فلقد توجد عيون أقل أو أكثر حساسية «۱».

ثم إنك لو ذهبت تحلّل الوحى بأنه ظاهرة نفسية داخلية، لامتزج القرآن بالحديث، و لما أمكن أن يكون ثمة أى فرق بينهما، مع أن الفرق بينهما ظاهر واضح، يتمثل فى أسلوب كلّ منهما و يتمثل فى علاقته صلّى اللّه عليه و سلّم بكلّ منهما.

فقد كان يرسل ألفاظ الحديث إرسالا، مكتفيا بأن يستودعه ذاكرة أصحابه، على حين يأمر بتسجيل كل ما يوحى إليه من آى القرآن و يظل يكرره و يعيده خوفا من أن ينساه فلا يذكره.

و كان صلّى اللّه عليه و سلّم يسأل عن كثير من الأمور فلا يجيب عليها، و ربما مرّ على

---

(۱) انظر الظاهرة القرآنية لمالك بن نبى.

من روائع القرآن، ص: ۳۰

إمساكه عنها زمن طويل، حتى إذا نزلت آية من القرآن فى شأن ذلك السؤال، طلب السائل و تلا عليه ما نزل من القرآن فى شأنه، و ربما تصرف هو نفسه فى بعض الأمور على نحو معيّن، فنزلت آيات من القرآن تصرفه عن ذلك الوجه بل ربما انطوت على شىء واضح من العتب و اللوم.

ثم إنه عليه الصلاة و السلام كان يعلن فى كل مرة أن القرآن كلام اللّه، و أنه ليس إلا أمينا على نقله و تبليغه، و أنه يتلقاه من جبريل عليه السّلام. و لقد ظل عليه الصلاة و السلام صادقا أربعين سنة مع قومه، حتى كان بينهم مثال الصدق و الأمانة. و بدهى أن مثل هذا الإنسان لا بدّ أن يكون قبل كل ذلك صادقا مع نفسه، يتحرى الدقة فى كل مشاعره و أقواله و إحساساته.

و بعد ذلك كله، فقد كان- على ما أجمع عليه المؤرخون- أميّا لم يقرأ كتابا و لا خطّه بيمينه، و لم يدرس تشريعا و لا تاريخا و لا شيئا من قصص الرسل و الأنبياء السابقين، فمن أىّ نافذة طبيعية يمكن لهذه الإلهامات كلها أن تتنزل عليه، و كيف لها بأن تنبع هكذا من داخل قلبه و عقله؟

لا جرم أن الوحى القرآنى إذا، إنما هو استقبال منه صلّى اللّه عليه و سلّم لحقيقة ذاتية مستقلة خارجة عن كيانه و شعوره الداخلى؛ و بعيدة عن كسبه أو سلوكه الفكرى أو العملى.

أما قول بعض المستشرقين بأنه لم يكن إلا نوعا من الصرع ينتابه بين الحين و الآخر، فليس من النظريات العلمية الموضوعية فى شىء حتى نضعه تحت مجهر البحث و النقاش، و نضيّع وقتا قصيرا أو طويلا فى الكلام عنه.

و نعود بعد هذا إلى شرح القيود المأخوذة فى تعريف القرآن الكريم:

ثالثا- التعبّد بتلاوته. و المقصود به أن من خصائص هذا الكتاب الكريم أن مجرد قراءته تكسب القارئ أجرا و مثوبة عند اللّه، و أن ذلك يعتبر نوعا من العبادة المشروعة، و أن الصلاة لا تصح إلا بقراءة شىء منه و لا يغنى عنه غيره من الأذكار أو الأدعية أو الأحاديث.

رابعا- وصوله عن طريق التواتر. و معناه أن قرآنية آية من القرآن لا

من روائع القرآن، ص: ۳۱

تثبت حتى تصل إلينا بطريق جموع غفيرة لا يمكن اتفاقها على الكذب، ترويها عن جموع مثلها إلى الناقل الأول لها بعد أن تنزلت عليه وحيا من اللّه عزّ و جلّ، و هو سيدنا محمد عليه الصلاة و السلام.

فإذا تأملت هذه القيود الأربعة فى التعريف تصورت حقيقة القرآن خالية عن شوب أى ليس بالحديث النبوى أو القراءات الشاذّة أو الحديث القدسى أو الترجمة الحرفية أو غير الحرفية للقرآن. إذ الحديث ليس بمعجز و القراءات الشاذّة غير متواترة، و الحديث القدسى غير معجز، ذلك لأن اللفظ فيه من الرسول عليه الصلاة و السلام، و الترجمة ليست هى اللفظ المنزّل.

من روائع القرآن، ص: ۳۲

نزول القرآن منجّما و الحكمة فى ذلك

اشارة

يقول اللّه تعالى فى كتابه: وَ قُرْآناً فَرَقْناهُ لِتَقْرَأَهُ عَلَى النَّاسِ عَلى مُكْثٍ وَ نَزَّلْناهُ تَنْزِيلًا.

و يقول أيضا: وَ قالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ لا نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ جُمْلَةً واحِدَةً، كَذلِكَ، لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤادَكَ وَ رَتَّلْناهُ تَرْتِيلًا.

نعلم من دلالة هاتين الآيتين، و مما ثبت ثبوتا قاطعا فى السنّة و التاريخ عن طريق السند الصحيح، أن القرآن لم ينزل على رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم جملة واحدة كما نزلت التوراة على سيدنا موسى، بل كان نزوله متدرجا، فتارة تنزل عليه الآية أو الآيتان أو ثلاث آيات، و تارة تنزل عليه سورة بجملتها، كالفاتحة، و المدّثر، و هذا معنى أنه كان ينزل منجّما، و قد ظلت آيات هذا الكتاب المبين تتتابع على مهل و تدرّج، حتى نزلت آخر آية منها قبل وفاته صلّى اللّه عليه و سلّم بتسع ليال. و هو قوله تعالى:

وَ اتَّقُوا يَوْماً تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ ثُمَّ تُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ ما كَسَبَتْ وَ هُمْ لا يُظْلَمُونَ «۱».

و ذلك على ما رجحه كثير من العلماء «۲».

---

(۱) البقرة: ۲۸۱.

(۲) أخرجه البخارى بسنده عن ابن عباس و أخرجه النسائى من طريق عكرمة عن ابن عباس أيضا.

و رواه أبو بكر بن عياش عن محمد بن السائب عن أبى السائب عن ابن عباس .. و قد خطأ أبو بكر بن عياش أبا إسحاق فى روايته عن البراء بأن آخر ما نزل من القرآن يَسْتَفْتُونَكَ قُلِ اللَّهُ

من روائع القرآن، ص: ۳۳

حكمة نزول القرآن منجّما:

هنالك حكم هامة و كثيرة تتعلق بنزول القرآن منجما، نذكر منها ما يلى:

أولا- لقد قضت سنّة اللّه تعالى فى عباده أن يلاقى النبى عليه الصلاة و السلام أذى كبيرا من قومه من أجل نهوضه بينهم بتبليغ رسالة ربه، و قد لاقى من ذلك أنواع الشدائد التى جعلته بينهم مدة طويلة غريبا لا ناصر له.

و لقد كان لاتصال الوحى به إذ ذاك و تتابع نزول الآيات عليه تشدّ من أزره، و تحمله على الصبر و المصابرة، و تعده بالنصر و التأييد فى النهاية- كان لذلك أبلغ الأثر فى مواساته و تخفيف تلك الشدة عنه و إزاحة معانى الغربة و الضعف عن نفسه. فمن هذه الآيات مثلا قوله تعالى:

فَاصْبِرْ عَلى ما يَقُولُونَ، وَ سَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَ قَبْلَ الْغُرُوبِ، وَ مِنَ اللَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَ أَدْبارَ السُّجُودِ (ق: ۲۹، ۴۹).

و من ذلك قوله تعالى: فَاصْدَعْ بِما تُؤْمَرُ وَ أَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ، إِنَّا كَفَيْناكَ الْمُسْتَهْزِئِينَ، الَّذِينَ يَجْعَلُونَ مَعَ اللَّهِ إِلهاً آخَرَ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ، وَ لَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ بِما يَقُولُونَ، فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَ كُنْ مِنَ السَّاجِدِينَ، وَ اعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّى يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ (الحجر: ۹۴- ۹۹).

فلو أن القرآن نزل كله عليه جملة واحدة، لكان لانقطاع الوحى عنه بعد ذلك أثر كبير فى استشعاره الوحشة و الغربة. و مهما يكن رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم قد أوتى من العزيمة و الصبر، فإن لبشريته أيضا أثرا بيّنا فى حياته ما دام أنه بشر.

و قد كان لديه صلّى اللّه عليه و سلّم من قوة الإيمان باللّه ما يكفى لأن يحمله على تبليغ دعوة ربه و الجهاد فى سبيلها؛ و لكنه على ذلك لم يكن به غناء عن المواساة و المعونة و التصبير إذ يأتيه كل ذلك من ربه المرة تلو المرة يعيده إلى الأمن و الانشراح و الأنس و الرضى.

يُفْتِيكُمْ فِي الْكَلالَةِ مرجحا رواية ابن عباس التى رويت بطرق عدة. و انظر البرهان للزركشى ۱/ ۲۰۹ و الجامع لأحكام القرآن للقرطبى ۱/ ۶۰.

من روائع القرآن، ص: ۳۴

و هذا المعنى هو ما عبّر عنه القرآن بالتثبيت فى قوله تعالى: كَذلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤادَكَ.

ثانيا- كان رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم أميّا لا يقرأ و لا يكتب، فليس لديه من الوسائل الكسبية ما يضبط و يحفظ به كل ما ينزل عليه إلا وسيلة التكرار و الحفظ. فكان لا بدّ من نزول الآيات بتدرّج و خلال فترات متقطعة من الزمن حتى يكون السبيل إلى حفظه و وعيه أيسر. و على الرغم من ذلك فقد كان من عادته عليه الصلاة و السلام إذا نزلت عليه الآية من القرآن أن يأخذ فى تكرارها و يستعجل فى محاولة حفظها و يظل يحرّك لسانه بها خشية أن تتفلت من حفظه إلى أن نزل عليه قوله تعالى: لا تُحَرِّكْ بِهِ لِسانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ، إِنَّ عَلَيْنا جَمْعَهُ وَ قُرْآنَهُ.

ثالثا- احتوى القرآن على متن الفقه الإسلامى كله، أى على عامة أحكامه فى الجملة سواء ما يتعلق بالعبادات أو المعاملات المدنية أو الأحوال الشخصية أو العقوبات أو النظم الدستورية و المالية.

و كان العرب قبل الإسلام متفلتين عن كل قيد، لا يخضعون لقانون و لا يرتبطون بأى تنظيم، فكان من العسير عليهم أن ينتقلوا من تلك الحالة فى طفرة مفاجأة، إلى التقيد بعامّة أحكام الإسلام و نظمه و قوانينه.

فمن أجل ذلك أخذهم القرآن فى ذلك بالوسيلة التربوية التى لا بدّ منها، و هى وسيلة التدرّج فى نقلهم من حياة الفوضى و التفلت، إلى حياة النظام و التقيد بالمعايير التى لا بدّ منها فى المجتمع الصالح. فنزلت أولا الآيات المتعلقة بالعقيدة و دلائلها، حتى إذا آمن الناس و ثابوا إلى عقيدة التوحيد، نزلت آيات الحلال و الحرام و عامة الأحكام فى مهل و تدرّج.

و فى ذلك يروى الإمام البخارى عن عائشة رضى اللّه عنها أنها قالت:

إنما نزل أول ما نزل من القرآن سور من المفصل، فيها ذكر الجنة و النار، حتى إذا ثاب الناس إلى الإسلام نزل الحلال و الحرام، و لو نزل أول شيء: لا تشربوا الخمر لقالوا: لا ندع الخمر أبدا، و لو نزل: لا تزنوا، لقالوا: لا لا ندع الزنا.

من روائع القرآن، ص: ۳۵

رابعا- اقتضت حكمة اللّه تعالى أن تكون عامة أحكامه التى تضمنها كتابه المبين، جوابا عن أسئلة أو حلّا لمشكلات واقعة، حتى تكون أوقع فى النفس و ألصق بالحياة. و تلك وسيلة تربوية ظاهرة لا تحتاج إلى مزيد بيان لها.

و إنما سبيل ذلك أن تتدرج هذه الأحكام و آياتها فى النزول تنتظر مناسباتها و ظروفها.

و لذلك نجد أن الكثير من آى القرآن إنما نزل جوابا عن سؤال أو حلّا لإشكال، فمن الأول قوله تعالى:

وَ يَسْئَلُونَكَ عَنِ الْيَتامى، قُلْ إِصْلاحٌ لَهُمْ خَيْرٌ، وَ إِنْ تُخالِطُوهُمْ فَإِخْوانُكُمْ ...

و قوله تعالى: يَسْئَلُونَكَ عَنِ الْمَحِيضِ قُلْ هُوَ أَذىً، فَاعْتَزِلُوا النِّساءَ فِي الْمَحِيضِ ...

و قوله جلّ جلاله: يَسْئَلُونَكَ عَنِ الْأَنْفالِ، قُلِ الْأَنْفالُ لِلَّهِ وَ الرَّسُولِ .. و من الثانى قوله تعالى:

وَ لا تَنْكِحُوا الْمُشْرِكاتِ حَتَّى يُؤْمِنَّ، وَ لَأَمَةٌ مُؤْمِنَةٌ خَيْرٌ مِنْ مُشْرِكَةٍ وَ لَوْ أَعْجَبَتْكُمْ.

و قوله تعالى: إِنَّا أَنْزَلْنا إِلَيْكَ الْكِتابَ بِالْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ بِما أَراكَ اللَّهُ وَ لا تَكُنْ لِلْخائِنِينَ خَصِيماً.

فقد نزل كلّ منها حلّا لمشكلة حدثت، و يطول بنا الحديث لو سردنا لك قصة كلّ منها.

خامسا- اقتضى التدرّج بالناس فى التشريع أن يوجد ثمة ناسخ و منسوخ، إذ ربّ حكم كانت المصلحة و الرحمة بالناس تقتضى أخذهم به على مراحل، كتحريم الخمر مثلا، فقد اكتفى القرآن فى أول الأمر ببيان أن أضراره أكثر من فائدته، و ذلك فى قوله تعالى:

يَسْئَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَ الْمَيْسِرِ، قُلْ فِيهِما إِثْمٌ كَبِيرٌ وَ مَنافِعُ لِلنَّاسِ وَ إِثْمُهُما أَكْبَرُ مِنْ نَفْعِهِما، حتى إذا استقرّ فى النفوس

من روائع القرآن، ص: ۳۶

ذلك، نزلت آية تنهى الناس عن السكر فى أوقات الصلاة، و ذلك فى قوله:

يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَقْرَبُوا الصَّلاةَ وَ أَنْتُمْ سُكارى حَتَّى تَعْلَمُوا ما تَقُولُونَ .. و هو كما ترى تحريم جزئى فى فترات متقطعة من الزمن.

فلما أخذ الناس أنفسهم بذلك و اعتادوا الامتناع عن الخمر فى تلك الأوقات، نزلت آية قاطعة تحرمه تحريما كليا. و ذلك هو قوله تعالى: إِنَّمَا الْخَمْرُ وَ الْمَيْسِرُ وَ الْأَنْصابُ وَ الْأَزْلامُ رِجْسٌ مِنْ عَمَلِ الشَّيْطانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ. (المائدة:

۹۰).

و أنت خبير أن كل مرحلة من هذه المراحل السابقة إنما هى نسخ لما قبلها، و تصعيد بالناس إلى طور جديد نحو تكامل التشريع و استقراره.

و هذا لا يتم- كما تعلم- إلا بنزول القرآن منجّما على فترة طويلة من الزمن.

و ثمة حكم أخرى جليلة لهذه الظاهرة فى نزول القرآن، نمسك عن سردها و الإطناب فيها، استغناء بما ذكرنا، و اكتفاء بالنماذج عن الاستقصاء.

من روائع القرآن، ص: ۳۷

أسباب النّزول

اشارة

تبيّن لك مما ذكرناه من نزول القرآن منجّما و أسباب ذلك، أن كثيرا من آيات القرآن كان ينزل بمناسبات و لأسباب.

و الواقع أن آيات القرآن تنقسم إلى طائفتين بالنظر لأسباب النزول، فأما الطائفة منها- و هى التى تتعلق بالتشريع و الأحكام و الأخلاق- فمعظمها كان نزوله مرتبطا بأسباب و وقائع، و أما الطائفة الأخرى- و هى التى تتحدث عن الأمم الغابرة و ما حلّ بها أو عن وصف الجنة و النار و القيامة- ففيها الكثير مما نزل ابتداء بدون سبب أو واقعة معينة.

و سنتحدث أولا عن حكمة هذا الأمر، ثم عن أمثلة و نماذج لذلك، ثم عن أهمية معرفة أسباب النزول للتمكّن من تفسير الآيات على وجهها الصحيح، ثم عن أهمية «أسباب النزول» من حيث إنه علم مستقل من علوم القرآن و عن اهتمام العلماء بالكتابة عنه و إفراد التآليف فيه.

أولا- حكمة ارتباط الآيات بأسباب النزول:

و لقد علمت أن فى القرآن الكثير مما نزل ابتداء بدون سبب. و إذ تأملت، وجدت أن معظم ما نزل ابتداء إنما هو من نوع الوصف و الإخبار، و أن معظم ما نزل بسبب إنما هو من نوع الأوامر و النواهى و التوجيه و الإرشاد.

و هذه الظاهرة تدلك على الحكمة فى هذا الأمر.

فهذا النوع الثانى من الآيات، إنما شأنه تحويل حياة الناس إلى الأفضل

من روائع القرآن، ص: ۳۸

و صدّهم عن السيئ و القبيح، و هدايتهم إلى الأقوم. و أنت خبير أن الأفكار التوجيهية و الأحكام التشريعية تكون نظرية بمقدار بعدها عن ظروفها و عن ارتباطها بأسبابها العملية. و لن تجد وسيلة إلى ترسيخ حكم من الأحكام فى الأذهان و تنبيه الأفكار إلى مدى

صلاحه و قيمته، خيرا من أن تعرضه على الناس فى مجال تطبيقه و تقدمه عند الحاجة إليه. و إنها لطريقة تربوية معروفة لا تحتمل البحث و المراء.

فمن أجل ذلك قدّم القرآن الكريم إلى الناس أحكامه التشريعية و معظم توجيهاته الأخلاقية منثورة و مقسمة على الوقائع و الأحداث، أو الأسئلة و الاستشكالات، حتى تمتزج هذه الأحكام مع الوقائع و تغرس فى تربة التطبيق فور ظهورها و ولادتها، فيكون ذلك أدعى لحفظها و أبين لقيمتها و صلاحيتها.

أما النوع الأول، و هو ما يتعلق بوصف القيامة و الجنة و النار، و ذكر القصص، فليس الشأن فى ذلك متوقفا على ما ذكرناه، فسيّان فى تبليغها للناس و إخبارهم عنها أن تنزل آياتها ابتداء أو لمناسبة و سبب.

ثانيا- أمثلة لأسباب النزول.

۱- روى مقاتل و الكلبى أن رجلا من غطفان كان عنده مال كثير لابن أخ له يتيم، فلما بلغ اليتيم طلب المال، فمنعه عمّه، فترافعا إلى النبى صلّى اللّه عليه و سلّم، فنزلت الآية:

وَ آتُوا الْيَتامى أَمْوالَهُمْ، وَ لا تَتَبَدَّلُوا الْخَبِيثَ بِالطَّيِّبِ، وَ لا تَأْكُلُوا أَمْوالَهُمْ إِلى أَمْوالِكُمْ إِنَّهُ كانَ حُوباً كَبِيراً (النساء «۱»: ۲).

۲- روى البخارى بسنده عن جابر رضى اللّه عنه قال: عادنى رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم و أبو بكر فى بنى سلمة يمشيان، فوجدانى لا أعقل، فدعا بماء فتوضأ ثم رشّ علىّ منه فأفقت، فقلت كيف أصنع فى مالى يا رسول اللّه؟ فنزل قوله تعالى «۲»:

---

(۱) انظر أسباب النزول للواحدى: ص ۸۱.

(۲) البخارى كتاب التفسير: ج ۸/ ۱۶۸ مع شرحه فتح البارى.

يُوصِيكُمُ اللَّهُ فِي أَوْلادِكُمْ لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الْأُنْثَيَيْنِ، فَإِنْ كُنَّ نِساءً فَوْقَ اثْنَتَيْنِ فَلَهُنَّ ثُلُثا ما تَرَكَ .. (النساء الآية: ۱۱).

۳- ذكر علماء التفسير أن أبىّ ابن خلف و عقبة بن أبى معيط كانا متحالفين فصنع عقبة طعاما دعا الناس إليه و دعا رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم أيضا، فلما قرب قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم: ما أنا بآكل طعامك حتى تشهد أن لا إله إلّا اللّه و أنى رسول اللّه، فقال عقبة: أشهد أن لا إله إلّا اللّه و أن محمدا رسول اللّه، فأكل من طعامه، و كان أبى بن خلف غائبا، فلما أخبر بقصته قال: صبأت يا عقبة؟! فقال عقبة: و اللّه ما صبأت و لكن دخل علىّ الرجل فأبى أن يطعم من طعامى إلا أن أشهد له، فاستحييت أن يخرج من بيتى و لم يطعم، فقال أبى: ما أنا بالذى يرضى منك أبدا حتى تأتيه فتبصق فى وجهه و تردّ عليه دينه. ففعل ذلك، و قال الضحاك، لما بصق فى وجه رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم عاد بصاقه فى وجهه فتشعب شعبتين، فأحرق خديه و كان أثر ذلك فيه حتى الموت «۱». ففى ذلك نزل قوله تعالى:

وَ يَوْمَ يَعَضُّ الظَّالِمُ عَلى يَدَيْهِ يَقُولُ يا لَيْتَنِي اتَّخَذْتُ مَعَ الرَّسُولِ سَبِيلًا، يا وَيْلَتى لَيْتَنِي لَمْ أَتَّخِذْ فُلاناً خَلِيلًا، لَقَدْ أَضَلَّنِي عَنِ الذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جاءَنِي وَ كانَ الشَّيْطانُ لِلْإِنْسانِ خَذُولًا (الفرقان: ۲۷).

۴- أخرج الحاكم و الترمذى عن عائشة رضى اللّه عنها، أنه جاء عبد اللّه بن أم مكتوم- و هو ضرير- فقال: يا رسول اللّه أرشدنى و عند النبى صلّى اللّه عليه و سلّم بعض عظماء المشركين، فجعل النبى صلّى اللّه عليه و سلّم يعرض عنه و يقبل على الآخرين، فنزل قوله تعالى «۲»:

عَبَسَ وَ تَوَلَّى أَنْ جاءَهُ الْأَعْمى، وَ ما يُدْرِيكَ لَعَلَّهُ يَزَّكَّى، أَوْ يَذَّكَّرُ فَتَنْفَعَهُ الذِّكْرى .. الآيات.

(۱) أسباب النزول للواحدى- ص ۱۹۱.

(۲) انظر فتح البارى على صحيح البخارى ب ۸/ ۴۸۹.

من روائع القرآن، ص: ۴۰

ثالثا- أهمية معرفة أسباب النزول:

لمعرفة أسباب نزول الآيات، أهمية كبرى فى تجلية معانيها، و الوقوف على حقيقة تفسيرها، إذ ربّ آية من القرآن يعطى ظاهرها دلالات غير مقصودة منها، فإذا وقفت على مناسبها و سبب نزولها انحسر عنها سبب اللبس و ظهرت فيها حقيقة المعنى و مدى شموله و اتساعه.

فمن ذلك قوله تعالى: وَ لِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَ الْمَغْرِبُ، فَأَيْنَما تُوَلُّوا فَثَمَّ وَجْهُ اللَّهِ، إِنَّ اللَّهَ واسِعٌ عَلِيمٌ (البقرة: ۱۱۵).

فالمتبادر من ظاهرها أن الاتجاه فى الصلاة إلى كل الجهات سواء، فللمصلى أن يتجه إلى حيث يشاء فى صلاته. و لكنك إذا وقفت على سبب نزول هذه الآية رأيت أنها لا تحمل هذه الدلالة المطلقة، و سببها على ما رواه الواحدى فى كتابه أسباب النزول، عن جابر بن عبد اللّه أن رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم بعث سرية فأصابتهم ظلمة، فلم يعرفوا القبلة، فاتجه كلّ منهم ناحية حسب ظنه و اجتهاده، فلما قفلوا عائدين سألوا رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم عن ذلك فسكت، فأنزل اللّه تعالى، و للّه المشرق و المغرب فأينما تولوا فثمّ وجه اللّه «۱».

و لو لا معرفة سبب النزول لتمسك الواهمون بمثل قوله تعالى: يَسْئَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَ الْمَيْسِرِ قُلْ فِيهِما إِثْمٌ كَبِيرٌ وَ مَنافِعُ لِلنَّاسِ وَ إِثْمُهُما أَكْبَرُ مِنْ نَفْعِهِما دليلا على عدم حرمتها لما فيها من المنافع.

فمن أجل ذلك يقول الواحدى فى مقدمة كتابه أسباب النزول (.. إذ هى- أى أسباب النزول- أوفى ما يجب الوقوف عليه و أولى ما تصرف العناية إليه، لامتناع معرفة تفسير الآية و قصد سبيلها دون الوقوف على قصتها و بيان نزولها) «۲».

رابعا- اهتمام العلماء بالكتابة فى «أسباب النزول».

و نظرا لهذه الأهمية التى ذكرناها لمعرفة أسباب نزول الآيات و مناسباتها،

---

(۱) أسباب النزول ص ۲۰.

(۲) المرجع السابق: ۴.

من روائع القرآن، ص: ۴۱

اهتم الأئمة رحمهم اللّه بالكتابة فيها و تجميع الروايات و الأخبار المتعلقة بها، بل أخذ العلماء يفردون المؤلفات فى هذا الموضوع حتى غدا «أسباب النزول» اسم علم مستقل برأسه من علوم القرآن.

فأقدم من كتب فى هذا الفن المحدّث على بن المدينى شيخ الإمام البخارى، المتوفى عام (۲۳۴).

و ممّن ألّف فيه، أبو الحسن على بن أحمد الواحدى النيسابورى المتوفى عام.

(۴۶۸ ه)، و منهم الحافظ بن حجر العسقلانى المتوفى عام (۸۵۲ ه)، و منهم الإمام السيوطى المتوفى عام (۹۱۱ ه) «۱».

و بما أوضحناه لك من تدرّج القرآن فى النزول، و نزول الكثير منه لأسباب و مناسبات، تعلم أن القرآن لم تنزل آياته على الرسول صلّى اللّه عليه و سلّم طبق هذا الترتيب الذى تراه و هو الترتيب الذى كان فى مكنون علم اللّه تعالى، و تنزّل به جملة واحدة إلى

السماء الدنيا. و إنما كان ينزل من ذلك ما تدعو إليه الحاجة و يتناسب مع تدرّج التشريع، حتى تكامل كله.

---

(۱) انظر الاتقان فى علوم القرآن للسيوطى ۱/ ۴۷.

من روائع القرآن، ص: ۴۲

كيفيّة جمع القرآن و كتابته و الأدوار الّتى مرّت على ذلك

أولا- ترتيب القرآن و كتابته فى عهد رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم.

استغرق نزول القرآن من الزمن ثلاثة و عشرين عاما، هى جملة العمر الذى تكامل فيه هذا الكتاب العظيم نزولا و ترتيبا بين سوره و آياته: روى البخارى عن عائشة و ابن عباس أنهما قالا: لبث النبى صلّى اللّه عليه و سلّم بمكة عشر سنين ينزل عليه القرآن و بالمدينة عشرا «۱».

فكيف تم ترتيبه و تنسيقه بهذا الشكل، و هل كان ثمة من يكتب كل ما ينزل منه فى عهده صلّى اللّه عليه و سلّم؟

أما الترتيب و التنسيق فإن الأحاديث الواردة فى هذا الشأن تتفق على أن ترتيب الآيات إلى جانب بعضها، حسبما عليه المصحف الآن، إنما هو ترتيب توقيفى، لم يجتهد فيه رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم و لا أحد من الصحابة فى عهده أو من بعده و إنما كان يتلقى ترتيبها إلى جانب بعضها وحيا من عند اللّه تعالى بواسطة جبريل عليه السلام.

روى أحمد بإسناده عن عثمان بن أبى العاص قال: كنت جالسا عند رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم، إذ شخص ببصره ثم صوبه قال: «أتانى جبريل فأمرنى أن أضع هذه الآية هذا الموضع من هذه السورة: إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَ الْإِحْسانِ وَ إِيتاءِ ذِي الْقُرْبى الآية.

---

(۱) صحيح البخارى: ۶/ ۹۶. و يلاحظ أن عائشة رضى اللّه عنها أسقطت المدة التى فتر فيها الوحى، و هى فى بعض الأقوال ثلاث سنوات، و يقصده هذا الحديث.

من روائع القرآن، ص: ۴۳

و روى القرطبى بسنده عن ابن عباس قال: آخر ما نزل من القرآن:

وَ اتَّقُوا يَوْماً تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ ثُمَّ تُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ ما كَسَبَتْ وَ هُمْ لا يُظْلَمُونَ. فقال جبريل يا محمد، ضعها فى رأس ثمانين و مائتين من البقرة» «۱».

و روى البخارى بسنده عن ابن الزبير، قال قلت لعثمان: هذه الآية التى فى البقرة وَ الَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنْكُمْ وَ يَذَرُونَ أَزْواجاً- إلى قوله غَيْرَ إِخْراجٍ قد نسختها الآية الأخرى فلم تكتبها؟ فقال: يا ابن أخى، لا أغير شيئا من مكانه.

و بناء على ذلك فقد تم إجماع العلماء و مختلف المؤرخين و الباحثين على أن ترتيب آيات القرآن عمل توقيفى من قبل اللّه عزّ و جلّ.

و ما يقال عن ترتيب الآيات، هو الذى يقال أيضا فى ترتيب السور و وضع البسملة فى الأوائل. قال القاضى أبو بكر بن الطيب، رواية عن مكّى رحمه اللّه فى تفسير سورة «براءة»: إن ترتيب الآيات فى السور و وضع البسملة فى الأوائل هو توقيف من النبى صلّى اللّه عليه و سلّم، و لما لم يؤمر بذلك فى أول سورة براءة تركت بلا بسملة. و روى القرطبى عن ابن وهب قال: سمعت سليمان بن بلال يقول سمعت ربيعة يسأل: لم قدمت البقرة و آل عمران، و قد نزل قبلهما بضع و ثمانون سورة، و إنما نزلتا فى المدينة؟ فقال ربيعة: قد قدّمتا و ألّف القرآن على علم ممّن ألّفه «۲».

إلّا أنه وقع بحث بين علماء هذا الشأن فى حكم من أحبّ أن يرتب سور القرآن طبقا لتاريخ نزولها لا لترتيبها الأخير الذى بأمر به الرسول صلّى اللّه عليه و سلّم، هل هو عمل جائز أم لا؟ و ليس لنا فى هذا المجال غرض يتعلق بهذا البحث.

و أما كتابته فأنت تعلم أن النبى صلّى اللّه عليه و سلّم كان أميّا لا يقرأ و لا يكتب؛ أجمع

---

(۱) تفسير القرطبى ۱- ۶۱ و انظر صحيح البخارى ج: ۵ كتاب التفسير ص: ۱۶۵.

(۲) انظر تفسير القرطبى: ۱- ۵۹ و ۸- ۶۱.

من روائع القرآن، ص: ۴۴

على ذلك عامّة المؤرخين و الباحثين. قال اللّه عزّ و جلّ: وَ ما كُنْتَ تَتْلُوا مِنْ قَبْلِهِ مِنْ كِتابٍ وَ لا تَخُطُّهُ بِيَمِينِكَ، إِذاً لَارْتابَ الْمُبْطِلُونَ.

إلّا أنه كان يعهد بكتابة ما يتنزل عليه من القرآن إلى أشخاص من الصحابة بأعيانهم، كان يطلق عليهم اسم كتّاب الوحى، و أشهرهم الخلفاء الأربعة، و أبى بن كعب، و زيد بن ثابت، و معاوية بن أبى سفيان، و المغيرة بن شعبة، و الزبير بن العوّام، و شرحبيل بن حسنة، و عبد اللّه بن رواحة «۱».

و قد كانوا يكتبون القرآن فيما تيسر لهم من العظام و السعف و ألواح الحجارة الرقيقة. و قد كانوا يضعون هذا الذى يكتبونه فى بيت رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم، ثم يكتبون منه لأنفسهم صورا أخرى يحفظونها لديهم «۲» فعمل كتاب الوحى فى عهده صلّى اللّه عليه و سلّم لم يكن جمعا لكتاب اللّه تعالى بين دفتين و إنما كان مجرد تسجيل كتابى له على متفرقات العظام و الحجارة و الأوراق و غيرها، مع ترتيب سوره و آياته حسب ما يوحى به إلى رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم.

و لقد كان فى الصحابة من يتتبع آيات القرآن و ترتيبها فيحفظها عن ظهر قلب، حتى حفظوا بذلك القرآن كله، فمن مشاهيرهم: عبد اللّه بن مسعود، و سالم بن معقل، و معاذ بن جبل، و أبىّ بن كعب و زيد بن ثابت.

و كان سائر الصحابة يشتركون بحفظ مقادير كبيرة من القرآن، حسب ما يكون كتب منه لنفسه أو حسب ما يتيسر له. و ظل الصحابة يعكفون على حفظ القرآن غيبا حتى ارتفعت نسبة الحفّاظ منهم إلى عدد لا يحصى، يدلك على ذلك ما يذكره الرواة من أن موقعة اليمامة التى وقعت فى زمن أبى بكر رضى اللّه عنه قد قتل فيها سبعون صحابيا من حفظة القرآن، و روى القرطبى أنهم سبعمائة، و هى رواية ضعيفة و لا شك «۳»، إلا أنك تستطيع أن تفهم من ذلك نسبة الصحابة الذين يحفظون القرآن فى صدورهم.

---

(۱) انظر فتح البارى: ۹- ۱۸.

(۲) التحقيق أن كتّاب الوحى كانوا يضعون ما يكتبونه من القرآن فى بيت رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم. قال ذلك المحاسبى فى كتاب «فهم السنن» و انظر البرهان للزركشى ۱- ۲۳۸ و الإتقان للسيوطى ۱- ۵۸.

(۳) انظر تفسير القرطبى: ۱- ۵۰.

من روائع القرآن، ص: ۴۵

و يتضح لك من هذا الذى ذكرناه أن القرآن وعاه الصدر الأول من الصحابة و بلغوه إلى من بعدهم بطريقتين:

إحداهما: الكتابة التى كانت تتم بأمر الرسول عليه الصلاة و السلام لأشخاص بأعيانهم و كل إليهم هذا الأمر.

الثانية: حفظه فى الصدور عن طريق التلقّى من كبار قرّاء الصحابة و حفّاظهم الذين تلقّوه عن رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم؛ و أقرّهم على كيفية النطق و الأداء.

كما يتضح لك أن القرآن رغم ذلك لم يجمع فى مصحف على عهده صلّى اللّه عليه و سلّم؛ و السبب هو ضيق الوقت بين آخر آية نزلت منه و بين وفاته عليه الصلاة و السلام؛ فقد علمت مما ذكرناه أن الفترة بينهما لم تزد على تسع ليال فى أكثر الروايات و أقربها

إلى الاعتماد.

ثانيا- ما جدّ من ذلك فى عهد أبى بكر:

قلنا إن القرآن كتب كله فى عهد الرسول صلّى اللّه عليه و سلّم، و لكن متفرقا دون أن يجمع فى مصحف واحد بين دفتين كما هو اليوم.

فلما توفى النبى صلّى اللّه عليه و سلّم و تولى الخلافة من بعده أبو بكر رضى اللّه عنه، و وقعت معركة اليمامة التى قتل فيها كما قلنا عدد كبير من حفظة القرآن أشار عمر بن الخطاب على أبى بكر رضى اللّه عنهما بجمع القرآن و حفظه بين دفتين مخافة أن يموت أشياخ القرّاء كأبىّ و ابن مسعود فيختلف الناس فى قراءته إذ لا يكون عندهم إمام يجمعون عليه.

و لننقل لك نص ما رواه البخارى فى ذلك. روى البخارى عن زيد بن ثابت رضى اللّه عنه قال: أرسل إلىّ أبو بكر مقتل أهل اليمامة (أى عند ما قتل أهل اليمامة) فإذا عمر بن الخطاب عنده قال أبو بكر رضى اللّه عنه، إن عمر أتانى فقال إن القتل قد استحرّ يوم اليمامة بقرّاء القرآن و إنى أخشى أن يستحرّ القتل بالقرّاء بالمواطن فيذهب كثير من القرآن، و إنى أرى أن تأمر بجمع القرآن. قلت لعمر: كيف تفعل شيئا لم يفعله رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم، قال عمر: هذا

من روائع القرآن، ص: ۴۶

و اللّه خير، فلم يزل عمر يراجعنى حتى شرح اللّه صدرى لذلك، و رأيت فى ذلك الذى رأى عمر قال زيد: قال أبو بكر: إنك رجل شاب عاقل لا نتهمك، و قد كنت تكتب الوحى لرسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم، فتتبع القرآن فاجمعه. فو اللّه لو كلفونى نقل جبل من الجبال، ما كان أثقل على مما أمرنى به من جمع القرآن .. فتتبعت القرآن أجمعه من العسب و اللخاف و صدور الرجال، حتى وجدت آخر سورة التوبة مع أبى خزيمة الأنصارى لم أجدها مع أحد غيره: «لقد جاءكم رسول من أنفسكم عزيز عليه ما عنتم». فكانت الصحف عند أبى بكر حتى توفاه اللّه ثم عند عمر حياته، ثم عند حفصة بنت عمر رضى اللّه عنهما «۱».

فالجديد الذى أمر به أبو بكر رضى اللّه عنه، هو جمع ما تفرق من الرقاع و العسب و غيرها، ثم استنساخها منها إلى صفحات مرتبة مجتمعات، تكون محفوظة فى دار الخلافة و مرجعا للمسلمين فى كيفية القراءة و الأداء. و لم يكن عبارة عن مجرد جمع تلك القطع المتناثرة إلى بعضها بخيط، كما قد يتصور بعض الناس و يفهمه من كلمة «جمع القرآن» و قول أبى بكر لزيد «فتتبع القرآن فاجمعه». و إنما كانت مهمة زيد التى وكلت إليه هى جمع هذه المتفرقات ثم الكتابة على منوالها من جديد.

يدلّ على ذلك ما رواه ابن أشتة فى المصاحف عن الليث بن سعد قال:

أول من جمع القرآن أبو بكر و كتبه زيد. و أكد ذلك الحارث المحاسبى فى كتابه فهم السنن. و يؤكد ذلك ما رواه ابن أبى داود من طريق هشام بن عروة عن أبيه أن أبا بكر قال لعمر و لزيد: اقعد على باب المسجد، فمن جاءكما بشاهدين على شىء من كتاب اللّه، فاكتباه. قال ابن حجر فى الفتح: و رجاله ثقات «۲».

و إذا وقفت على النهج الذى كان يسير عليه زيد رضى اللّه عنه فى الاستيثاق من الآية عند كتابتها، أدركت مدى الدقة العظيمة التى امتدت مع المراحل التاريخية المختلفة لكتابة القرآن و جمعه. فقد كان لا يكتب من القرآن

---

(۱) البخارى: ۶- ۹۸.

(۲) انظر الإتقان: ۱/ ۵۸ و فتح البارى: ۹/ ۱۱.

من روائع القرآن، ص: ۴۷

آية إلا بشاهدين يجتمعان عليها من حيث اللفظ و الأداء و هما الحفظ و الكتابة، رغم أنه كان هو نفسه فى مقدمة حفّاظ القرآن غيبا،

فكان فى غنىّ عن أن يحمّل نفسه هـذا الجهـد، و لكن الورع فى الدين و الحيطة فى النقل حمّلاه على أن يضع نفسه- من أجل أنه هو الذى تولى الكتابة- فى الموضع الأخير بعد عامّة الصحابة.

و هـذا المنهـج الشديـد الـذى اتّبعه زيـد، هو الذى يفسـر لك معنى قوله أنه لم يجد الآيات الأخيرة من سورة التوبة إلا مع أبى خزيمة الأنصارى. فليس معنى كلامه هـذا أنه اعتمـد فى كتابتها على خبر الواحد فقط و هو أبو خزيمة، و إنما هو مزيد فى الحيطة منه، فهو لا يكتفى بحفظه و حفـظ بقيـة الصـحابة لها باللسان، بل لا يكتفى مما كتب أيضا إلا بالـذى كان داخلا منه تحت إشـرافه عليه الصـلاة و السـلام و تولى كتابته أحد كتّاب الوحى أنفسـهم. فمن أجل ذلك ظلّ متوقفا عن تسـجيل هذه الآيات رغم حفظه لها و رغم وجودها فى صدور عامّة الصحابة إلى أن عثر لها على الشاهد الثانى أيضا و هو الكتابة الموثوقة الصحيحة.

قال أبو شامة: و كان غرضهم أن لا يكتب إلا من عين ما كتب بين يدى النبى صلّى اللّه عليه و سلّم، لا من مجرد الحفظ، قال و لذلك قـال فى آخر سورة التوبـة لم أجـدها مع غيره- أى غير أبى خزيمـة الأنصـارى- أى لم أجـدها مكتوبـة مع غيره. لأـنه كـان لاـ يكتفى بالحفظ دون الكتابة «۱».

ثالثا- ما جدّ من ذلك فى خلافة عثمان:

و قـد ظلّ الأمر على ما قام به أبو بكر رضـى اللّه عنه، مـدة خلافته، ثم مـدة خلافـة عمر رضـى اللّه عنه، و فى صـدر من خلافـة عثمان رضـى اللّه عنه. إلا أنه حـدث بعـد ذلك أمر نبّه المسـلمين إلى ضـرورة وجود نسـخ متعـددة من هـذا المصـحف الإمام الـذى اعتمده الخلفـاء، لتوزيعهـا فى الأمصار و جمع الناس عليها، كى لا يكون للعجمـة و اللهجات المختلفـة سبيل إلى اختلاف الناس فى القراءة أو إلى تحريف شىء من القرآن لفظا أو أداء.

---

(۱) انظر الإتقان: ۱/ ۵۸، و فتح البارى: ۹/ ۱۲.

و لننقـل لـك مرة أخرى ما رواه البخارى بسـنده فى ذلك: (عن ابن شـهاب أن أنس بن مالك حـدّثه أن حذيفـة بن اليمان قـدم على عثمان، و كان يغازى أهل الشام فى فتح أرمينية و أذربيجان مع أهل العراق، فأفزع حذيفة اختلافهم فى القراءة، فقال حذيفة لعثمان: يا أمير المؤمنين، أدرك هـذه الأمـة قبـل أن يختلفوا فى الكتـاب اختلاـف اليهود و النصارى، فأرسل عثمان إلى حفصـة أن أرسـلى إلينا بالصـحف ننسـخها فى المصاحف، ثم نردّها إليك، فأرسـلت بها حفصة إلى عثمان، فأمر زيد بن ثابت و عبد اللّه بن الزبير و سعيد بن العاص و عبـد الرحمن بن حارث بن هشام، فنسـخوها فى المصاحف، و قال عثمان للرهط القرشـيين الثلاثـة إذا اختلفتم أنتم و زيد بن ثابت فى شىء من القرآن فاكتبوه بلسان قريش، فإنما نزل بلسانهم. ففعلوا حتى إذا نسخوا الصحف فى المصاحف، ردّ عثمان الصحف إلى حفصة، فأرسل إلى كل أفق بمصحف مما نسخوا، و أمر بما سواه من القرآن فى كل صحيفة أو مصحف أن يحرق) «۱».

و إنـك لتـدرك من هـذا النص أن هنالـك فرقـا من ثلاثـة وجوه بين ما فعله عثمان رضـى اللّه عنه و ما كان قـد فعله من قبله أبو بكر رضى اللّه عنه.

الأول: أن السـبب فيما فعله عثمان إنما هو ما رآه من اختلاف بعض المسـلمين فى قراءة القرآن، من أثر اتساع الفتوحات و دخول قدر كبير من الأعاجم فى الإسـلام، يـدلك على ذلك ما قاله حذيفـة بن اليمان و قـد أفزعه ما رآه من بادرة الاختلاف فى قراءة القرآن، و هـذا ما حمله رضـى اللّه عنه على أن يتشـدد فى المسألـة فيأمر بإحراق كل ما يوجـد من صـحف و مصاحف أخرى فى أيـدى الناس، حصـرا للاعتماد و حيطة فى الضـبط، و إنما كان ذلك منه بعد أن جمع المهاجرين و الأنصار و جلّة أهل الإسلام و شاورهم فى الأمر، فاتفقت كلمتهم على استنساخ المصاحف المتعددة من الأصل المعتمد و اطراح ما سواها.

روى القرطبى عن عمير بن سعيد قال على رضى اللّه عنه: لو كنت الوالى وقت عثمان لفعلت فى المصاحف مثل الذى فعل عثمان «۲».

---

(۱) صحيح البخارى: ۶- ۹۹.

(۲) انظر تفسير القرطبى: ۱- ۵۲، و ۵، و البرهان: ۱- ۲۳۰.

من روائع القرآن، ص: ۴۹

أما ما فعله أبو بكر فإنما كان ذلك بسبب مصرع كثير من حفّاظ القرآن، كما قد رأيت.

الثانى: اعتمد عثمان رضى اللّه عنه فى كتابة المصاحف على لجنة مكونة من أربعة أشخاص من كبار القرّاء و الحفّاظ، من بينهم زيد بن ثابت. أما الجمع الأول فقد اعتمد فيه أبو بكر كما قد رأيت على زيد بن ثابت فقط، و لعلّ سبب هذا الفرق مضاعفة الجهد هنا بسبب كتابة النسخ المتعددة.

الثالث: الصحف التى جمعت فى المرة الأولى، إنما كان المراد منها أن تبقى فى دار الخلافة معتمدا و مرجعا للدولة، إذ لم يكن فى البال ما تسرب إلى بعض الألسنة أخيرا من الاختلاف فى قراءة القرآن بسبب شيوع العجمة و اتساع الرقعة الإسلامية. أما هذه الكتابة الثانية فإنما أريد منها اعتمادها ثم توزيعها فى الأمصار لتتوحد القراءة على أساسها.

إلا أن الباحثين اختلفوا فى عدد المصاحف التى استنسخها، و الراجح الذى عليه أكثرهم أنها سبعة مصاحب، استبقى واحدا منها عنده و هو الذى سمى بالمصحف الإمام و وزع سائرها على الكوفة و البصرة و الشام و اليمن و مكة و البحرين «۱».

ثم إنك إذا تأملت فى قصة هذا الجمع الثانى وقفت على حقيقتين لا بدّ من إدراكهما:

الأولى: ترتيب مصاحف عثمان و رسمها إنما كان على نسق ما كتبه زيد بن ثابت فى الجمع الأول، إذ إن الصحف التى اعتمد عليها إنما كانت كما علمت من كتابة زيد، بعد أن أمره كلّ من أبى بكر و عمر بذلك، و زيد بن ثابت هذا هو من أشهر الصحابة ضبطا للقرآن و حفظه، و هو صاحب العرضة الأخيرة للقرآن على رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم قبيل وفاته، فأقرّه الرسول عليه الصلاة و السلام، و أمر الناس بأخذ القرآن عنه، و من هنا قطع كافة العلماء و الباحثين

---

(۱) البرهان: ۲- ۲۴۰.

من روائع القرآن، ص: ۵۰

بأن هذه المصاحف التى وزّعها عثمان فى الأقطار هى الصورة المحققة الدقيقة للقرآن الذى نزل على رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم و الذى كان يتلى به.

الثانية: أن القرآن إنما نزل بلهجة قريش فينبغى أن يكتب أيضا برسمهم و طريقة كتابتهم، تفهم ذلك من قول عثمان للرهط القرشيين الثلاثة: إذا اختلفتم أنتم و زيد بن ثابت فى شىء من القرآن- أى إملاء و لهجة- فاكتبوه بلسان قريش، فإنما نزل بلسانهم.

و قد تم هذا العمل العظيم الذى قام به عثمان بن عفان رضى اللّه عنه فى عام ۲۵ للهجرة. أما ما قام به أبو بكر رضى اللّه عنه فقد كان بعد موقعة اليمامة فى العام الثانى عشر للهجرة.

ثم إن الصحف التى أعادها عثمان رضى اللّه عنه إلى حفصة، بقيت عندها إلى وفاتها. و من هنا تعلم أن هذه الصحف لم تكن من بين الصحف أو المصاحف التى أحرقت. قالوا و قد حاول مروان بن الحكم فى عام ۶۵ أن يأخذها منها ليحرقها، فأبت، حتى إذا توفيت أخذ مروان الصحف و أحرقها، و قال مدافعا عن وجهة نظره: إنما فعلت هذا لأن ما فيها قد كتب و حفظ بالمصحف الإمام، فخشيت إن طال بالناس زمان أن يرتاب فى شأن هذه الصحف مرتاب «۱».

و ما هو إلا أن توزعت هذه المصاحف فى البلدان الإسلامية حتى أحرق كل امرئ ما كان عنده من قبل. و أقبلوا يعكفون على

استنساخ المصاحف من هذه الأصول الوثيقة المعتمدة، إلى جانب دراستها و تلقّيها مشافهة من كبار القرّاء الذين كان يبعثهم عثمان رضى اللّه عنه إلى الأمصار ليتلقى الناس منهم كتاب اللّه عزّ و جلّ.

هذا و نستطيع أن نقطع بأن واحدا من المصاحف العثمانية كان باقيا فى دمشق بمسجد بنى أمية الكبير حتى القرن الثامن الهجرى، حيث يقول ابن كثير

---

(۱) مباحث علوم القرآن للدكتور صبحى الصالح نقلا عن كتاب المصاحف لابن أبى داود ص:

۷۴.

من روائع القرآن، ص: ۵۱

فى كتابه فضائل القرآن: (أما المصاحف العثمانية الأئمة فأشهرها اليوم الذى فى الشام بجامع دمشق عند الركن شرقى المقصورة المعمورة بذكر اللّه) «۱».

أما بعد ذلك، فالحديث عن تحقيق هذه النسخ و نقلها بين المكتبات و المتاحف و البلدان، أمر يطول و لسنا بصدد هذا البحث.

فإذا تأملت فى هذه الخلاصة التى سردناها من تاريخ هذا الكتاب العظيم، منذ نزوله على قلب المصطفى صلّى اللّه عليه و سلّم إلى وصوله إلينا اليوم من حيث الأدوار التى تدرج فيها كتابة و جمعا، و تلقيا و درسا- تصورت أنك من هذا الكتاب المبين أمام شمس واضحة مشرقة تسير أمام عينيك فى قبة السماء الصافية، ليس حولها مزقة سحاب تغشى عليها و ليس بينك و بينها أى زوبعة أو ضباب يحجبها عنك.

سلسلة متصلة من التدوين الكتابى الدقيق، و التلقّى الشفهى السليم، يسيران جنبا إلى جنب فى مطابقة و اتفاق، منذ بزوغ فجر هذا التنزيل إلى هذه الساعة من يومنا هذا، لا ترى فيها حلقة مفقودة أو ثغرة ينفذ منها الشك أو اختلافا يبعث على الريبة.

فأى خبر أو كتاب سار خلال القرون فى مثل هذا النفق المحكم العجيب من الحفظ و الوقاية؟ اللهمّ إن العقل لا يفهم من ذلك إلا أنه تصديق الدهر و القرون لقوله تعالى: إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَ إِنَّا لَهُ لَحافِظُونَ و قوله تعالى:

كتاب لا يَأْتِيهِ الْباطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَ لا مِنْ خَلْفِهِ تَنْزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ.

---

(۱) انظر المرجع السابق: ۹۰.

من روائع القرآن، ص: ۵۲

رسم القرآن و المراحل التحسينية الّتى ندرّج فيها

اشارة

مما لا شك فيك، أن الصحف التى كانت قد كتبت على عهد النبى صلّى اللّه عليه و سلّم، و المصاحف العثمانية التى وزعت على الأمصار، كانت كلها خالية عن الشكل و النقط. و كان العرب إذ ذاك يهتدون إلى النطق السليم بوسيلتين:

إحداهما: السليقة العربية الأصيلة التى كانوا يتمتعون بها، و الأصالة اللغوية التى كانت فطرتهم مطبوعة عليها، فلم يكن لما عرف بعد ذلك باسم اللحن أى سبيل إلى ألسنتهم، و ليس لديهم أى فقر فى فهم المعنى الصحيح للفظ من الألفاظ العربية أو فى الشكل السليم للنطق بها.

الثانية: التلقى و المشافهة، و قد قلنا إن القرآن كان يضبط و يحفظ، بكلّ من وسيلتى الكتاب و التلقّى، فلا الكتابة وحدها كانت معتمدا

كافيا لهم، و لا التلقى وحده كان أساسا معتمدا عندهم، بل الأمر إنما يعتمد على كلا الوسيلتين.

فكان التلقى يزيد من وضوح الكتابة، و يزيل ما قد يتصور من اللبس فى النطق ببعض الكلمات، كتلك التى تحتمل عددا من وجوه الأداء و القراءة، بسبب عدم توفر النقط فيها. على أن رخصة النطق بالأحرف السبعة فى أول عهد العرب بالقرآن ساهمت باعتبارها وسيلة ثالثة فى تسهيل ضبط القرآن دراسة و حفظا، و أورثت طمأنينة بعدم الوقوع فى أى لبس أو وهم، عند النطق بهذه الكلمات المحتملة.

و مما لا ريب فيه أيضا، أن رسم المصاحف العثمانية التى نسخت على

من روائع القرآن، ص: ۵۳

هدى الصحف الأولى، يقوم على إملاء خاص به فى ذلك العصر و فيما بعده أيضا. و إنك لتجد فى إملائه من أنواع الزيادات و الحذف للحروف و المدود و طريقة الرسم، ما لم يكن معهودا حتى عند كثير من القبائل العربية إذ ذاك.

إلا أنه كان يتفق فى جملته مع الرسم القرشى فى ذلك الوقت، و من هنا قال عثمان رضى اللّه عنه للكاتبين: إذا اختلفتم أنتم و زيد بن ثابت فى كلمة من كلمات القرآن، فاكتبوها بلسان قريش، فإن القرآن أنزل بلسانهم «۱».

و لقد ظهر تطبيق هذه الوصية، عند ما اختلف الكتّاب الأربعة فى كيفية رسم «التابوت» فى قوله تعالى: وَ قالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ آيَةَ مُلْكِهِ أَنْ يَأْتِيَكُمُ التَّابُوتُ فِيهِ سَكِينَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ ... (البقرة: ۲۴۸)، فقد قال زيد «التابوة» و قال القرشيون «التابوت» و ترافعوا إلى عثمان فقال: اكتبوا «التابوت» فإنما أنزل القرآن على لسان قريش «۲».

فقد علمت إذا، أن فى الرسم القرآن فى عهده الأول، ظاهرتين:

الظاهرة الأولى: أن له إملاء خاصا به من حيث كيفية كتابة الهمزة مثلا، أو الأحرف اليائية و الواوية و من حيث الزيادة و النقص و ما شابه ذلك.

الظاهرة الثانية: أنه كان مجردا عن الشكل الذى يوضّح إعرابه، و عن النقط الذى يميز الأحرف المعجمة عن المهملة.

فأما الظاهرة الأولى:

فقد استمرت فيما بعد، و لم يطرأ عليها تغيير أو تحوير يذكر، فقد أخذ الناس يعتبرون الرسم القرآنى رسما معينا خاصّا به و لم يجدوا ما يدعوا إلى مدّ يد التغيير إليه، بعد أن وصل إليهم بهذا الشكل صورة طبق الأصل للكتابة المعتمدة الأولى، بل لقد رأى العلماء أن الحيطة فى حفظ القرآن تدعوا إلى وجوب إبقائه على شكله الأول، و تحريم أو تكريه أى تطوير كتابى فيه، تطبيقا للقاعدة الشرعية الكبرى: سدّ الذرائع.

---

(۱) صحيح البخارى: ۶- ۹۸.

(۲) البرهان: ۱- ۳۷۶، و الإتقان: ۱- ۹۸.

من روائع القرآن، ص: ۵۴

روى أبو عمرو الدانى عن أشهب، قال: سئل مالك رحمه اللّه: هل بكتب المصحف على ما أخذته الناس من الهجاء؟ فقال: لا، إلا على الكتبة الأولى، و سئل مالك مرة أخرى عن الحروف فى القرآن مثل الواو و الألف:

أ ترى أن تغير من المصحف إذا وجدوا فيه ذلك؟ فقال: لا:

و ذهب أحمد بن حنبل رحمه اللّه إلى أنه تحرم مخالفة خط مصحف عثمان فى ياء أو واو أو ألف أو غير ذلك «۱».

و ليس يعنينا هنا، أن نعرض لتحقيق الحكم الشرعى فى هذا الأمر، خصوصا فى مجالات التعليم و التدريس، إنما الذى نقصد إليه هو

أن نتأمل فى مدى الحيطة و الشدّة العجيبتين اللتين صين بهما القرآن خلال تاريخ وصوله إلينا.

أما الظاهرة الثانية:

فقد دخلها التطوير. و التحسين فيما بعد، كما نجد أثر ذلك فى رسم المصاحف فى عصرنا هذا.

و أصحّ ما قيل عن تاريخ أول طور تحسينى دخل رسم القرآن، أنه كان فى عهد التابعين فى منتصف القرن الأول للهجرة، و أصحّ ما قيل فيمن باشر ذلك أنه أبو الأسود الدؤلى الذى توفى عام تسع و ستين. فقد أجمعت روايات الثقات- كما يقول المرحوم مصطفى صادق الرافعى- على أن أبا الأسود الدؤلى هو أول من وضع النحو بإشارة من على ابن أبى طالب رضى اللّه عنه.

و لعلك تقول: فما علاقة وضع النحو بتحسين رسم القرآن، و هل يلزم من أن أبا الأسود الدؤلى هو الواضع للنحو أن يكون هو أول مباشر لتحسين الرسم القرآنى؟

و الجواب: إن عامّة روايات هؤلاء الثقات تتفق على أن سبب وضعه النحو هو ما رآه أو قيل له من شيوع اللحن فى قراءة القرآن، كما تتفق معظم هذه الروايات- و منها رواية أبى الطيب اللغوى و ابن النديم و ابن عساكر- على

---

(۱) انظر البرهان: ۱- ۲۷۹.

أن وضعه للنحو كان مصحوبا بتنقيط المصحف «۱» و لعلّ الرواية التى ساقها ابن خلكان تجمع القدر المشترك بين مختلف تلك الروايات، و إليك ما يقوله فى ذلك: كان أبو الأسود الدؤلى لا يخرج شيئا أخذه من على بن أبى طالب رضى اللّه عنه إلى أحد (يقصد به الرقعة التى كان قد أعطاه إياها و فيها قواعد أولية للنحو) حتى بعث إليه زياد بن أبيه- والى العراق يومئذ- أن اعمل شيئا يكون إماما و يعرف به كتاب اللّه عزّ و جلّ، فاستعفاه من ذلك، حتى سمع أبو الأسود قارئا يقرأ: (إن اللّه برىء من المشركين و رسوله بالكسر) فقال: ما ظننت أن أمر الناس آل إلى هذا، و رجع إلى زياد فقال:

أفعل ما أمر به الأمير؛ فليبغنى كاتبا لقنا يفعل ما أقول له، فأتى بكاتب من عبد القيس فلم يرضه، فأتى بآخر، فقال له أبو الأسود إذا رأيتنى قد فتحت فىّ بالحرف، فانقط نقطة فوقه، و إن ضممت فمى فانقط بين يدى الحرف، و إن كسرت فاجعل النقطة من تحت، ففعل ذلك «۲».

فإذا تأملت فى هذا الخبر- و هو كما قلت لك قدر مشترك للروايات التى ساقها ابن عساكر و ابن النديم و أبو الطيب اللغوى- علمت أن الذى بدأ بتحسين رسم القرآن هو أبو الأسود الدؤلى، و علمت أن هذا التحسين هو وضع النقط للقرآن؛ و أنه لم يكن يقصد به تمييز الحروف المهملة عن المعجمة كما هى وظيفة النقط فيما نعلم، و إنما كان يراد به الشكل الذى يقوم مقام الفتح و الكسر و الضم منعا عن اللحن فى القراءة و علمت أيضا أنه إنما وضع النحو من حيث نقّط القرآن و أن الذى دفعه إلى وضع النحو و تقعيد قواعده و إبراز الرقعة التى كان قد أعطاه إيّاها على بن أبى طالب، هو ما أفزعه من سماع اللحن فى تلاوة القرآن.

و لعلك تسمع بعد هذا، عن روايات تقول بأن يحيى بن يعمر

---

(۱) انظر وفيات الأعيان: ۱- ۲۴۰، و انظر كتاب «النحو العربى» للأستاذ الدكتور مازن المبارك ص ۱۰۰- ۲۹ فقد عرض فيه لتحقيق واسع فيما روى من خبر أول واضع للنحو، و قارن بين مختلف الروايات فى ذلك.

(۲) وفيات الأعيان: ۲۲- ۴۰.

(ت: ۱۲۹) هو أول من نقط القرآن، أو أن الذى بدأ بذلک هو نصر بن عاصم الليثى (ت ۸۹). و هى فى الحقيقهٔ لا تنافى ما نقلناه، فقد كـان کلّ من يحيى بن يعمر و نصـر بن عاصم تلميـذين لأبى الأسود الـدؤلى، و قـد كان يحيى بن يعمر قاضيا بمرو، فلعله عمـد فنقط مصـحفه على نحو ما فعل أسـتاذه، قبل أن يفعل ذلک هناک أحد غيره، و أما عمل نصر بن عاصم فهو فى أغلب الظن إنما يعتبر طورا آخر من التحسين بعـد العمل الـذى قام به أبو الأسود، تـدلّ على ذلک الروايـهٔ التى ساقها ابن خلكان، إذ يقول (ثم كثر التصـحيف و انتشـر بالعراق؛ ففزع الحجاج بن يوسف إلى كتّابه، فسألهم أن يضـعوا لهـذه الحروف المشـتبههٔ علامات، فيقال إن نصـر بن عاصم قام بذلک) «۱». فأنت ترى أن الحجاج إنما أمر كتّابه أن يعملوا شـيئا تتميز به الحروف المشـتبههٔ فى القرآن، و الحروف المشتبههٔ إنما هى المهملهٔ و المعجمهٔ كالحاء و الجيم و العين و الغين.

فيكون عمل نصر ابن عاصم إن صحّت الروايهٔ تنقيطا، لتمييز المتشابه من الحروف لا لضبط الشكل و الإعراب كما فعل أبو الأسود.

ثم إن هـذا التحسـين الـذى ذكرنـاه، دخـل طورا ثانيا، بل أخـذ يتـدرّج فى أطوار متلاحقـهٔ، لا يمكننا أن نضـبط كلّا منها بتاريـخ دقيق صحيح، و أن ننسبه إلى شخص معين فى روايهٔ موثوقهٔ.

و لكن مما لا شک فيه أن للحجاج عملا عظيما فى ذلک بقطع النظر عن تفاصـيل ما قام أو أمر به كما يقول الـدكتور صـبحى الصالح «۲». و مما لا شک فيه أيضا أن النقط و الشـكل تكامل وجودهما فى القرآن على عهـد الخليل بن أحمـد (المتوفى: ۱۷۰) عند ما ألّف كتابه فى النقط و الشكل «۳».

و ظلت الخطوات التحسـينيهٔ فى رسم القرآن مطّردهٔ إلى يومنـا هـذا، ابتغـاء تحقيق المزيـد من ضـبطه و تسـهيل قراءته. إلاـ أن الظـاهرهٔ الأولى المتعلقهٔ بإملائه

---

(۱) انظر المرجع السابق: ۱- ۱۳۵.

(۲) انظر كتاب مباحث فى علوم القرآن للدكتور صبحى الصالح: ۹۷.

(۳) وفيات الأعيان: ۱- ۱۷۲.

من روائع القرآن، ص: ۵۷

ظلت- كما ترى- على الشكل الذى كتبت به الصحف الأولى و المصاحف العثمانيهٔ.

و من هذا الذى ذكرناه يتضح لک أن علم النحو لم يقعد و يدوّن إلا خدمهٔ لضـبط القرآن، كما قد رأيت، و سـتجد فيما بعد أن معظم العلوم العربيهٔ الأخرى إنما قامت لخدمهٔ القرآن أو نبعت من مضمونه.

أما عن تاريخ طباعهٔ القرآن، فيقول الدكتور صـبحى الصالح: قد ظهر القرآن مطبوعا للمرهٔ الأولى فى البندقيهٔ فى حدود سـنهٔ ۱۵۳۰، و لكن السـلطات الكنسـيهٔ أصدرت أمرا بإعدامه حال ظهوره. ثم ظهرت أول طباعهٔ إسـلاميهٔ خالصهٔ للقرآن فى سانتبترسـبورغ، بروسيا سنهٔ ۱۷۸۷. ثم عنيت الآستانهٔ ابتداء من سنهٔ ۱۸۷۷ بهذا الأمر العظيم «۱».

---

(۱) مباحث فى علوم القرآن: ۱۰۳.

من روائع القرآن، ص: ۵۸

الأحرف السّبعهٔ

و هذا أيضا بحث من أهم ما يتعلق بتاريخ القرآن و كيفيهٔ نزوله.

و لنبدأ بما ورد فى ذلک من الأحاديث الصحيحهٔ عن رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم:

روى مسلم عن أبيّ بن كعب أن النبى صلّى اللّه عليه و سلّم كان عند أضاة بنى غفار (غدير صغير، بموضع قرب مكة) فأتاه جبريل عليه السلام فقال له: إن اللّه يأمرك أن تقرئ أمتك القرآن على حرف، فقال: أسأل اللّه معافاته و مغفرته و إن أمتى لا تطيق ذلك. ثم أتاه ثانية فقال: إن اللّه يأمرك أن تقرئ أمتك القرآن على حرفين، فقال: أسأل اللّه معافاته و مغفرته، و إن أمتى لا تطيق ذلك. ثم جاءه الثالثة فقال: إن اللّه يأمرك أن تقرئ أمتك القرآن على ثلاثة أحرف: فقال: أسأل اللّه معافاته و مغفرته و إن أمتى لا تطيق ذلك، ثم جاءه الرابعة فقال: إن اللّه يأمرك أن تقرئ أمتك القرآن على سبعة أحرف، فأيّما حرف قرءوه عليه فقد أصابوا.

و روى البخارى و مسلم عن عمر بن الخطاب رضى اللّه عنه، قال:

سمعت هشام بن حكيم بن حزام يقرأ سورة الفرقان على غير ما أقرؤها. و كان رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم أقرأنيها، فكدت أعجل عليه، ثم أمهلته حتى انصرف، ثم لببته بردائه فجئت به رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم فقلت يا رسول اللّه: إنى سمعت هذا يقرأ سورة الفرقان على غير ما أقرأتنيها، فقال رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم أرسله ثم قال (اقرأ يا هشام) فقرأ القراءة التى سمعته يقرأ، فقال رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم «هكذا أنزلت» ثم قال لى اقرأ، فقرأتها، فقال «هكذا أنزلت، إن هذا القرآن أنزل على سبعة أحرف فاقرءوا ما يتيسر منه».

من روائع القرآن، ص: ۵۹

و روى الترمذى بسند صحيح عن رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم أنه صلّى اللّه عليه و سلّم لقى جبريل فقال: يا جبريل إنى بعثت إلى أمة أمية منهم العجوز و الشيخ الكبير و الغلام و الجارية و الرجل الذى لا يقرأ كتابا قطّ، فقال لى يا محمد إن هذا القرآن أنزل على سبعة أحرف.

هذا بعض ما ورد من الأحاديث الصحيحة فى موضوع الأحرف السبعة.

فما هى الأحرف السبعة: و ما معنى أن القرآن أنزل على سبعة أحرف؟.:

هى فى الصحيح الذى ذهب إليه الجمهور كمكى بن طالب، و ابن عبد البرّ، و ابن قتيبة و ابن شريح و غيرهم: لغات متفرقة فى القرآن مختلفة فى السمع، متفقة فى المعنى أو مختلفة فى السمع و فى المعنى، و زيادة كلمة و نقص أخرى، و زيادة حرف و نقص آخر، و تغيير حركات فى موضع حركات أخرى، و تقديم و تأخير، و مدّ و قصر، و شبه ذلك مما يتعلق بجوهر الكلمة أو كيفية أدائها.

و قد يكون هذا الاختلاف مما يخضع لرسم واحد، و قد يكون مما يختلف به الرسم.

فكل وجه من هذه الأوجه المختلفة يسمى حرفا، و أطلق على مجموعها الأحرف السبعة، لأنها- فيما ذكره مكى بن طالب و جمهور من أهل العلم- ترجع إلى أربعة أوجه:

الأول: أن يختلف فى مدّ الكلمة و قصرها أو فى إعرابها أو فى حركات بنائها بما لا يغير معناها، كالبخل و البخل، و ميسرة و ميسرة.

الثانى: أن يكون الاختلاف فى إعراب الكلمة أو فى حركات بنائها بما يغير معناها على غير التضاد و لا يزيلها عن صورتها فى الخط، كقوله: «ربنا باعد بين أسفارنا» و «ربنا بعّد بين أسفارنا».

الثالث: أن يكون الاختلاف فى تبديل حرف الكلمة دون إعرابها، بما يغيّر المعنى و لا يخرج عن القصد و لا يغيّر صورة الخط نحو: ننشرها، ننشزها.

من روائع القرآن، ص: ۶۰

الرابع: أن يكون الاختلاف فى الكلمة بما يغيّر صورتها فى الكتاب و لا يغيّر معناها نحو «إن كانت إلا صيحة واحدة» و «إن كانت إلا زقية واحدة».

الخامس: أن يكون الاختلاف بما يزيل صورة الكلمة فى الخط و يزيل معناها، دون أن يكون بينهما تضاد نحو: الم تنزيل الكتاب، فى موضع: الم ذلك الكتاب.

السادس: أن يكون الاختلاف بالتقديم و التأخير كقوله «و جاءت سكرة الحق بالموت» بدلا من «و جاءت سكرة الموت بالحق».

السابع: أن يكون الاختلاف بالزيادة أو النقص فى الحروف و الكلم، شريطة أن لا يحدث ذلك حكما لم يقبله أحد نحو «تجرى تحتها» بدلا من «تجرى من تحتها» «۱».

إذا عرفت المعنى المراد بالأحرف السبعة، فلتتساءل عن معنى كون القرآن قد نزل بها.

و الجواب أن اللّه قد أذن لرسوله صلّى اللّه عليه و سلّم أن يقرئ أمته القرآن على هذه الأوجه المختلفة بالحدود و الضوابط التى أجملنا بيانها، و أن لمن شاء من أمته أن يقرأ بما شاء من هذه الأوجه، بعد أن يكون قد سمعها تلقيا من رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم.

و بذلك تعلم أن اختلاف القراءة من وجه إلى آخر لم يقع و لا يجوز أن يقع بالتشهى، بأن يغيّر كل قارئ الكلمة إلى مرادفها أو إلى وجه آخر من كيفية النطق بها. بل ذلك- كما قال الزرقانى على الموطأ- مقصور على السماع منه صلّى اللّه عليه و سلّم، كما يشير إليه قول كلّ من عمر و هشام، فى الحديث السابق ذكره:

أقرأنى النبى صلّى اللّه عليه و سلّم «۲».

و قال القاضى أبو بكر الباقلانى: الصحيح أن هذه الأحرف السبعة

---

(۱) انظر الإبانة لمكى بن طالب ص ۳۷- ۴۲.

(۲) انظر الزرقانى على الموطأ ۱- ۳۶۳.

من روائع القرآن، ص: ۶۱

ظهرت و استفاضت عن رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم، و ضبطها عنه الأمة «۱».

و نتساءل بعد هذا عن الحكمة من نزول القرآن على سبعة أحرف، و هل كان ذلك رخصة منوطة بسبب عارض أم هو عزيمة باقية؟

يتضح لك من الأحاديث التى ذكرناها فى أول البحث، أن الحكمة من نزول القرآن على سبعة أحرف، هى التخفيف على العباد و تسهيل سبيل قراءة القرآن عليهم، إذ فيهم كما قال عليه الصلاة و السلام العجوز و الشيخ الكبير و الرجل الذى لا يقرأ كتابا.

و استنادا إلى هذا الدليل، ذهب كثير من أهل العلم إلى أن ذلك إنما كان رخصة اقتضاها حال العرب فى صدر الإسلام من تفرقهم و اختلافهم إلى قبائل شتى يتخالفون و يتفاوتون فى كيفية القراءة و النطق. و الرخصة هى تحوّل الحكم الشرعى إلى الأسهل لعذر مع قيام السبب للحكم الأصلى «۲».

يدل على ذلك إلى جانب دلالة الأحاديث السابقة، أن هذا الإذن من اللّه عزّ و جلّ فى القراءة بالأحرف السبعة إنما اقتصر على القراءة فقط، أما كتابة القرآن فإنما كانت بحرف واحد هو حرف قريش، و هو الحرف الذى أشار إليه جبريل بقوله فى أول الحديث الذى رواه مسلم عن أبى بن كعب: إن اللّه يأمرك أن تقرئ القرآن على حرف.

قال مكّى بن طالب: «و كان المصحف قد كتب على لغة قريش، على حرف واحد، ليقلّ الاختلاف بين المسلمين فى القراءة ...» «۳».

و هكذا، فقد كانت كتابة المصحف بحرفه الأصلى الواحد ضمانة لبقائه و الرجوع إليه بعد انتهاء العذر الذى اقتضى التخفيف، كما كانت ضمانة لعدم ضياعه و تميّعه فى غمار تلك الأحرف الأخرى التى أذن اللّه عزّ و جلّ أن تقرأ بها قبائل العرب تخفيفا و تيسيرا.

---

(۱) انظر شرح النووى صحيح مسلم ۶- ۱۰۰.

(۲) انظر جمع الجوامع و شرحه ۱- ۶۷.

(۳) الإبانة ص ۳.

من روائع القرآن، ص: ۶۲

و لنتساءل إذا: ما هو مصير الأحرف السبعة اليوم؟

و الجواب أن مصيرها مصير كل رخصة زال العذر المسبّب لها. و قد علمت أن جواز القراءة بالأحرف الستة الأخرى غير التى كان يكتب بها القرآن، إنما كان رخصة اقتضاها حال العرب فى صدر الإسلام لما قد رأيت من اختلاف اللهجات و شيوع الأمية. فلما صهرهم الدين و جمعهم القرآن و تقلصت الأمية، انتهت الرخصة و انحسرت الحاجة إليها، و عاد الحكم فانحصر بالحرف الذى كان يكتب؛ و هو حرف قريش. فاجتمع الناس كلهم على النطق به معتمدين فى ذلك على ما وجدوه مكتوبا عندهم من الرسم الصحيح المعتمد للقرآن.

روى القرطبى عن الطحاوى: «إنما كانت السعة للناس فى الحروف لعجزهم عن أخذ القرآن على غير لغاتهم، لأنهم كانوا أميين لا يكتب إلا لقليل منهم، فلما كان يشقّ على كلّ ذى لغة أن يتحول إلى غيرها من اللغات، و لو رام ذلك لم يتهيأ إلّا بمشقة عظيمة، فوسّع لهم فى اختلاف الألفاظ إذا كان المعنى متفقا. فكانوا كذلك حتى كثر منهم من يكتب و عادت لغاتهم إلى لسان رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم فقدروا بذلك على تحفّظ ألفاظه، فلم يسعهم حينئذ أن يقرءوا بخلافها «۱».

و ذكر النووى مثل هذا فى شرحه على صحيح مسلم «۲».

و عزا الزرقانى على الموطأ ذلك إلى أكثر أهل العلم كابن عيينة و ابن وهب و الطبرى و ابن عبد البرّ و الطحاوى «۳».

و لكن كيف سقط العمل بما يخالف خط المصحف، حتى لم تجز القراءة بالأحرف الأخرى و هل كان ذلك على عهد رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم و بأمره أم فى عهد عثمان و بتوجيهه؟

---

(۱) الجامع لأحكام القرآن: ۱- ۴۲، ۴۳.

(۲) انظر شرح النووى على مسلم: ۶- ۱۱.

(۳) الزرقانى على الموطأ: ۱- ۲۶۳.

من روائع القرآن، ص: ۶۳

اختلف العلماء فى ذلك، و نقل الزرقانى أن أكثرهم على أن ذلك إنما كان فى عهد رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم و بأمره، فقد قال: «و هل استقرّ ذلك فى الزمن النبوى أم بعده؟ الأكثر على الأول و اختاره الباقلانى و ابن عبد البرّ و ابن العربى و غيرهم، لأن ضرورة اختلاف اللغات و مشقة نطقهم بغير لغتهم اقتضت التوسعة عليهم فى أول الأمر ... حتى انضبط الأمر و تدربت الألسن و تمكن الناس من الاقتصار على لغة واحدة، فعارض جبريل النبى صلّى اللّه عليه و سلّم القرآن مرتين فى السنة الأخيرة و استقر الأمر على ما هو عليه الآن فنسخ اللّه تلك القراءة المأذون فيها، بما أوجبه من الاقتصار على هذه القراءة التى تلقاها الناس «۱».

و على هذا، فقد كان إقدام عثمان رضى اللّه عنه على جمع الناس على حرف قريش و منع القراءة بكل حرف آخر سواه مما يخالف خط المصحف المعتمد، و تحريق المصاحف الأخرى المخالفة له- كان كل ذلك منه باستناد إلى هذا الذى رواه الزرقانى عن أكثر أهل العلم من استقرار القرآن كتابة و قراءة، فى عهد رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم على جزء من الأحرف السبعة، و هو الذى كانت كتابة القرآن به.

و ما أجمع الصحابة و من بعدهم مع عثمان على صنيعه، إلا استنادا إلى أن الأمر كان قد استقر على ذلك فى آخر عهد رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم و بأمر منه.

و يبقى بعد ذلك السؤال التالى: و لكن جمع عثمان الناس على حرف واحد لم يوحّد القراءات توحيدا تاما، بل بقى الناس مع ذلك يختلفون فى القراءة بأوجه من النطق و الأداء ضمن ما يتحمله الحرف الواحد المعتمد كتابة، منذ عهد الرسول، و الذى أصبح معتمدا

فى الكتابة و القراءة معا فى عهد عثمان! ...

و الجواب أن هـذه القراءات المختلفة التى ظل الناس يقرءون بها حتى بعد عهد عثمان، إنما هى جزء من الأحرف السبعة التى نزل بها القرآن، و إنما سوغ القراءة بها أنها موافقة لخط عثمان الذى أجمع الصحابة فمن بعدهم عليه «۲».

---

(۱) الزرقانى على الموطأ: ۱- ۳۶۳.

(۲) الإبانة لمكّى بن طالب ص ۳.

من روائع القرآن، ص: ۶۴

و بيان ذلك أن الأحرف السبعة تتفاوت فى درجة تخالفها و تباعدها عن بعضها، كما مرّ بيانه. فمنها ما يتعلق بكيفية النطق و الأداء من قصر و مد و نحوهما دون أن تتغير به صورة الخط، و منها ما يتغير به صورة الخط و الرسم كإبدال كلمة بأخرى ...

فلما جمع عثمان الصحابة على خط واحد، و هو حرف قريش، و منع المسلمين من القراءة بما خالفه، و قد كان خط المصحف خاليا- إذ ذاك من النقط و الشكل- بقيت الأوجه الخاضعة لذلك الحرف الباقى، معتمدة فى القراءة و التعبّد بها، طالما ثبتت روايتها عن الرسول صلّى اللّه عليه و سلّم بالتواتر.

إذ الذى بطلت القراءة به من مجموع الأحرف السبعة، سواء قلنا إن ذلك كان فى آخر عهد رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم أو فى عهد عثمان، إنما هو كل ما خالف حرف قريش و لم يقبله التأويل بحال، فبقى ما كان مندرجا ضمنه على أصله من الاعتماد و صحة القراءة به.

و هذا القدر المتفق مع الخط المعتمد للمصحف، من مجموع الأحرف السبعة، هو الذى سمى فيما بعد بالقراءات.

من روائع القرآن، ص: ۶۵

علوم القرآن

تمهيد

اشارة

۱- ما هى علوم القرآن؟

۲- (علوم القرآن) اصطلاح خاص.

۳- متى ظهر هذا الاصطلاح؟

ما هى علوم القرآن؟

علوم القرآن كثيرة، و حسبك أن تعلم أن المكتبة العربية كلها بعلومها المختلفة الكثيرة، إنما انبثقت عن القرآن و تفرعت عنه، فعلم العربية بفروعها من أدب و بلاغة و قواعد و لغة، من علوم القرآن. و الشريعة الإسلامية بفروعها من الفقه و الأصول، و التفسير و الحديث و التوحيد، من علوم القرآن. و التاريخ و كثير من مسائل الكونيات و أصول البحث من علوم القرآن.

قال الزركشى: و كل علم من العلوم منتزع من القرآن و إلا فليس له برهان «۱».

و روى البيهقى فى المدخل عن ابن مسعود أنه قال: من أراد العلم فليثوّر القرآن (أى ليفكر فى معانيه و تفسيره و قراءته) فإن فيه علم

الأولين و الآخرين قال: و إنما أراد به أصول العلم «۲».

و قبل أن تستعظم هذا الكلام، و تردّه إلى المبالغة و التزيد، نقول لك:

إنما يصدق هذا، على أساس الوجهين التاليين:

الوجه الأول: أن القرآن يشتمل على كل تلك العلوم اشتمالا مختلفا

---

(۱) البرهان: ۱- ۷.

(۲) المرجع السابق: ۱- ۸.

من روائع القرآن، ص: ۶۶

و متفاوتا. فمنها ما يشتمل عليه القرآن بمعناه الحقيقى دون أى تأويل أو مبالغة كعلوم الفقه و الأصول و التفسير و البلاغة و القواعد و اللغة. و منها ما يشتمل القرآن على أصوله و مفاتيحه، بمعنى أنه ينبّه القارئ إليه و يرشده إلى كثير من كلياته و أصوله، ككثير من العلوم الكونية و الفلكية، و علم الطب و الأبدان.

الوجه الثانى: أن القرآن هو الذى نبّه العرب و المسلمين إلى ضرورة الإقبال على هذه العلوم و الأبحاث، بل هو المنطلق الأول لشىء اسمه «التدوين» فى التاريخ العربى.

فالقرآن، كما قد رأيت فيما مضى، هو الذى أشعر الناس بضرورة وضع قواعد فى النحو و الإعراب، و هو الذى أشعرهم بالحاجة إلى وضع موازين و ضوابط للبلاغة العربية و وجوهها، و هو الذى دعاهم إلى وضع الموسوعات اللغوية المختلفة، و هو الذى اضطرهم إلى تدوين شىء اسمه (علم الكلام) بما يشتمل عليه هذا العلم من قواعد البحث و المنطق لتعزيز الأدلة النقلية بالبراهين العقلية ثم لو لا القرآن و ما أدى إليه تدوينه و الإقبال عليه، لما أقبلوا بعد ذلك إلى شىء من العلوم الكونية و التشريح و الطب. و آية ذلك أن الذين نبغوا من العرب فى هذه العلوم، إنما نفذوا إليها من دراساتهم القرآنية قبل ذلك، فأنت لا تكاد تقع على ترجمة واحد منهم إلا و تجده مفسّرا فقيها ذا باع طويل فى القرآن و علومه، كابن النفيس مثلا الطبيب العظيم و صاحب اكتشاف الدورة الدموية، فقد كان من قبل فقيها عظيما ألّف فى الفقه و السيرة النبوية، و ترجم له السبكى فى طبقات فقهاء الشافعية «۱».

و الخلاصة إن بنية الحضارة العربية بما اشتملت عليه من علوم و فنون و فكر و ابتكار، إنما قامت بتأثير القرآن و على ضوئه، و لا ينافى ذلك ما نعلمه جميعا من كيفية تسلسل الأحداث و ارتباط الأمور ببضعها. إنما المهم أن تعلم أنه لو لا القرآن لما كانت هذه المكتبة العربية التى نرفع الرأس بها اليوم عاليا.

و ذلك معنى قولنا: القرآن يحتوى على علوم كثيرة جدا و هو معنى قول الزركشى السابق: كل علم من العلوم منتزع من القرآن.

---

(۱) انظر طبقات السبكى: ۵- ۱۲۹.

من روائع القرآن، ص: ۶۷

(علوم القرآن) اصطلاح خاص:

ثم إن هذه الكلمة أصبحت تطلق على طائفة معينة من الأبحاث الهامة المتعلقة بالقرآن تعلقا مباشرا و قريبا. كتفسيره، و ناسخه و منسوخه، و مكيه و مدنيه و محكمه و متشابهه، و قراءاته. و ذلك، لأن كلّا من هذه الأبحاث، قد دار حوله كلام كثير، و استلزم فهمه معرفة دقيقة لضبطه و تحديده، و ألّفت فيه الكتب المستقلة، فتحولت المعرفة بذلك إلى علم، كما يقول ابن خلدون «۱».

فالتفسير إذا فن مستقل برأسه، يقوم على أسس و مقوّمات و شروط، و الناسخ و المنسوخ فى القرآن أيضا فن خاص يقوم على دراسة

معينة و أهمية خاصة، و المحكم و المتشابه كذلك ... و هلمّ جرا.

ثم لما كثرت تآليف العلماء فى هذه القرون، و أطلقوا على جملتها اسم (علوم القرآن) و تكرر هذا الاسم و تداوله الباحثون و الكاتبون، أصبح هذا الإطلاق علما على هذه الطائفة من علوم القرآن و أبحاثه. و أصبحت هذه الطائفة من الأبحاث علما مستقلا برأسه.

متى ظهر هذا الاصطلاح:

ثم إنك تعلم أن عصر الصحابة كان عصر تلقّ للقرآن و السنّة، و كان الصحابة رضوان اللّه عليهم يدركون معانى الألفاظ و ما وراءها بفطرتهم العربية الأصيلة، فإذا أشكل عليهم شىء من وراء ذلك أيضا سألوا عنه رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم، ثم كانت رقعة حياتهم ضيقة لا تزخر أو تتزاحم فيها التقاليد و الأفكار و المشكلات الطارئة فكانت معارفهم فى أذهانهم، و كان مرجعهم فيها رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم ثم كبار الصحابة من بعده، فلم يكن عندهم شىء مما أطلق عليه فيما بعد اسم «علوم القرآن».

ثم لما كان عصر التابعين، أقبل التابعون على مشاهير الصحابة يعلمون منهم كتاب اللّه تعالى و تفسيره، و ربما أخذ البعض يدوّن من ذلك الكثير مما

---

(۱) مقدمة ابن خلدون: ۲۱۴ طبعة بولاق.

يحرص عليه. و قد اشتهر من التابعين فى دراسة القرآن و تفسيره: مجاهد بن جبر و سعيد بن جبير و عكرمة مولى ابن عباس و عطاء ابن أبى رباح و الحسن البصرى.

روى ابن كثير عن ابن أبى مليكة قال: رأيت مجاهدا سأل ابن عباس عن تفسير القرآن، و معه ألواحه، قال: فيقول له ابن عباس اكتب، حتى سأله عن التفسير كله «۱».

و هكذا تكوّن و ظهر فى عصر التابعين «علم تفسير القرآن» فى مقدمة علومه و أبحاثه الأخرى، إذ هو أساسها و إليه مردّها؛ ظهر علما بدأ تدوينه و جمعه، بعد أن كان معارف فى الأذهان و الصدور.

ثم تفرع عن علم التفسير علومه الأخرى، عند ما تكاثر أرباب الاختصاص فى الدراسات العربية و الإسلامية.

فالفقهاء و الأصوليون عنوا منها بعلم الناسخ و المنسوخ، و علماء التفسير و الكلام اهتموا من ذلك بعلم المحكم و المتشابه و القراءات، و علماء العربية انصرفوا إلى مباحث الإعجاز و الأسلوب و علم إعراب القرآن ... و هلم جرا.

و لا شك أن هذه الفنون لم تظهر فى حقبة واحدة من الزمن، و إنما ظهرت متتابعة، إلا أنها تكاملت علوما خلال القرنين: الثانى و الثالث.

أما إطلاق لفظ (علوم القرآن) اصطلاحا على هذه العلوم القرآنية فإن البعض يحسب أن الإمام الشافعى هو أول من سيّر هذا الاصطلاح و ذلك أنه حينما جيء به إلى الرشيد- عند ما اتهم بالتشيّع- سأله الرشيد: كيف علمك يا شافعى بكتاب اللّه؟ فقال الشافعى: عن أىّ كتاب من كتب اللّه تسألنى يا أمير المؤمنين؟ فإن اللّه أنزل كتبا كثيرة، قال الرشيد: قد أحسنت، لكن إنما سألت عن كتاب اللّه المنزّل على محمد صلّى اللّه عليه و سلّم، فقال الشافعى إن للقرآن علوما

---

(۱) تفسير ابن كثير ۱- ۴.

كثيرة، فهل تسألنى عن محكمه و متشابهه، أو عن تقديمه و تأخيره أو ناسخه و منسوخه؟

و أغلب الظن أن الكلمة إنما أصبحت اصطلاحا، بتداول المؤلفين لها، و جعلها اسما على مباحثهم المتعلقة بالقرآن. و أيّا كان الأمر فإن الخطب فى ذلك يسير و هو ما لا يتعلق لنا به غرض كبير.

من روائع القرآن، ص: ۷۰

التّفسير حقيقته، نشأته و تطوّره، مذاهبه و شروطه

حقيقته:

قال فى البرهان: التفسير علم يعرف به فهم كتاب اللّه المنزّل على نبيّه محمد صلّى اللّه عليه و سلّم، و بيان معانيه و استخراج أحكامه و حكمه؛ و استمداد ذلك من علم اللغة و النحو و الصرف و علم البيان و أصول الفقه و القراءات «۱».

و ثمة كلمة أخرى كثيرا ما تستعمل فى مكان التفسير، و هى: التأويل.

إلا أنها ليست مرادفة للتفسير بمعناه الدقيق، بل هى فى الأصل تختلف عنه اختلافا ما، و لكن كثرة استعمالها فى مكان «التفسير» جعلها تؤدى معناها و تقوم مقامها.

قال فى تهذيب الأسماء و اللغات فى بيان الفرق بينهما: أما التأويل فقال العلماء هو صرف الكلام عن ظاهره إلى وجه يحتمله، أوجبه برهان قطعى فى القطعيات و ظنى فى الظنيات، و قيل هو التصرّف فى اللفظ بما يكشف عن مقصوده. و أما التفسير فهو بيان معنى اللفظة القريبة أو الخفية «۲».

أقول: و لعلّ هذا التفريق أصحّ ما قد قيل فى ذلك.

و لكن هذا الفرق ناظر إلى معنى كلّ من الكلمتين من حيث دلالتها

---

(۱) البرهان للزركشى ۲- ۱۳.

(۲) تهذيب الأسماء و اللغات للنووى ۳- ۱۵، و انظر البرهان ۲- ۱۴۹.

من روائع القرآن، ص: ۷۱

اللغوية. أما عند ما تصبح «التفسير» إطلاقا على علم معين كما ذكرنا، فهى تتسع حينئذ لمعنى التفسير و التأويل، إذ الكل يدخل تحت مدلول هذا العلم.

و تبقى العلاقة حينئذ بين الكلمتين، العموم و الخصوص المطلق، فكل تأويل تفسير و ليس كل تفسير تأويلا.

و لعلك تسأل فتقول:

فإذا كان القرآن كتابا مبينا، و قد نزل إلى الناس ليقرءوه فيفهموه، فينبغى أن يكون غنيا عن التفسير و المفسرين؛ و ينبغى أن يكون مفهوما بذاته لأن اللّه تعالى إنما يخاطب عباده بما يفهمونه، ففيم احتيج إلى تفسيره؟

فالجواب: الحاجة إلى تفسير القرآن ليست بسبب أنه كتاب مبهم يحتاج إلى مفتاح له و مترجم عنه و إنما الحاجة إليه من وجوه أخرى نجملها فيما يلى:

الوجه الأول: أن القرآن جار على أسلوب يصلح أن يخاطب به طبقات الناس كلهم على اختلاف مداركهم و ثقافاتهم (كما سنشرح ذلك فيما بعد) فهو يعطى كلّا، من معانيه و أحكامه قدر طاقته و ما يتسع له فكره؛ فإذا أراد القارئ أن يستشف منه ما وراء ذلك و ينتهى فى سبر أغواره إلى أكثر مما فهمه منه بطبيعته و فكره، فإن سبيله إلى ذلك الرجوع إلى فهم من هم أوسع منه علما و أغزر ثقافة

و فهما ليبصروه بما وراء الذى انتهى عنده علمه من دلائله و معانيه.

فهذا وجه من وجوه الحاجة إلى التفسير.

الوجه الثانى: أن القرآن- كما قال الزركشى- كلام متكلم لم يصل الناس إلى مراده بالسماع منه، و لا إمكان للوصول إليه، بخلاف الأمثال و الأشعار، فإن الإنسان يمكن علمه بمراد المتكلم بأن يسمع منه أو ممّن سمع منه «۱». و من هنا تجد القرآن محاطا بسور من الرهبة و الجلال يمنع قارئه أن يسرع فيقتحم إليه بالشرح و التفسير كما يشرح الكتب الأخرى. و إنما الشأن أن يتوسط إلى ذلك بما قد أثر من تفسير النبى صلّى اللّه عليه و سلّم له أو أثر من تفسيرات الصحابة رضوان اللّه عليهم، فهو الذى أوحى إليه القرآن مباشرة، و هو الذى أمره اللّه عزّ و جلّ بأن يبيّن

---

(۱) البرهان: ۱- ۱۶

من روائع القرآن، ص: ۷۲

للناس ما نزل إليهم. فهذا وجه ثان فى الحاجة إلى تفسيره و الاطمئنان إلى حقيقة معانيه المرادة منه.

الوجه الثالث: إن القرآن كتاب يحوى بين دفتيه مبادئ العقيدة و التوحيد، كما يحوى مبادئ الشريعة و أحكام الحلال و الحرام، و يشمل التوجيهات الأخلاقية و مبادئ التنظيمات الاجتماعية، إلى جانب ما فيه من عبر الأمم الماضية و الإخبار عن المغيبات و وجوه النقاش و الحجاج.

فلا- جرم أنه إنما يتناول كل ذلك و يعالجه بأسلوب من التركيز و الاختصار يضمن للقارئ الفهم الموجز الكلى من ناحية، و يحمله على البحث و الدرس و الوقوف على تفصيلات ذلك من ناحية أخرى. فكانت الحاجة إلى تفسير القرآن من هذه الجهة استجابة للغرض المتعلق بتفصيل موجزاته و شرح كلياته.

الوجه الرابع: أن المعنى الذى يراد بتفسير القرآن بعد كل هذا الذى ذكرناه- ليس متوقفا على شرح الكلمة و ترجمتها، و إنما هو يتعدى ذلك إلى وجوه و أنواع من الاستنباطات المتعلقة بدقائق المباحث و العلوم، تختلف حسب اختلاف وجهة المفسّر و اختصاصه من عربية و أصول فقه و توحيد و كونيات.

و القرآن «كما قد علمت و ستعلم» ذو دلالات متسلسلة لا- تكاد تتناهى. و إنما سبيل الكشف عنها أو عن بعضها، بعكوف أرباب الاختصاصات عليه بالدرس و البحث و التفسير.

فهذه هى خلاصة الأسباب الداعية إلى تفسير القرآن و شرحه. و هى كما رأيت، أسباب لا تتنافى مع كونه كتابا عربيا غير ذى عوج، و لا تتعارض مع ما هو مقرر ثابت من أن اللّه إنما يخاطب عباده بما يفهمون.

نشأته و تطوره:

اشارة

نشأ علم التفسير فى صدر الإسلام، فى عصر رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم، و إن لم يكن يسمى حينئذ علما. و ذلك هو الشأن فى سائر العلوم الإسلامية (تقريبا) نشأت حقائقها فى صدر الإسلام، و تكونت أغلفتها فيما بعد.

و معلوم أن رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم هو أول من مارس التفسير و علمه للناس، إذ

من روائع القرآن، ص: ۷۳

كـان هو المصـدر الأـول لفهم الكتاب و تبيينه. و لا بـدّ أن النبى صـلّى اللّه عليه و سـلّم بيّن لأصـحابه سائر معانى الكتاب كما بيّن لهم ألفاظه و طريقة تلاوته «۱».

أما الصحابة، فهم الطبقة الأولى فى تاريخ علماء التفسير، و هم الأساس و الأصل اللذان قامت عليهما نشأة علم التفسير.

غير أن الصحابة ليسوا كلهم فى مستوى واحد من العلم بكتاب اللّه تعالى و الوقوف على تفسيره، و إنما هناك نخبة امتازت و اشتهرت من بين سائر الصـحابة بهـذا العلم. منهم الخلفاء الراشـدون و ابن مسـعود، و ابن عباس، و أبىّ بن كعب، و زيد بن ثابت، و أبو موسـى الأشـعرى، و عبـد اللّـه بـن الزبير، و أنس بن مالـك، و أبـو هريرة، و جـابر، و عبـد اللّه بن عمرو بن العـاص رضـوان اللّه تعـالى عليهم أجمعين «۲».

و لقـد كان أكثر هؤلاء رواية للتفسـير، أكثرهم تعميرا و أطولهم حياة، فمن أجل ذلك كان ابن عباس رضـى اللّه عنه المتوفى سـنة ۶۸ فى مقدمة من اشتهر من الصحابة بالتفسير، و قد روى عنه فى التفسير ما لا يكاد يحصى كثرة و قد سمّاه ابن مسعود: ترجمان القرآن. و من أجـل ذلـك تجـد الخلفـاء الثلاث: أبا بكر و عمر و عثمان أقل الـذين ذكرناهم روايـة له بسـبب تقـدم وفاتهم، و لعله بسـبب أعباء الخلافة أيضا «۳».

و أنت تعلم أن التفسير إنما كان عند هذه الطبقة رواية و أداء بالنطق و المشافهة فقط، و لم يكن شىء منه يكتب على عهدهم، كما لم يكتب أىّ علم آخر اللهمّ إلا القرآن و الحديث.

ثم تأتى (الطبقة الثانية) من علماء التفسير، و هى طبقة التابعين. و قد نبغ منهم فى التفسير ثلاث طوائف:

الطائفة الأولى: و هم أصحاب عبد اللّه بن عباس، من علماء مكة المكرمة

---

(۱) انظر الإتقان للسيوطى و ما يرويه فى هذا البحث عن ابن تيمية: ۲- ۱۷۸.

(۲) انظر كشف الظنون: ۱- ۱۷۸.

(۳) انظر كشف الظنون: ۱- ۲۹۸، و الإتقان: ۲- ۱۸۷، و تفسير ابن كثير: ۱- ۴.

من روائع القرآن، ص: ۷۴

أشهرهم مجاهد بن جبر (ت: ۱۰۳) و سعيد بن جبير (ت: ۹۴) و عكرمة مولى ابن عباس (ت: ۱۰۵) و طاوس بن كيسان (ت: ۱۰۶) و عطاء بن أبى رباح (ت: ۱۱۴).

و هذه الطائفة تعدّ من أعلم الناس بالتفسـير فى عصـر التابعين، و فى مقدمتهم مجاهد بن جبر، نقل النووى عنه أنه قال: عرضت القرآن على ابن عباس ثلاثين مرة، و قال: كان أعلمهم بالتفسير مجاهد «۱».

الطائفة الثانية: و هم أصحاب عبد اللّه بن مسعود، من علماء الكوفة

فمنهم علقمة بن قيس (ت: ۱۰۲) و الأسود بن يزيد (ت: ۷۵) و إبراهيم النخعى (ت: ۹۵) و الشعبى (ت: ۱۰۵).

الطائفة الثالثة: و هم أصحاب أنس بن مالك و غيره

من روائع القرآن ۷۴ الطائفة الثالثة: و هم أصحاب أنس بن مالك و غيره ..... ص : ۷۴

فمنهم زيد بن أسلم (ت: ۱۳۶) و قتادة بن دعامة السدوسى (ت: ۱۱۷) و الحسن البصرى (ت: ۱۱۰) و عطاء بن أبى سلمة (ت: ۱۳۵) و محمد بن كعب القرظى (ت: ۱۱۷).

فهذه الطوائف الثلاث، هى التى تكوّن الطبقة الثانية من علماء التفسير.

و إنما كان علم التفسير عند هؤلاء، الرواية عن الصحابة. فكانوا يروون عنهم التفسير إلى جانب ما يروونه من الحديث و الفقه، و لكنهم اشتهروا بمزيد من العناية بتفسير كتاب اللّه، لا سيما بعضا منهم مثل مجاهد و سعيد بن جبير و الحسن البصرى.

غير أن عمل هذه الطبقة يمتاز عن عمل الصحابة بظهور الكتابة و التدوين عند بعضهم، و قد كان فى مقدمة من قام بذلك مجاهد بن جبر من أصحاب ابن عباس رضى اللّه عنه. روى ابن جرير عن أبى مليكة قال: رأيت مجاهدا سأل ابن عباس عن تفسير القرآن و معه ألواحه. قال: فيقول له ابن عباس: اكتب، حتى سأله عن التفسير كله «۲».

---

(۱) تهذيب الأسماء و اللغات: ۲- ۸۳، و انظر الإتقان: ۲- ۱۸۹، و كشف الظنون: ۱- ۲۹۹.

(۲) تفسير ابن جرير: ۱- ۳۰.

من روائع القرآن، ص: ۷۵

و هى و إن كانت كتابة جزئية لم تبلغ درجة التأليف بمعناه المألوف إلا أنها مهدت ذلك لأرباب الطبقة الثالثة الذين عكفوا على تصنيف كتب التفاسير.

(أما الطبقة الثالثة)، فقد قام علماؤها بتأليف تفاسير واسعة تجمع ما انتهى إليهم من أقوال الصحابة و التابعين (كتفسير سفيان بن عيينة (ت: ۱۹۸) و وكيع بن الجراح (ت: ۱۹۷) و شعبة بن الحجاج (ت: ۱۶۰) و غيرهم؛ و هم كثير. ثم جاء فى أعقابهم محمد بن جرير الطبرى (ت: ۳۱۰) فجمع أشتات هذه التفاسير و قرّب منها البعيد، و فعل مثله عبد الرحمن بن أبى حاتم الرازى (ت: ۲۷۱) و ابن عطية و غيرهما. و كلهم كما يقول الزركشى متقن مأجور «۱»، و لكن الذى وصل إلينا منها تفسير ابن جرير، و هو تفسير عظيم جمع فيه المأثور بالسند و ميّز بين الصحيح منه و غيره، و أصبح مستندا هامّا لسائر المفسرين من بعده.

و لقد امتاز عمل هذه الطبقة من المفسرين بما يلى:

أولا- جمع ما انتهى إليهم من أقوال الصحابة و التابعين فى تفسير آيات القرآن، فى مؤلفات منسقة ينتظم فيها تفسير جميع آى القرآن بترتيبها المعروف، و بذلك تم ظهور هذا الفن العظيم فى مؤلفات و مصنفاته جامعة.

ثانيا- ضبط الرواية عن الصحابة. فقد بحثوا فى حال التابعين الذين نقلوا إليهم أقوال الصحابة فى القرآن، فاعتمدوا منهم من توفرت لديهم شروط الرواية و أمارات الثقة و أهملوا الآخرين، و ذلك لما اندسّ فى صفوفهم من الدخلاء المتسترين بلباس العلم و الإسلام.

فمن عملهم فى ذلك أنهم اعتمدوا طرقا معدودة فى الرواية عن ابن عباس، أفضلها طريق على بن أبى طلحة الهاشمى (ت: ۱۴۳) و اعتمد عليها البخارى فى صحيحه، و ابن جرير و ابن أبى حاتم و ابن المنذر فى تفاسيرهم، و أهملوا طريقة محمد بن السائب الكلبى (ت: ۱۴۶) عن ابن صالح

---

(۱) انظر البرهان: ۲- ۱۵۹.

من روائع القرآن، ص: ۷۶

(ت: ۲۲۳) عن ابن عباس، قالوا: فإن انضم إليهما محمد بن مروان السدى (ت: ۱۸۶) فهى سلسلة الكذب «۱».

ثالثا- أنهم أضافوا إلى ما نقلوه عن الصحابة و التابعين زيادات و استنباطات توسعوا فيها، فمنها ما يتعلق بالعربية و منها ما يتعلق

بالقراءات، و منها ما يتعلق بالفقه و أحكام الحلال و الحرام، ملتزمين فى ذلك قواعد التفسير و شروطه التى سنتحدث عنها فيما بعد إن شاء اللّه.

و لعلّ أهم هذه الأعمال الثلاثة، هو ضبط الأسانيد و الروايات و نخلها بذاك المنخل العلمى العظيم الذى لا و لن يملك مثله لدى البحث العلمى غير المسلمين، و أنّى للآخرين أن يرتقوا فيما يزعمونه من البحث العلمى إلى هذا المستوى، و إنما بحوثهم العلمية كلها تقوم على أساس (الاستنتاج) و يا له من أساس علمى متين؛ ذاك الذى يقتنص حقائق العلم وسط دخان الأهواء و فى سبحات الخيال!!

و لقد كان علم التفسير خلال هذه المراحل الثلاث يضم كل ما يتعلق بفهم القرآن و كشف أسراره و غوامضه، من قراءات و أسباب نزول، و ناسخ و منسوخ، و متشابه، إذ كان الحديث عن ذلك كله داخلا فى تفسير القرآن.

فلما توسعت الاختصاصات العلمية، و ظهر العلماء الذين اختصّوا- بعد كفايتهم العلمية- بالفقه، و الذين اختصّوا بعلم الكلام، و الذين انصرفوا إلى علم القراءات و هلمّ جرّا- أخذ كلّ من أرباب الاختصاص يتناول من تفسير القرآن ما يتعلق باختصاصه فيفرده بالبحث و التأليف.

و هكذا انفصل بحث القراءات من علم التفسير، لمّا أفرد القراء التآليف فيه، فأصبح علما مشتقا من التفسير؛ و انفصل عنه مبحث أسباب النزول و الناسخ و المنسوخ، لمّا أفرد فيه علماء الفقه و الأصول البحث و التأليف؛ و انفصل عنه مباحث إعراب القرآن لما عنى النحاة بإفراد التصانيف فى ذلك.

---

(۱) انظر الإتقان للسيوطى: ۲- ۱۷۸، و كشف الظنون: ۱- ۲۹۹.

من روائع القرآن، ص: ۷۷

و لم تكن هذه الظاهرة وحدها ثمرة ظهور الاختصاصات العلمية، بل ثمة ثمرة أخرى. فلقد أخذت كتب التفسير تتجه فيما بعد- من حيث العناية و الاهتمام- وجهة اختصاص المؤلف.

فقد ألّف علماء العربية فى تفسير القرآن، ليخدموا بذلك فنهم، فكان عملهم يتركز على إبراز بلاغته العربية و إعجازه اللغوى، من ذلك تفسير أبى حيّان الأندلسى و تفسير الكشاف للزمخشرى و تفسير أبى السعود.

و ألّف علماء الفقه فيه أيضا؛ ليستجلوا منه أحكام الحلال و الحرام، فكان عملهم منصبّا منه على هذا الجانب أكثر من غيره، كالجامع لأحكام القرآن للقرطبى (ت: ۶۷۱) و أحكام القرآن لأبى بكر ابن العربى (ت: ۵۴۳).

و ألّف فيه علماء التوحيد و الكلام، ليستخرجوا منه دلائل التوحيد و فروعه و متعلقاته، فلم يعنوا منه العناية التامة إلا بهذا الجانب دفاعا عن العقيدة الإسلامية و تجلية لأمرها، كالإمام فخر الدين الرازى (ت: ۶۰۶) فى تفسيره:

مفاتيح الغيب.

فهذه خلاصة كافية عن نشأة علم التفسير و تطوره.

مذاهبه و شروطه:

اتخذت مناهج المفسرين فى تفسير كلام اللّه عزّ و جلّ أحد مذهبين:

الأول: التزام الوارد فى تفسير الآية عن الرسول صلّى اللّه عليه و سلّم أو عن الصحابة أو التابعين، دون سوق أى زيادة على ذلك، اللهمّ إلا أن تكون شرحا لغويا لكلمة أو كشفا عن إعراب جملة أو نحو ذلك و قد أطلق على هذا المسلك فيما بعد اسم «التفسير بالمأثور».

الثانى: عدم التزام الاقتصار على ذلك، بأن يتجاوز المفسر حدود الوارد و المأثور فى تفسير الآية، إلى استنباطاته الخاصة من دلائل الصيغة أو قواعد العلوم، إذا كان اللفظ قابلا لحمل المعنى المستنبط، و قد تكون هذه المعانى المستنبطة مباحث من علوم و فنون

مختلفة غير التى تدل عليها الآية من قريب.

من روائع القرآن، ص: ۷۸

و قد أطلق على هذا المسلك فيما بعد اسم «التفسير بالرأى».

و يعدّ تفسير الإمام فخر الدين الرازى (مفاتيح الغيب) نموذجا بارزا للتفسير بالرأى، و يليه فى ذلك تفسير الإمام البيضاوى (أنوار التنزيل و أسرار التأويل) و تفسير أبى السعود (إرشاد العقل السليم إلى مزايا القرآن الكريم).

و لا يذهبن بك الوهم إلى أن أصحاب التفسير بالرأى يستبدلون بالرواية و الأحاديث الثابتة فى تفسير الآية رأيا أو حكما من عند أنفسهم، فهذا مما لا يقدم عليه مسلم و هو عمل محرم بالاتفاق.

بل الحقيقة أن ثمة قدرا مشتركا بين أصحاب التفسير بالمأثور و التفسير بالرأى، و هو الأخذ بما صحّ عن رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم أو عن الصحابة (على الصحيح الذى يعتبر قول الصحابى فى التفسير فى حكم المرفوع) فى تفسير الآية. ثم يفترقان بعد ذلك: فصاحب التفسير بالمأثور لا يزيد على ذلك إلا أن يعزز النقل بنقول أخرى مثلها أو مخالفة لها ليجمع بينهما، و صاحب التفسير بالرأى يجيز لنفسه أن يزيد على ذلك من اجتهاداته و استنباطاته المختلفة بقدر ما تسمح به دلالة اللفظ.

و على كلّ فإن الذى يجمع بين طريقتى التفسير بالمأثور و التفسير بالرأى شروط أربعة لا بدّ من مراعاتها لكل من حاول أن يفسر شيئا من كتاب اللّه تعالى أيّا كان مسلكه و منهجه فى ذلك.

(الشرط الأول) التزام القول بما ورد عن رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم فى ذلك إذا كان فيه حديث ثابت صحيح؛ قالوا: و لكن ينبغى الحذر من الوقوع فى الضعيف و الموضوع أيضا، و قد بيّن العلماء ذلك و ميّزوه.

و قال ابن جرير ما خلاصته: و مصدر هذا الوجوب أننا نقطع أن فى القرآن ما لا ندرك معناه إلا ببيان الرسول، بدليل قوله تعالى: وَ أَنْزَلْنا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ ما نُزِّلَ إِلَيْهِمْ، مثال ذلك جميع الآيات المتعلقة بالأوامر و النواهى و الإرشاد، مما يتوقف فهمه على معرفة نوع النهى و الأمر فيه، و مبالغ فرائضه و قدرها و حدودها و شروطها و قيودها. و هذا وجه لا يجوز لأحد القول

من روائع القرآن، ص: ۷۹

فيه إلا ببيان رسول اللّه أو إقراره لأحد من أصحابه «۱».

و على هذا المعنى ينزّل ما ورد عن رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم من قوله: من قال فى القرآن برأيه فليتبوأ مقعده من النار رواه الترمذى و أبو داود. و ما روى عن أبى بكر رضى اللّه عنه أنه قال (أى أرض تقلّنى و أى سماء تظلنى إذا قلت فى القرآن ما لا أعلم؟).

(الشرط الثانى) التزام الأخذ بقول الصحابة إذا كان قد أثر عنهم فى ذلك قول. و هذا ما ذهب إليه الأكثر من أن تفسير الصحابة للقرآن يعتبر فى حكم المرفوع إلى النبى، و ذلك لأنه ليس من قبيل الرأى و إنما هو فى الحقيقة من قبيل الرواية.

(الشرط الثالث) التزام قواعد اللغة العربية و ضوابطها و مقاييسها فى التفسير. فإن القرآن نزل بلسان عربى مبين، و إنما تفسره الدلالات اللغوية و القواعد العربية. فمن لم يكن ذا بصيرة سليمة فى فهم العربية فليس له أن يفسر شيئا من كتاب اللّه عزّ و جلّ. روى البيهقى فى شعب الإيمان عن مالك بن أنس قال: لا أوتى برجل غير عالم بلغات العرب، يفسر كتاب اللّه تعالى، إلا جعلته نكالا.

(الشرط الرابع) التزام المقتضى الذى يدل عليه العلم بكتاب اللّه تعالى، و التزام أصول الشرع و قواعده فى الفهم و الاستنباط و الاجتهاد كالمفهوم و الفحوى و دلالة العام و الخاص و المطلق و المقيد، و هى فى مجموعها إنما تعتبر ملكة علمية تؤهل صاحبها لاستنباط المعانى و الأحكام من كتاب اللّه عزّ و جلّ.

فليس من ضير (بعد أن يلتزم المفسّر الشروط الثلاثة الأولى) فى أن يستنبط مزيدا من التفسير للآية بدلالة المقتضى و القواعد العلمية التى ترسّخ فى معرفتها و تذوقها.

و استنباط المعنى من الآية بهذه الوسيلة، هو الذى دعا به النبى لابن عباس حينما قال: (اللهمّ فقّهه فى الدين و علّمه التأويل) و هو المقصود بما قاله

---

(۱) تفسير جرير: ۱- ۲۵.

من روائع القرآن، ص: ۸۰

على رضى اللّه عنه عند ما سئل: هل خصّكم رسول اللّه بشىء؟ فقال: ما عندنا غير ما فى هذه الصحيفة أو فهم يؤتاه الرجل (رواه البخارى).

و لكن لا يجوز تفسير القرآن- على كل حال- بمجرد الرأى و الاجتهاد من غير أصل يستند إليه، فهو أشبه بحال من لم تكن عنده أى بصيرة فقهية و هو يزعم أنه يجتهد فى استنباط أحكام الفقه. ففى حق مثل هذا قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم: (من قال فى القرآن بغير علم فليتبوأ مقعده من النار) و قال:

(من تكلم فى القرآن برأيه فأصاب فقد أخطأ) رواه أبو داود و الترمذى و النسائى.

قال البيهقى فى شعب الإيمان: هذا إن صحّ، فإنما أراد- و اللّه أعلم- الرأى الذى يغلب من غير دليل قام عليه، فمثل هذا لا يجوز تفسير القرآن «۱».

فهذه الشروط لا بدّ من التزامها سواء بالنسبة لمن يفسر القرآن بالمأثور و لمن يفسره بالرأى.

و بذلك تعلم أنه لا خلاف بين هذين المنهجين فى التفسير من حيث نقد أصحاب أحدهما على الآخرين، و إنما هو مجرد اختيار للطريقة، و ما دامت الشروط متوافرة فلا ضير.

و نختم حديثنا عن التفسير ببيان أن ما يسلكه بعض الناس اليوم من تفسير الآيات الكونية فى كتاب اللّه تعالى طبق نظريات و آراء علمية، لا دلالة فى الآية عليها بميزانها اللغوى و حسب القواعد العلمية للتفسير، هو من قبيل التفسير الفاسد الذى يتّبع فيه المفسر رأيه المجرد. و مثله ما يسمى بالتفسير الإشارى أو الباطنى الذى ينتهجه بعض الفرق الباطنية أو المنحرفون من المتصوفة؛ و يسير وراءهم فى ذلك طائفة أخرى من الناس، هان عليهم القرآن و فرغت قلوبهم من الشعور بجلاله و هيبته، فاقتحموا إليه بالتفسير و التأويل،

---

(۱) هذه الشروط ذكرها الزركشى فى البرهان: ۱- ۱۵۶ و الصفحات التى تليه، و نقلها السيوطى فى كتابه الإتقان: ۲- ۱۷۸. و قد عرضناها بألفاظ مختلفة، قصدا لزيادة الإيضاح.

من روائع القرآن، ص: ۸۱

طبقا لما تهواه أنفسهم و تستدعيه عصبياتهم و أخيلتهم، و هم عن الشروط و الضوابط التى ذكرناها، معرضون و غافلون.

فالقرآن عند هؤلاء الناس ليس أكثر من خادم لتأييد آرائهم و مذاهبهم و أخيلتهم! ... لهم أن يختاروا ما يشاءون من المذاهب و الآراء و التصورات فى حق أنفسهم و مصيرهم و الكون الذى من حولهم، و على القرآن أن يكون طوع آرائهم و الخادم الأمين لتصوراتهم و أفكارهم، و لا ضير أن يجرّ القرآن إلى ذلك جرّا، خارج حدود اللغة و ضوابطها و الحقيقة و مجازها!! ...

فإذا كانت تصوراتهم و قناعاتهم النفسية تقضى بأن عذاب الكافرين يوم القيامة مجرد شعور معنوى مبعثه الشعور بالندامة و الخزى، فما أيسر عليهم أن يشطبوا على كل الآيات القرآنية الصريحة ذات الدلالة القاطعة المؤكدة بأنه عذاب جسدى و معنوى معا، و أن لهذا العذاب أدوات و وسائل مادية محسوسة.

فإن المهم ما توحى به تصوراتهم و أوهامهم لا ما يقرره كتاب ربهم.

قلت لواحد من هؤلاء: إنكم تزعمون أن الشعور بالخزى هو مصدر عذاب الكافرين يوم القيامة، و لكن القرآن يقول صراحة نقيض ما

تزعمون، إذ هو يقرر أن الخزى فرع عن دخولهم النار. أ لا- ترى إلى قوله عزّ و جلّ و هو يعلّمنا كيف ندعوه و نلجأ إليه: (ربنا إنك من تدخل النار فقد أخزيته و ما للظالمين من أنصار) ثم ما علاقة الشعور بالخزى المعنوى بالجلود التى تنضح من شدة العذاب فيبدلها اللّه جلودا أخرى ليستمر العذاب ... و هو ما يقرره القرآن بعبارة صريحة و قاطعة؟! ...

و رأيت الرجل يذهب فى الاعتداد برأيه و تصوراته، مذهبا يجعله غير مبال بكل ما يقوله القرآن خلافا لتصوراته! ... و نحن لا نشك أن هؤلاء إنما يعبدون أفكارهم و قناعاتهم، تلك هى الحقيقة مهما جاءت مغلفة و مقنعة.

و المهم أن تكون أيها القارئ على حذر من أن تسرى إليك عدوى تأليه الأفكار و القناعات الذاتية، فتكون بذلك ممّن قال اللّه عنهم: أ فمن اتخذ إلهه هواه ...

من روائع القرآن، ص: ۸۲

و اجعل عونك فى هذا الحذر تذكّر الشروط و الضوابط التى تحدّثنا عنها لتفسير القرآن. ثم اجعل قدوتك فى ذلك أصحاب رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم و التابعين الذين جاءوا على أثرهم. و تأمل كيف كانوا فى غاية الأدب مع كتاب اللّه و التوقير له، و كيف كانوا يجعلون نصوص القرآن حاكمة على آرائهم و تصوّراتهم، على نقيض ما يفعله هؤلاء الذين خلفوا من بعدهم. نسأل اللّه عزّ و جلّ أن يحررنا من أهوائنا و رعوناتنا. و يجعلنا عبيدا صادقين له، لا نروغ عن أمره و لا نتلاعب ببياناته و أحكامه.

من روائع القرآن، ص: ۸۳

المكّىّ و المدنىّ تعريف كلّ منهما، خصائص كلّ منهما، الفائدة من معرفة ذلك

تمهيد:

ينقسم القرآن فى مجموعه إلى مكّى و مدنى. و قد عنى العلماء و الرواة عناية كبرى بتمييز هذين القسمين عن بعضهما و استخراج خصائص كلّ منهما، لما يترتب على ذلك من الفوائد التشريعية و التاريخية التى ستعلمها فيما بعد بل لقد عنى الرواة و الباحثون بتصنيف القرآن إلى ما نزل منه فى النهار و ما نزل منه فى الليل، و إلى ما نزل منه فى الأسفار.

و نحن لن نتناول فى هذه العجالة حديث الليلى و النهارى أو الحضرى و السفرى من القرآن، لأنّا نرى أن فائدة ذلك- فى هذا المقام- فائدة جزئية ضعيفة، و إن كان البحث فيه يتّبهنا إلى مدى اهتمام العلماء و الرواة بالقرآن و إلى مدى خدمتهم و دراستهم له من شتى الجوانب المختلفة.

تعريف المكّى و المدنى:

للعلماء ثلاثة اصطلاحات فى تعريف كلّ من المكّى و المدنى.

أحدها: أن المكّى هو كل ما نزل بمكة و المدنى ما نزل بالمدينة، سواء كان ذلك من قبل الهجرة أو بعدها. فالاعتبار على هذا الاصطلاح للمكان وحده.

و الثانى: أن المكّى ما وقع خطابا لأهل مكة، و المدنى ما وقع خطابا لأهل المدينة، فالاعتبار على هذا للموضوع وحده.

و الثالث: أن المكّى ما نزل من قبل الهجرة و المدنى ما نزل من بعد

من روائع القرآن، ص: ۸۴

الهجرة، دون النظر إلى مكان النزول بالذات. و الاعتبار على هذا للزمان وحده.

و هذا الاصطلاح الثالث هو أشهر و أصح ما قيل فى هذا الموضوع.

و بناء على ذلك فإن كل ما نزل من القرآن من قبل هجرته صلّى اللّه عليه و سلّم إلى المدينة يسمى مكيّا سواء نزل فى مكة أو فى الطائف أو فى أى جهة أخرى. و كل ما نزل بعد الهجرة فهو مدنى سواء نزل بالمدينة أو فى الأسفار و الغزوات أو فى مكة فى عام الفتح.

و قد تجد فى القرآن سورا نزلت كلها من قبل الهجرة كسورة «ق» و «هود» و «يوسف». و قد تجد فيه سورا نزلت كلها بعد الهجرة كسورة «البقرة» و «آل عمران». و قد تجد فيه سورا كلها مكيّة إلا بضع آيات منها، نزلت بعد الهجرة كسورة الأنعام: كلها مكّى إلا ست آيات منها فهى مدنية نزلت بعد الهجرة، و قد تجد سورا كل آياتها مدنية إلا بعض آيات منها فهى مكية كسورة الأنفال و التوبة.

و لعلك تسأل: فكيف تسنى للعلماء أن يعرفوا تفصيل هذا الأمر، و كيف أمكنهم أن يعلموا أن هذه الآية نزلت فى مكة و الأخرى بالمدينة، و أن هذه نزلت فى الليل و تلك نزلت فى النهار؟

و الجواب أن سبيل معرفة ذلك إنما هى الرواية الصحيحة الصادقة، و هى السبيل ذاتها التى وقف بها العلماء على تفسير القرآن بالمأثور، كما مرّ بيانه. و مما سهّل للعلماء ذلك أن الصحابة رضوان اللّه عليهم عنوا بالقرآن عناية فائقة عجيبة، فكانوا يؤرخون كل آية بوقت نزولها و مكانها، و ربما اتخذوا من الأماكن و الجبال و المفاوز التى يعلمونها، أماكن ذكرى، بسبب آية أو آيات من القرآن قد نزلت فيها على رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم «۱».

روى البخارى بسنده عن ابن مسعود رضى اللّه عنه أنه قال: و الذى لا إله غيره، ما نزلت آية من كتاب اللّه تعالى إلا و أنا أعلم أين نزلت، و لا أنزلت

---

(۱) راجع البرهان: ۱- ۱۸۷ و الاتقان: ۱- ۹.

آية من كتاب اللّه إلا و أنا أعلم فيم أنزلت، و لو أعلم أحدا أعلم منى بكتاب اللّه تبلغه الإبل لركبت إليه «۱».

و ذكر فى الإتقان نقلا عن كتاب الحلية بالسند أن رجلا سأل عكرمة رضى اللّه عنه عن آية من القرآن فقال: نزلت فى سفح ذلك الجبل، و أشار إلى سلع «۲».

و أنت خبير أنّا لا نقصد بما نقول جميع الصحابة، بل إن فيهم من لم يتوفر على ذلك، و لكنا نقصد منهم أولئك الذى اشتهروا بقراءة القرآن و حفظه و نقله من فم الرسول صلّى اللّه عليه و سلّم، و هم كثيرون. فكانوا يحفظون مع نطق الآية و تلقيها و كتابتها- تاريخ نزولها.

فاشتغل التابعون و من بعدهم برواية هذا كله و نقله، بالطرق العلمية، و حسب قواعد المصطلح. و بذلك وجد العلماء بين أيديهم ما أطلق عليه فيما بعد اسم (علم المكّى و المدنى).

خصائص كلّ منهما:

علمت مما قلناه أن الآيات المكيّة من القرآن، هى التى نزلت فى صدر الإسلام و هى الفترة التى يحدّها من الزمن ثلاثة عشر عاما، أمضاها رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم فى مكة معذبا مضطهدا، يقابل الإيذاء و الاضطهاد بالمسالمة، مع المضى فى الدعوة إلى الحق الذى أوحى إليه.

و علمت أن الآيات المدنية، هى التى نزلت من بعد الهجرة، و هى الفترة التى يحدّها من الزمن عشرة أعوام، بنى فيها رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم الدولة الإسلامية حيث تكاملت مقوّماتها الإدارية و الدستورية و القانونية.

و على هذا، فإنك تجد خصائص كلّ من القسمين، مستمدة من طبيعة هاتين المرحلتين التى عاشها النبى صلّى اللّه عليه و سلّم قائما

بأمر الدعوة.

---

(۱) صحيحب البخارى: ۶- ۱۰۲.

(۲) انظر الإتقان للسيوطى: ۱- ۹.

من روائع القرآن، ص: ۸۶

فأنت تجد أن الآيات المكيّة تمتاز بواحد مما يلى:

۱- "ذكر قصص الأنبياء و الأمم الخالية و دعوة الناس إلى الاعتبار بهم إلا ما يتعلق بالحديث عن مريم و عيسى عليه الصلاة و السلام و قصة ولادته، فقد نزل بعض ذلك فى المدينة حجاجا لأهل الكتاب.

۲- "المناقشة و الحجاج و عرض الأدلة على وجود اللّه تعالى و وحدانيته و على بعث الأجساد مع أرواحها من بعد الموت للحساب.

۳- "تثبيت فؤاد الرسول و دعوته إلى الصبر على الأذى تأسيا بمن سبقه من الأنبياء و المرسلين الذى بعثوا لدعوة الناس إلى هذا الدين ذاته.

۴- "يغلب على الآيات المكيّة أن تكون قصيرة ذات وقع معين فى الأذن و النفس، تبعث على الرهبة و الخشية و تشعر بمعنى الجلال و الجبروت، كمعظم السور التى تقرأها فى جزء تبارك و عمّ يتساءلون.

فهذه الخصائص تجدها فى الآيات المكية و هى من طبيعة المرحلة التى كانت تمر بها الدعوة الإسلامية. أما خصائص الآيات المدنية فهى ما يلى:

۱- "البحث فى الأحكام و التشريعات المتعلقة بالعبادة و المعاملات و الحدود و غيرها.

۲- "الأمر بالجهاد و القتال و التعليق على الغزوات و ما يتعلق بها من شأن الغنائم و الأسرى و المنافقين.

۳- "البحث فى شئون الحكم و الشورى و ضرورة الرجوع فيهما إلى الكتاب و السنّة.

۴- "يغلب على الآيات المدنية أن تكون طويلة فيها اللين و الهدوء، و وعد المسلمين بالفوز و النصر «۱».

فتلك هى خصائص الآيات المدنية و هى من طبيعة المرحلة الثانية التى

---

(۱) البرهان للزركشى: ۱- ۱۸۹، بتصرّف و زيادة.

من روائع القرآن، ص: ۸۷

مرّت بها الدعوة الإسلامية. و بهذا تستطيع أن تميز بين السور المكيّة و المدنية من غير الرجوع إلى روايات العلماء و المفسرين فى ذلك. فحسبك أن تقرأ سورة البقرة و تطّلع على ما تجمع فيها من أحكام الصيام و الحج و الوصية و القصاص و النكاح و الرضاع و الطلاق و غيرها لتعلم أنها سور مدنية. و حسبك أن تقرأ سورة مثل سورة ق و تقف على ما فيها من الحجاج و النقاش مع المشركين و ما فيها من الأدلة على وجود اللّه، و ما ينبعث من جرسها و فواصلها و إيقاع آياتها من معانى الشدة و التهديد و الجبروت، لتعلم أنها سورة مكية.

الفائدة من معرفة هذا العلم:

تتوقف فوائد علمية كثيرة على معرفة المكّى و المدنى من القرآن.

فمن أهمها معرفة ما قد يوجد فى القرآن من ناسخ و منسوخ، ليصار إلى الأخذ بالناسخ و اطراح المنسوخ (فى مجال الأحكام و التشريع) و إنما تتوقف معرفة ذلك على معرفة تاريخ نزول الآيات.

و اعلم أن وجود (الناسخ و المنسوخ) فى القرآن، اقتضته ضرورة أخذ الناس بالتدرج فى الأحكام الشرعية؛ كالآيات التى نزلت متدرجة فى تحريم الخمر، و كالآيات التى نزلت فى عقوبة الزنى.

و ليس معنى نسخ الحكم فى آيات القرآن أن قرآنيتها قد سقطت بذلك، بل هى تظل قرآنا يتلى و يتعبد به و هى من كلام اللّه عزّ و جلّ، و لكن يبطل العمل بها لمكان الآية التى نسختها.

و فائدة ذلك لنا نحن، التبصّر بالمراحل التدريجية التى سار فيها التشريع و الاطّلاع على الطريقة الحكيمة المثلى التى أخذ اللّه بها عباده فيما سنّ لهم من أحكام.

ثم إن (الناسخ و المنسوخ) علم خاص من علوم القرآن، بحث و كتب فيه علماء التشريع. و لكنّا نكتفى منه هنا بالذى أوضحناه لك، و الزيادة عليه شىء يتعلق بالفقه و التشريع أكثر من تعلقه بالعربية و آدابها.

من روائع القرآن، ص: ۸۸

و من فوائد ذلك أيضا تتّبع مراحل الدعوة الإسلامية، و الاطّلاع على كيفية تكامل بنية الفكر و التصور الإسلامى، و هو مما يهم الباحثين فى تاريخ التشريع و أطواره.

و من فوائده أنه يبصّر القارئ و المفسر بمعنى الآية و يحجزه عن الخطأ فى تفسيرها. ذلك أن من قرأ سورة قُلْ يا أَيُّهَا الْكافِرُونَ و لم يعلم زمن نزولها و هل هى مكية أم مدنية، فإنه يحار فى معناها، و قد يستخرج منها أن المسلمين لا يكلفون بالجهاد فى أىّ الأحوال، و إنما عليهم أن يقولوا للآخرين: لكم دينكم ولى دينى. فإذا علم أن هذه السورة إنما نزلت فى مكة، عند ما قال بعض صناديد الشرك لرسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم: تعال يا محمد نعبد إلهك يوما و تعبد إلهنا يوما- إذا علم هذا، أدرك أن هذه السورة إنما هى علاج لتلك المرحلة ذاتها، و ليست دليلا على عدم مشروعية الجهاد الذى نزلت فيه آيات كثيرة أخرى فى المدينة.

من روائع القرآن، ص: ۸۹

المبهم و المتشابه فى القرآن

تمهيد:

اعلم أن عامّة جمل القرآن و ألفاظه لا تخرج عن أن تكون من قبيل المحكم أو المتشابه أو المبهم.

فأما المحكم، فهو ما عرف تأويله و فهم معناه و تفسيره «۱» و أما المبهم فهو ما قد يعرف ظاهره و لكن العقل يتوقف فى تصوره و تفصيله و إدراك حقيقته، و أما المتشابه فهو ما احتمل وجهين أو وجوها من المعنى دون وجود ما يعين واحدا منها تعيينا ظاهرا أو قاطعا.

و قد ذهب بعض الكاتبين إلى إدخال «المبهم» فى المتشابه و جعل القسمة ثنائية، و لكن مذهب من ميّز بين المبهم و المتشابه أدق و أوجه، إذ إنه إذا صحّ إدخال بعض أنواع المبهم- مثل فواتح السور- فى المتشابه فهنالك أنواع أخرى منه لا تدخل فيه و لا يمكن أن تعتبر منه، كتلك الأنواع التى سنتحدث عنها.

هذا، و إن عامّة آيات القرآن مما يتعلق بالأوامر و النواهى و الإرشاد و الوعد و الوعيد، من قبيل المحكم، و لذلك أطلق اللّه تعالى عليها اسم: «أمّ الكتاب» إذ قال: مِنْهُ آياتٌ مُحْكَماتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتابِ أى أساسه و جوهره الذى يقع به الخطاب و يتم به التكليف. و ما فيه من المتشابه و المبهم، قليل بالنسبة

---

(۱) لعلّ هذا أصحّ ما عرف به المحكم، و هو تفسير جابر بن عبد اللّه رضى اللّه عن و غيره من الصحابة، و انظر تفسير القرطبى: ۴- ۹.

من روائع القرآن، ص: ۹۰

للمحكم، وجد لحكمة باهرة سنذكر طرفا منها فيما بعد.

و لقد أطال الباحثون عن الحديث فى محكم القرآن و مبهمه و متشابهه، لا سيما فى القسمين الأخيرين منه، و أفرد السهيلى و ابن عساكر و القاضى بدر الدين بن جماعة تآليف فى مبهم القرآن و بيان حكمه، كما أفرد ابن أبى الأصبع تأليفا فى فواتح السور «۱»، و هو نوع من مبهم القرآن.

و نحن لن نذكر فى هذه العجالة إلّا ما لا بدّ منه لدارس اللغة العربية و آدابها. و على من أراد التوسّع فى ذلك أن يرجع إلى ما كتبه علماء الكلام و التفسير و إلى المؤلفات الخاصة بالبحث فى علوم القرآن.

المبهم: أنواعه، أمثلة له، الحكمة منه:

اشارة

مبهمات القرآن كلها، تنحصر فى نوعين، و ذلك حسب شدة الإبهام و ضعفه:

النوع الأول: الأحرف المقطعة التى افتتح بها بعض السور

، كقوله تعالى: الم، حم، كهيعص فهى ألفاظ مبهمة، بمعنى أن القارئ لا يفهم منها شيئا وراء ظاهر حروفها و ما ينطق به منها.

و لقد انقسم العلماء فى تأويل هذه الفواتح إلى مذهبين:

أحدهما: أن لهذه الفواتح علما مستورا و سرّا محجوبا استأثر اللّه بعلمه، و روى هذا القول عن أبى بكر الصديق رضى اللّه عنه، فقد قال فيما روى عنه:

فى كل كتاب سر، و سرّه فى القرآن فى أوائل السور «۲».

ثانيهما: أن لهذه الفواتح مرادا معلوما و معنى يمكن الوصول إليه بالنظر و البحث، و إلى هذا ذهب جمهور الباحثين من علماء الكلام: «العقيدة» و العربية و غيرهم. و هو المروى عن ابن عباس و على بن أبى طالب و جمع كبير من الصحابة «۳».

---

(۱) انظر الإتقان للسيوطى: ۲- ۱۰۵ و ۱۴۵.

(۲) انظر الجامع لأحكام القرآن للقرطبى: ۱- ۱۵۴، و البرهان للزركشى: ۱- ۱۷۲.

(۳) الجامع لأحكام القرآن: ۱- ۱۵۵، و انظر مشكل القرآن لابن قتيبة: ۶۳، ۶۴.

من روائع القرآن، ص: ۹۱

و لأصحاب هذا المذهب الثانى تأويلات و تحليلات مختلفة، لا نستبعد أن تكون كلها مقصودة كما قال ابن فارس و غيره «۱»، إذ هو الشأن الغالب على معظم ألفاظ القرآن: تحتمل اللفظة معانى مختلفة كلها يصلح أن يكون مرادا، إذ كلها مصداق للحقيقة التى تعبّر عنها الآية. و هذا من أبرز مظاهر الإعجاز فى القرآن، كما سيأتى بيانه إن شاء اللّه.

غير أنّا نذكر من هذه التأويلات أقربها إلى النظر و أسرعها إلى الذهن و أكثرها شيعة و أنصارا، فقد ذهب قطرب و الفرّاء و المبرّد و عامّة علماء العربية و جمع عظيم من المحققين إلى أن هذه الأحرف المقطعة إنما افتتحت بها السور، لتدل على أن القرآن ليس إلّا

كتابا ألّف من هذه الأحرف الهجائية: أ. ب.

ت. ث .. إلخ، هى تلك التى تبنون كلامكم و أشعاركم منها، و مع ذلك فلن تستطيعوا أن تؤلفوا من هذه الأحرف كلاما مثله «۲». و يدلّ على سلامة هذا التفسير و وضوحه أن الكلمة التى تلى هذه الفواتح تحمل معنى الكتاب و تقع فى معظم الأحيان موقع الخبر منها كقوله تعالى فى سورة البقرة: الم، ذلِكَ الْكِتابُ و فى سورة الأعراف: المص، كِتابٌ أُنْزِلَ إِلَيْكَ و فى سورة يونس: الر، تِلْكَ آياتُ الْكِتابِ الْحَكِيمِ و فى سورة هود: الر، كِتابٌ أُحْكِمَتْ آياتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ و فى سورة النمل: طس، تِلْكَ آياتُ الْقُرْآنِ وَ كِتابٍ مُبِينٍ.

و لا يبعد أن تكون هذه الأحرف المقطعة تحمل إلى جانب هذه الدلالة أسرارا معينة، و أن تكون قد سيقت مساق القسم بها، و أن يكون موقعها فى صدر السورة موقع التنبيه للأسماع و الأذهان إلى الكلام الذى يعقبها.

النوع الثانى: جمل و ألفاظ

، هى من حيث تركيبها و ظاهر دلالتها أمر واضح و معلوم؛ و لكن فيها إبهاما من حيث الزمن المتعلق بها، أو من حيث تعيين أسماء المشار إليهم فيها، أو من حيث نكارة و غرابة المتحدّث عنه فيها،

---

(۱) انظر البرهان: ۱- ۱۸۰.

(۲) انظر تفسير القرطبى: ۱- ۶۷، و تفسير الفخر الرازى: ۱- ۲۳۰، و الجامع لأحكام القرآن: ۱.

۱۰۵، و البرهان. ۱- ۱۸۵.

من روائع القرآن، ص: ۹۲

فهذه ثلاثة أصناف للإبهام فى نوعه الثانى، نذكر لكل صنف منها مثالا:

مثال الصنف الأول، الآيات المتعلقة بقيام الساعة، من مثل قوله تعالى:

... إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ، يَوْمَ تَرَوْنَها تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّا أَرْضَعَتْ وَ تَضَعُ كُلُّ ذاتِ حَمْلٍ حَمْلَها الآية، فالجمل التركيبية فى هذه الآية واضحة المعنى و لكن فيها إبهاما تتطلع إلى كشفه النفس، و ذلك من حيث تحديد الزمن الذى ستقوم فيه الساعة أى يوم القيامة، و لا شك أنه أمر مبهم ستره اللّه حتى عن علم الأنبياء و المقرّبين إليه.

و مثال الصنف الثانى، قوله تعالى: وَ اتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ابْنَيْ آدَمَ بِالْحَقِّ إِذْ قَرَّبا قُرْباناً فَتُقُبِّلَ مِنْ أَحَدِهِما وَ لَمْ يُتَقَبَّلْ مِنَ الْآخَرِ قالَ لَأَقْتُلَنَّكَ، قالَ إِنَّما يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ (المائدة: ۲۷).

فالجمل و الكلمات فى هذه الآية واضحة الدلالة و المعنى، و لكن فيها إبهاما من حيث تعيين المقصود بولدى آدم فمن هما ولدا آدم اللذان كان من شأنهما ما أخبر به عنهما؟ و هو إبهام كشفت عنه السنة و ما وصلنا من تفسير الصحابة رضوان اللّه عليهم، فالمقصود بولدى آدم فى الآية: قابيل، و هابيل، و هما ولدا آدم لصلبه.

و مثال الصنف الثالث، قوله تعالى: حَتَّى إِذا فُتِحَتْ يَأْجُوجُ وَ مَأْجُوجُ وَ هُمْ مِنْ كُلِّ حَدَبٍ يَنْسِلُونَ وَ اقْتَرَبَ الْوَعْدُ الْحَقُّ فَإِذا هِيَ شاخِصَةٌ أَبْصارُ الَّذِينَ كَفَرُوا، يا وَيْلَنا قَدْ كُنَّا فِي غَفْلَةٍ مِنْ هذا بَلْ كُنَّا ظالِمِينَ «۱». فمن هم يأجوج و مأجوج و متى يحين وقت ظهورهم و ما هو شأنهم و عملهم؟ ذلك أيضا من المبهم الذى لم تكشف عنه الآية بأكثر من الإخبار عنه و أنه من الغيب الذى سيقع فى حينه المقدّر له فى علم اللّه.

و مثاله أيضا قوله تعالى: وَ إِذا وَقَعَ الْقَوْلُ عَلَيْهِمْ أَخْرَجْنا لَهُمْ دَابَّةً مِنَ الْأَرْضِ تُكَلِّمُهُمْ أَنَّ النَّاسَ كانُوا بِآياتِنا لا يُوقِنُونَ (النمل: ۸۲). فما

هى هذه الدابة التى ستخرج إلى الناس تكلمهم و تحدّثهم؟ لا تزيد الآية على

---

(۱) الأنبياء: ۹۶ و ۹۷.

من روائع القرآن، ص: ۹۳

الإخبار بهذا الغيب الذى سيقع، و تفصيل الأمر فيه من المبهم الذى لا يكشف عنه إلا الواقع الذى يأتى فى حينه.

فهذه أمثلة لأصناف المبهم الذى وقع فى القرآن، و إذا تأملت فيها علمت أن منها ما أمكن تفسيره و كشفه عن طريق الوقوف على تفسير السنّة له، و منها ما ظل مبهما مكنونا فى غيب اللّه عزّ و جلّ، لا يكشفه إلا الواقع الذى أخبرت عنه الآيات.

بقى أن تعلم الحكمة من وجود مثل هذه المبهمات فى كتاب اللّه عزّ و جلّ.

فأما الإبهام المتعلق بفواتح بعض السور، فقد علمت مما ذكرناه، أن مذهب جمهور العلماء و الباحثين أن لهذه الفواتح معنى يمكن الوصول إليه بالنظر و البحث، فالإبهام فيها إنما هو بمعنى الغموض و الخفاء اللذين يمكن إزالتهما و الوصول إلى ما وراءهما، و ليس بمعنى انغلاق اللفظ على المعنى و استحالة وصول القارئ أو المتدبر إلى المقصود.

غير أنك قد تسأل: ففيم هذا الغموض و الخفاء و إنما هو كتاب أنزل للقراءة و الفهم؟.

فالجواب: أن القرآن- كما يقول ابن قتيبة- إنما نزل بألفاظ العرب و معانيها و مذاهبها فى الإيجاز و الاختصار، و الإطالة، و التوكيد، و الإشارة إلى الشىء، و إغماض بعض المعانى حتى لا يظهر عليه إلا اللقن (سريع الفهم) و إظهار بعضها و ضرب الأمثال لما خفى.

و لو كان القرآن كله ظاهرا مكشوفا حتى يستوى فى معرفته العالم و الجاهل لبطل التفاضل بين الناس و سقطت المحنة و ماتت الخواطر «۱».

و لا شك إن من فوائد ما تلبست به هذه الفواتح من الإبهام، ما تراه من الأبحاث المختلفة الجليلة، التى أقامها العلماء على هذه الفواتح سواء منها ما

---

(۱) انظر تأويل مشكل القرآن لابن قتيبة: ۶۲.

من روائع القرآن، ص: ۹۴

يتعلق بطبائع هذه الحروف و وجه اتّساقها مع بعضها، و ما يتعلق بالعلوم المستخرجة منها و الدلالات المشيرة إليها، حتى غدت هذه الفواتح مصدر علم قائم برأسه من علوم القرآن. و إنما اندفع العلماء الباحثون إلى استخراج كل ذلك و البحث فيه بسبب ما يكتنفها من الغرابة و الغموض الحاملين على النظر و الفكر.

و إنما يأتى الكشف و الإبداع من وراء الحاجة و ضيقها. و إنما يقع الخمول و البلادة من الشعور بالاستغناء و الكفاية.

و الإعجاز القرآنى فى جملته، قائم على البحث و النظر فى أمور منها الخفى و الجلىّ، و منها الدقيق و الأدق، و اللطيف و الألطف، و إلا- فكيف تنبع المعانى للجملة الواحدة من وراء بعضها، و كيف تأتى الدهشة لها إذا كان جميعها من الظهور بحيث تنكشف لكل قارئ و ناظر مهما تفاوتت درجة العلم و رتبة الفهم؟

و اعلم أننا إنما نصدر فى هذا الذى نقول، عن المذهب الذى تمسك به جمهور الباحثين من أن ما قد يوجد فى القرآن من المبهم أو المتشابه يمكن للراسخين فى العلم أن يفهموا منه فهما صحيحا و يقعوا منه على علم، حاشا المغيبات التى أشار القرآن إليها أو تحدّث عن طرف منها و أبهم منها طرفا آخر.

و نقول فى هذا ما قاله ابن قتيبة فى كتابه، تأويل مشكل القرآن:

[و لسنا ممّن يزعم أن المتشابه فى القرآن لا يعلمه الراسخون فى العلم.

و هـذا غلـط من متـأوليه على اللغـة و المعنى. و لم ينزل اللّه شـيئا من القرآن إلاـ لينفـع به عبـاده و يـدلّ به على معنى أراده. فلـو كـان المتشابه لا يعلمه غيره، للزمنا للطاعن مقال و تعلق علينا بعلّة.

و هـل يجوز لأحـد أن يقول: رسول اللّه لم يكن يعرف المتشـابه و إذا جاز أن يعرفه مع قول اللّه تعالى وَ ما يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ جاز أن يعرفه الربانيون من الصحابة، فقد علم عليّا التفسير و دعا لابن عباس فقال: اللهمّ علّمه التأويل و فقهه فى الدين].

من روائع القرآن، ص: ۹۵

ثم قال ابن قتيبة:

[و بعد فإنّا لم نر المفسـرين توقفوا عن شـىء من القرآن فقالوا: هذا لا يعلمه إلا اللّه، بل أمرّوه كله على التفسـير، حتى فسـروا الحروف المقطعة فى أوائل السور مثل: الر، و حم، و طه، و أشـباه ذلك. فإن قال قائل: كيف يجوز فى اللغة أن يعلمه الراسـخون فى العلم و اللّه تعالى يقول: وَ ما يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ، وَ الرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ و أنت إذا أشركت الراسخين فى العم انقطعوا عن يَقُولُونَ و ليس هاهنا واو نسق توجب للراسخين فعلين، و هذا مذهب كثير من النحويين فى هذه الآية، و من جهته غلط قوم من المتأولين- قلنا له: إن يَقُولُونَ هاهنا بمعنى الحال، كأنه قال: و الراسخون فى العلم قائلين: آمنّا به. و مثله فى الكلام: لا يأتيك إلا عبد اللّه و زيد يقول: أنا مسرور بزيارتك، يريد لا يأتيك إلا عبد اللّه و زيد قائلا أنا مسرور بزيارتك] «۱».

و أما الإبهام فى النوع الثانى: و هو الجمل المفهومة من حيث ظاهر دلالتها و تركيبها، و لكن فيها إبهاما من حيث تعيين الزمن أو تعيين الأسماء أو نكارة المتحدّث عنه و غرابته- فمردّ ذلك إلى أحد أسباب ثلاثة:

السـبب الأول: عدم تعلق أى غرض بتفصـيله و الكشف عنه كالذى يكون فى مساق ذكر بعض القصـص و الأحداث، من إبهام أسـماء الأشـخاص و عـدم تعيين الأمكنة أو الأزمنة المتعلقة بها. فهذه القصـص و الأحداث إنما تساق للاتعاظ بها و أخذ العبرة منها. و تحقيق ذلـك يتوقف على عرض الجـانب الـذى يحمل معنى العظـة و العبرة، دون غيره، مما يشـتت الـذهن عن المطلوب و يبعـد المتأمل عن القصـد. و لـذلك لم يتعلق الغرض القرآنى بالكشف عن اسم ولـدى آدم و هويتهما فى الآيـة المذكورة، و من أجل ذلك أيضا يقوم أسـلوب القصة فى القرآن على توجيه القارئ إلى مكان العبرة منها و تحويل ذهنه عن اللحاق بجزئياتها و هوامشـها التاريخية المجردة. و سنفصّل القول فى ذلك إن شاء اللّه عند الحديث عن القصة فى القرآن.

---

(۱) تأويل مشكل القرآن: ۷۳ و ۷۴.

من روائع القرآن، ص: ۹۶

السـبب الثـانى: أن يكون هـذا الأـمر المبهم من الغيوب التى اسـتأثر اللّه تعالى بعلم أزمنتها و آجالها. و أنت تعلم أن حكمـة اللّه تعالى اقتضت أن يخفى عن عباده- لمصـلحة عظيمـة باهرة- كثيرا من الحقائق المتعلقة بالغيب الذى لم يقع بعد. و أهمها أجل الإنسان الذى تنتهى عنده حياته و أجل الدنيا الذى تقوم عنده الساعة، و ما سيجنيه من ربح أو خسران و سعادة أو شقاء.

فكـل الآيـات التى تتعلق بمثـل هـذه الأـمور، يظـل فيهـا هـذا الجانب مبهما، لأن الغرض الـدينى قـد تعلق ببقائه كـذلك، و لأن حقيقة العبوديـة للّه عزّ و جلّ تقتضـى ذلك. فمن هـذا القبيل قوله تعالى: إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَـيْءٌ عَظِيمٌ، و قوله تعالى: فَإِذا نُفِخَ فِي الصُّورِ فَلا أَنْسابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَ لا يَتَساءَلُونَ.

و هكذا، فالحقيقة الدينية فى مجموعها قائمة على هذا النوع من الإبهام:

إبهـام الأـمور الغيبيـة من حيث عـدم كشف أزمنتهـا و تعيين كيفيتها و آجالها. و ذلك ليتلبس الإنسان بحقيقـة «الإيمان بالغيب» الـذى تعبده اللّه عزّ و جلّ به.

السـبب الثـالث: كون الأـمر المتحـدّث عنه لم يقع بعـد. و من شأن الخبر المتحـدّث عنه مما لم يقع بعـد، و لم يقع له نظير أو مثيل فيما

مضى، أن يظل جانب كبير فيه مبهما، لا يكشفه إلا الواقع و الحقيقة. و قد أخبرنا اللّه عزّ و جلّ عن أمور غريبة ستقع فى المستقبل، و هى مما لم يقع له نظير فيما مضى، كالإخبار عن دابة الأرض و يأجوج و مأجوج فى الآيات السابق ذكرها، فمما لا ريب فيه أن الصورة الجليّة لمثل هذه الأمور فى الذهن لا تتوفر بمجرد الوصف و الإخبار، و إنما تأتى لدى المشاهدة و العيان. فالإبهام فى هذه الحالة أمر طبيعى لا إشكال فيه، اقتضاه عدم وقوع المخبر عنه بعد.

المتشابه: المقصود به، حكمه

و إنما نقصد بالمتشابه تلك الجمل التى تنازعها أكثر من معنى واحد، إذ كان اللفظ أو التركيب صالحا للدلالة على كلّ منها دون أن يكون صالحا للدلالة عليها كلها بآن واحد. فيحار المفسّر فى المعنى المراد منها، لأن كلها شبيه بها

من روائع القرآن، ص: ۹۷

و قريب. و لقد قيل بعد ذلك لكل ما غمض و دقّ: متشابه، و إن لم تقع الحيرة فيه من جهة شبهه بمعنيين. و لكن الطريقة التى سلكناها من التفريق بين المبهم و المتشابه تقتضينا أن نقصر اسم «المتشابه» على معناه الأساسى الأول فى هذا المقام.

و الآيات المتشابهة بالمعنى الذى ذكرناه، إنما وقع فيها ذلك من جهة المجاز و استعماله. فبسببه قد يقع الغلط و يكثر التأويل و تختلف المذاهب و الأقاويل.

غير أنه ينقسم إلى نوعين: فأما النوع الأول منه فالخطب فيه يسير و أمر التأويل فيه واضح، و وجه المجاز فيه غير خفى.

و هذا النوع ينطبق على عامّة الآيات التى تتجلى فيها البلاغة القرآنية عن طريق التصوير و تجسيم المجردات من المعانى. فلا يكاد يقع فى أمرها اشتباه إلا بالنسبة لمن كانت بضاعته فى العربية ناقصة و ضعيفة.

مثال ذلك قوله تعالى: سَنَفْرُغُ لَكُمْ أَيُّهَ الثَّقَلانِ «۱» و قوله: يَوْمَ نَقُولُ لِجَهَنَّمَ هَلِ امْتَلَأْتِ وَ تَقُولُ هَلْ مِنْ مَزِيدٍ «۲» و قوله: يَوْمَ يُكْشَفُ عَنْ ساقٍ وَ يُدْعَوْنَ إِلَى السُّجُودِ فَلا يَسْتَطِيعُونَ «۳» و قوله عن بعض الكافرين الذين أهلكوا: فَما بَكَتْ عَلَيْهِمُ السَّماءُ وَ الْأَرْضُ وَ ما كانُوا مُنْظَرِينَ «۴».

فلا يشك العربى أن المقصود بالآية الأولى: سنقصد إليكم بعد طول الترك و الإهمال، و أن المقصود بالآية الثانية: الكناية عن مدى سعتها، مع عدم أى مانع من أن يكون الأمر على الحقيقة فيسأل اللّه النار و ينطقها بالجواب، تهويلا للأمر و كشفا عن جليل قدرته و تنبيها إلى عدم وجود أى قيمة حقيقية لمعنى الأسباب و المسببات الكونية؛ و أن المقصود بالآية الثالثة: بيان شدة الأمر على الناس إذ ذاك، و أن المقصود بالآية الرابعة: أنه لم يبك عليهم باك و لم يجزع لفقدهم جازع.

---

(۱) الرحمن: ۳۱.

(۲) ق: ۳۰.

(۳) القلم: ۴۲.

(۴) الدخان: ۲۹.

من روائع القرآن، ص: ۹۸

و أما النوع الثانى فهو الذى وقع بصدده الكلام و البحث و اختلفت حوله آراء العلماء فيما يبدو. و ينطبق هذا النوع على بعض آيات الصفات الإلهية، من مثل قوله تعالى: الرَّحْمنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوى «۱» و قوله: إِنَّ الَّذِينَ يُبايِعُونَكَ إِنَّما يُبايِعُونَ اللَّهَ، يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ «۲» و قوله: وَ لِتُصْنَعَ عَلى عَيْنِى «۳» و محل الشبهة فى مثل هذه الآيات أن ظاهرها يثبت للّه تعالى جوارح و مكانا، و هو مخالف لصريح قوله تعالى: لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ «۴».

و موقف العلماء و المفسرين من مثل هذه الآيات ينبثق عن سلوك مرحلتين اثنتين:

الأولى منهما يمثل منطلقا متفقا عليه لم يقع بينهم فى ذلك خلاف، و هو تفسير المتشابه على ضوء المحكم من الآيات القرآنية. و قوله تعالى: لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ و قوله: وَ لَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُواً أَحَدٌ من المحكم الذى لا شبهة فى معناه. فاتفقوا على أن اللّه تعالى لا يشبهه شىء من المخلوقات و صفاتهم و أحوالهم.

الثانية منهما محل خلاف فى الظاهر، و هو تأويل آيات الصفات إلى المجاز أو تفسيرها على الحقيقة. فالسلف الأول من العلماء و المفسرين آثروا إبقاء اللفظ على الحقيقة مع الإيمان بأن اللّه تعالى لا مثيل له، و بأنه منزّه عن صفات النقص، و وكلوا تحليل الأمر فى ذلك و شرحه إلى اللّه عزّ و جلّ.

ذكر السيوطى عن أمّ سلمة رضى اللّه عنها أنها سئلت عن قوله تعالى:

الرَّحْمنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوى فقالت: الكيف غير معقول، و الاستواء غير مجهول، و الإقرار به من الإيمان و الجحود به كفر. و سئل مالك رضى اللّه عنه عن هذه الآية فقال: الكيف غير معقول و الاستواء غير مجهول، و الإيمان به واجب و السؤال عنه بدعة.

---

(۱) طه: ۵.

(۲) الفتح: ۱۰.

(۳) طه: ۳۹.

(۴) الشورى: ۱۱.

من روائع القرآن، ص: ۹۹

و أما الخلف منهم، و هم الذين جاءوا فى عصر ازدهار التدوين و العلوم، و اتساع حلقات البحث و المناقشات العلمية، فقد آثروا أن يحملوا ألفاظ هذه الآيات على محمل يليق بذات اللّه تعالى مع التزام الدلالة اللغوية و الخضوع لقواعد الأخذ بالحقيقة و المجاز و عدم الخروج عليها أو التكلّف فى معالجتها؛ ففسروا الاستواء بتسلط القوة و السلطان، و فسروا اليد بالقدرة، و العين بالعناية و الرعاية. و هو تفسير تدل عليه طبيعة الاستعمال اللغوى و جملة الأسلوب القرآنى.

و إنما قلنا إن الخلاف فى الأمر الثانى خلاف فى الظاهر فقط، لأن المآل فيما ذهب إليه كلّ من السلف و الخلف واحد، ما دام الجزء الأول من التفسير محل اتفاق و هو أنه عزّ و جلّ لا يشبهه شىء من مخلوقاته و أنه منزّه عن جميع صفات النقص. و الخلاف شكلى، ينحصر فى طريقة تفسير هذه الألفاظ التى تدور بين تركها على حقيقتها مع تنزيه اللّه تعالى عن الكيف و النقص، و تأويلها على المجاز لتتفق لغويا مع تنزيه اللّه تعالى عن الكيف و النقص.

و لقد شنّع ابن تيمية رحمه اللّه كثيرا على طريقة الخلف هذه، و عدّها جانحة جنوحا حقيقيا عن مذهب السلف. و أنكر على سائر علماء الخلف (و هم الذين جاءوا بعد القرن الثالث) استعمال هذه الألفاظ القرآنية فى غير حقيقتها، لا سيما المتعلقة بذات اللّه تعالى و صفاته.

و لكنّا نجزم بأن الخطب فى ذلك يسير، و الخلاف أهون من أن يكون جنوحا لهؤلاء الأعلام، عن مبادئ العقيدة الإسلامية و أصول التفسير.

و العجيب أن ابن تيمية بعد كل هذا التشنيع يتأول (الوجه) فى قوله تعالى:

كُلُّ شَيْءٍ هالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ بالجهة، و يقول: إن معنى الآية كل شىء هالك إلا ما أريد به جهة اللّه تعالى! ... «۱» فلما ذا أخرج الكلمة من حقيقتها إلى المجاز؟ و لما ذا يحرّم على علماء الخلف ما يراه مباحا له؟ وليته إذ تأول على خلاف مبدئه و مذهبه، فسّرها بالذات كما فعل جمهور المفسرين بل أصرّ على أن يتأولها بالجهة و المكان!! ...

(۱) مجموع فتاوى ابن تيمية: ۲/ ۴۳۷ و ما بعدها.

من روائع القرآن، ص: ۱۰۰

هـذا و ليس لنا شأن، بتلك الطوائف التى ضـلّت و شـذّت، ممّن يقال عنهم المعطلـة و المجسـمة، إذ لا يقام لهم أىّ حساب فيما يتعلق بكتاب اللّه تعالى و تفسيره، و ليسوا من كتاب اللّه تعالى: محكمه أو متشابهه فى شـىء، و إنما هم تصوروا الـذات الإلهية كما صوّرته أخيلتهم المجردة، ثم استنهضوا آيات من كتاب اللّه تعالى إلى تلك الأخيلة لتصدقها و تؤمن لهم بها، و أنّى لآيات اللّه الباهرة أن تدلّ إلا على الحق الواضح المنير. فعادوا يعكفون على أصنام لهم أقاموها فى رءوسهم بدلا من أن ينصبوها أمام أعينهم.

و يكفى فى هذا المقام هذا القدر من الحديث عن مبهم القرآن و متشابهه و اللّه أعلم.

من روائع القرآن، ص: ۱۰۱

القراءات و القرّاء لمحة دراسيّة سريعة فى ذلك

منشأ القراءات:

اعلم أن «القرآن» و «القراءات» حقيقتان متغايرتان، كما قال الزركشـى فى كتابه البرهان «۱». أما القرآن فهو هذا اللفظ الموحى به إلى محمد صـلّى اللّه عليه و سـلّم للبيان و الإعجاز، و أما القراءات فهى ما قد يعتور اللفظ المذكور من أوجه النطق و الأداء كالمدّ و القصر و التخفيف و التثقيل و غيرها مما قرأ به الرسول صلّى اللّه عليه و سلّم و نقل عنه بالسند الصحيح المتواتر.

و بيـان ذلـك، أنه لمـا كتب عثمـان المصـاحف و وجّههـا إلى الأمصـار و حملهم على مـا فيها، و أمرهم بترك ما خالفها من الأحرف الأخرى التى لا تتفق معها- ترك الناس من قراءاتهم التى كانوا يقرءون بها كل ما خلاف خط المصـحف، و اسـتمروا يقرءون بسائرها مما لا يخالف الخط و ثبتت روايته بالسند المتواتر عن رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم.

فهذه الأوجه التى اسـتمر الصـحابة و التابعون على القراءة بها، بهذا الضابط الذى ذكرنا، هو الجزء الذى بقى من الأحرف السبعة، و هو الذى يسمى بالقراءات «۲».

(۱) البرهان: ۱- ۳۱۸.

(۲) انظر الإبانة لمكّى بن طالب. ص ۱۸ و ارجع إلى ص ۵۹ من هذا الكتاب.

من روائع القرآن، ص: ۱۰۲

الحكمة من مشروعيتها:

هى تسهيل و اتساع فى تلاوة القرآن، اقتضتهما حكمة باهرة أطال فى بيانها علماء هذا الشأن، و مردّ ذلك إلى أمرين اثنين:

الأول: التسهيل على القبائل العربية المختلفة أن تجد الوسيلة إلى قراءة القرآن قراءة صحيحة كما أنزل دون أىّ تحريف أو تأثم.

الثـانى: أن تقف عامّـة قبائـل العرب و فئـاتهم على المعجزة القرآنيـة من الوجوه المختلفـة الـتى يعرفونهـا و يمـارسون لغتهم بهـا، و أن ينتصب معنى التحـدى أمـامهم من هـذه الوجوه كلهـا، فعلى أىّ الأشـكال و بأىّ وجوه النطق و الأداء أمكنهم أن ينهضوا لمعارضـته و الإتيان بمثله فلينهضوا و يقدموا ... و بذلك يكون القرآن حجة على أخلاط العرب و فئاتهم كلهم، و يكون معنى التحدّى به قد لزمهم جميعهم.

ما معنى تحديدها بالسبعة و متى حددت بهذا العدد:

و لم تكن وجوه القراءات التى يقرأ بها النبى صلّى اللّه عليه و سلّم، و يتلقاها منه أصحابه، محصورة فى سبع أو عشر قراءات، بل ربما بلغت أوجه القراءات فى مجموعها أكثر من ذلك. و ما كان يخطر فى بال أحد من الصحابة أن يحصر هذه الوجوه و يجمعها ليحصيها و يقرأ بها كلها و لتكون بذلك فنّا من فنون القرآن و علما مستقلا من علومه. و لكن الصحابة- و خاصة من اشتهروا بالقراءة منهم- كانوا يتلقون القرآن من فم النبى صلّى اللّه عليه و سلّم بالأوجه و الطرق التى يؤدى بها، فيأخذون عنه ذلك، ثم يقرأ كلّ منهم بما تيسر له أو اختاره من هذه الوجوه، كما دلّت على ذلك الأحاديث الثابتة الصحيحة.

و قد اشتهر بالقراءة و الأقراء من الصحابة عدد كبير، فى مقدمتهم:

عثمان بن عفان، و على بن أبى طالب، و أبىّ بن كعب، و زيد بن ثابت، و عبد اللّه بن مسعود، و أبو الدرداء، و أبو موسى الأشعرى، فعنهم أخذ كثير من الصحابة و التابعين فى الأمصار، و قد اشتهر كل واحد منهم بوجه من أوجه القراءة اختاره و لازمه و أقرأه الناس، فكان يقال: هذه قراءة عبد اللّه، و هذه

قراءة أبىّ، و هذه قراءة زيد ... إلخ، و الكلّ موقن أن سائر الوجوه الأخرى مما! يأخذ نفسه به ثابت و منقول عن رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم «۱».

و قد ظلّ الأمر هكذا إلى أواسط عهد التابعين: يتلقى الناس القرآن بطريقى الكتابة و المشافهة معا، و يتلقون من الصحابة الأوجه المختلفة من القراءات الثابتة عن رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم، فيقرأ كلّ بالقراءة التى يريدها مما تلقاه بالطريق الثابت الصحيح.

و فى أواخر عهد التابعين، انتبه كثير من علماء القرآن إلى ما أخذ يتسلل إلى الناس من اضطراب السلائق و مظاهر العجمة و بوادر اللحن، كما أوضحنا فيما سبق، فتجرد قوم منهم و نهضوا بأمر القراءات يضبطونها و يحصرونها و يعنون بأسانيدها، كما فعلوا مثل ذلك بالحديث و علم التفسير.

و قد اشتهر ممّن نهض بذلك أئمة سبعة حازوا ثقة العلماء و القرّاء فى مختلف الأمصار، و إليهم تنسب القراءات السبع اليوم.

و هم: أبو عمرو بن العلاء (ت: ۱۵۴) و عبد اللّه بن كثير (ت: ۱۲۰) و عبد اللّه بن عامر اليحصبى (ت: ۱۱۸) و عاصم بن بهدلة الأسدى (ت: ۱۲۸) و حمزة بن حبيب الزيات (ت: ۱۵۶) و نافع بن نعيم (ت: ۱۶۹) و على بن حمزة الكسائى (ت: ۱۸۹).

و ليس انحصار الأئمة الذين اعتمدوا إذ ذاك فى ضبط القراءات فى السبع، دليلا على أن القراءات المتعددة فيما تعددت القراءة فيه من ألفاظ القرآن- لا تزيد على سبع قراءات. بل القراءات و الأوجه التى قرأ بها النبى عليه الصلاة و السلام و تابعه فيها الصحابة ليست محصورة فى سبع و لا فى عشر كما قد علمت.

و لكن سبب اشتهار هؤلاء السبعة دون غيرهم- كما يقول أبو محمد مكّى و غيره- أن عثمان رضى اللّه عنه، كتب المصاحف و وجّهها إلى الأمصار، و كان

---

(۱) انظر الإتقان للسيوطى: ۱- ۸۳، و البرهان للزركشى: ۱! ۳۲۰.

القرّاء فى العصر الثانى و الثالث كثيرى العدد، فأراد الناس ان يقتصروا فى العصر الرابع على ما وافق المصحف، فنظروا إلى إمام مشهور بالفقه و الأمانة فى النقل و حسن الدين و كمال العلم، قد طال عمره و اشتهر أمره و أجمع أهل مصر على عدالته، فأفردوا من كل مصر وجّه إليه عثمان مصحفا، إماما هذه صفة قراءته على مصحف ذلك المصر، فكان أبو عمرو من أهل البصرة، و حمزة و عاصم من أهل

الكوفة و سوادها، و الكسائى من أهل العراق، و ابن كثير من أهل مكة، و ابن عامر من أهل الشام، و نافع من أهل المدينة، كلهم ممّن اشتهرت إمامتهم و طال عمرهم فى الإقراء و ارتحل الناس إليهم من البلدان «۱».

الضابط العلمى لاعتماد القراءات:

و إنما اعتمد العلماء قراءات هؤلاء الأئمة السبعة، بناء على ضابط علمى كان هو الأساس فى قبولهم لها و اعتمادهم إيّاها، من أين جاءت و إلى من نسبت.

و الضابط هو أن كل قراءة صحّ سندها إلى رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم، و وافقت خط المصحف العثمانى و لو احتمالا، و وافقت العربية بوجه من الوجوه المعتبرة، فتلك هى القراءة الصحيحة التى لا يجوز ردّها و لا يحلّ إنكارها سواء نقلت عن الأئمة السبعة أو غيرهم. و ما لم تجتمع فيه هذه الشروط الثلاثة فهى شاذة مردودة لا يقرأ بها أيّا كان الإمام الذى نقلت عنه.

و المقصود بموافقة القراءة لخط المصحف العثمانى و لو احتمالا، أن تكون أصول الكتابة و الرسم التى كتب بها المصحف العثمانى مما يحتمل القراءة و يقبلها بوجه من الوجوه و لو تقديرا، كقوله تعالى: مالِكِ يَوْمِ الدِّينِ ففى مالِكِ قراءتان: القصر «ملك» و المدّ «مالك» و رسم المصحف العثمانى (ملك) موافق لقراءة القصر تحقيقا، و موافق لقراءة المدّ تقديرا، إذ المدود و حذفها مما تتحمله أصول الرسم. و مثل ذلك يخادعون و يخدعون فى قوله تعالى:

يخادعون اللّه و ما يخادعون إلا أنفسهم و ما يشعرون فقد قرئ بالمدّ

---

(۱) البرهان: ۱- ۸۲۹ و ۳۳۰.

و القصر. و مثل ذلك السين و الصاد من الصِّراطَ فقد قرئ بهما، و كتابة المصحف بالصاد إلا أن الرسم يحتمله: إذ السين و الصاد و ما بينهما من الإشمام خاضع لرسم واحد تحقيقا أو تقديرا ذلك لأن هذه الأشكال من النطق بالحرف من فصيلة واحدة «۱».

و بناء على تمسك العلماء جميعا بهذا الضابط فى قبول القراءة أو رفضها اعتمد العلماء ثلاثة آخرين من أئمة القراءة صحّت قراءاتهم و خضعت لهذا الضابط الذى ذكرناه. و هم: يزيد بن القعقاع أبو جعفر المدنى (ت: ۱۳۲) و يعقوب بن إسحاق الحضرمى (ت: ۱۸۵) و خلف بن هشام (ت: ۲۲۹).

فهذه عشر قراءات جميعها صحيح ثابت عن رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم بنقل العدول الثقات.

و لا يذهبن بك الوهم إلى أن كل إمام من هؤلاء الأئمة العشرة إنما كان يؤمن بقراءة نفسه فقط، و يدعو إليها من دون القراءات الأخرى بل كان كلّ منهم يعلم ثبوت سائر القراءات الأخرى كما يعلم ثبوت قراءته و لكنه كان قد أخذ بها وحدها و عكف على خدمتها و تخريج المزيد من أسانيدها.

الفرق بين القراءات المتواترة و الشاذة:

ثم اعلم أن أقل ما تمتاز به هذه القراءات العشر عن القراءات الشاذة التى تأتى من ورائها، هو التواتر و الشهرة. فهذه القراءات السبع ثم الثلاث الأخرى توفر فيها إلى جانب الضابط الذى ذكرنا، التواتر أو الشهرة، و هو أقل ما تفقده القراءات الأخرى.

هذا و لا بدّ أن يكون أصل القراءة الثابتة متواترا فى السند عن رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم، فأما كيفيتها و مقاييسها التطبيقية، فقد تقصر عن درجة التواتر، و إن توفرت لها الصحة و أسبابها. و ذلك كاختلاف القراءات فى تقديرات بعض

(۱) الإتقان: ۱- ۷۵، و غيث النفع للصفاقسى: ۷.

من روائع القرآن، ص: ۱۰۶

المدود، فمنهم من أطالها و منهم من قصرها و منهم من بالغ فى القصر «۱».

و على كلّ فقد قلنا فى صدر هذا البحث إن هنا لك فرقا بين القرآن و القراءات و أوضحنا الفرق إذ ذاك.

فأما القرآن فكله متواتر منقول بواسطة سلسلة متصلة من الجموع التى يؤمن تواطؤها على الكذب، عن طريق كلّ من الكتابة و المشافهة.

و أما القراءات، فما كان منها منضبطا بالشروط الثلاثة التى ذكرناها فهو ثابت ثبوتا قاطعا يقرأ على أنه قرآن، و هو بين أن يكون متواترا و مشهورا، بالإضافة إلى صحته من حيث السند و الرواية. و ينطبق بذلك على القراءات العشر.

حكم القراءات الشاذة:

و ما لم ينضبط من ذلك بالشروط المذكورة، فهو مردود شاذ مهما كان مصدر نقله و مهما كانت كيفية سنده.

فلا يقرأ القرآن بشىء من ذلك، فى صلاة أو نسك أو تلاوة.

أما العمل بمضمون هذه القراءات الشاذة، فينظر فى ذلك إلى سندها فإن توفّر فيه ما يجب توفره فى الحديث الآحاد من شروط الصحة، اعتبر بمثابة الحديث و جاز أخذ الأحكام منه.

و سبب ذلك أن مصدر كثير من القراءات الشاذة أن بعض الصحابة كانوا يهمّشون مصاحفهم الخاصة، بكلمات تفسيرية لبعض الألفاظ الغامضة إذ كانوا لا يخشون من التباسها بالقرآن بسبب أن عامّتهم كانوا يحفظون القرآن و يضبطونه ضبطا تامّا، من ذلك تقييد عبد اللّه بن مسعود آية فَصِيامُ ثَلاثَةِ أَيَّامٍ بكلمة متتابعات، و تقييد عبد اللّه بن عباس آية لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُناحٌ أَنْ تَبْتَغُوا فَضْلًا مِنْ رَبِّكُمْ بكلمة: فى موسم الحج «۲».

(۱) البرهان: ۱- ۳۱۹، و الإتقان: ۱- ۷۸.

(۲) انظر الإتقان: ۱- ۷۷.

من روائع القرآن، ص: ۱۰۷

ثم جاء من بعدهم من نظر فى مصاحفهم هذه، و رأى هذه الكلمات التفسيرية فظنها من القراءات الثابتة عن رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم، فأخذ يرويها على أساس ذلك و يتخذ من هذه المصاحف شاهدا له. و إنما هى ألفاظ تفسيرية كما قطع بذلك ابن الأنبارى و غيره، أثبتوها مخافة النسيان.

فمثل هذه الألفاظ، و إن كانت ساقطة من حيث اعتبارها قراءة صحيحة، ثابتة من حيث هى تفسير لبعض آى القرآن، فهى تقبل من هذا الوجه، كما يقبل حديث مروى عن ابن عباس بسند صحيح فى تفسير آية فى القرآن أو استنباط حكم من أحكامه.

من روائع القرآن، ص: ۱۰۹

القسم الثّانى منهجه و أسلوبه

اشارة

من روائع القرآن، ص: ۱۱۱

أسلوب القرآن دراسة عامة لخصائصه

اشارة

سنلخص فى هذا الفصل معظم ما سنأتى على تفصيل البحث فيه إن شاء اللّه. إذ الحديث عن إعجاز القرآن و تصويره و فن القصة فيه و طرائقه التربوية و غير ذلك من فنون هذا الكتاب العظيم، إنما هو فى الحقيقة بسط لمنهجه و خصائص أسلوبه.

غير أن علينا- قبل الخوض فى كل جانب من هذه الجوانب على انفراد- أن نتصور الأسلوب القرآنى فى جملته، و أن نستعرض هذا الأسلوب استعراضا سريعا يجلّى فى أذهاننا روعته و حدود الفرق بينه و بين أىّ نظم أو كتاب آخر، حتى إذا وقفنا على ذلك، عدنا إليه بالتفصيل و شرح كل جانب منه على حدة.

الخاصّة الأولى (جريانه على نسق بديع خارج عن المألوف):

و أول ما يطالعك من مظاهر أسلوب القرآن لدى النظر فيه، أنه يجرى على نسق بديع خارج عن المعروف من نظام جميع كلام العرب، و يقوم فى طريقته التعبيرية على أساس مباين للمألوف من طرائقهم، و له أسلوب خاص به لا تجد منه عند أىّ فن من الفنون العربية المعهودة.

ذلك أن جميع الفنون التعبيرية عند العرب لا تعدو أن تكون نظما أو نثرا؛ و للنظم أعاريض و أوزان محددة معروفة، و للنثر طرائق من السجع و الإرسال و غيرهما مبيّنة و معروفة. و القرآن ليس على أعاريض الشعر فى رجزه و لا فى قصيده، و ليس على سنن النثر المعروف فى إرساله و لا فى تسجيعه، إذ هو لا يلتزم الموازين المعهودة فى هذا و لا ذاك، و لكنك مع ذلك تقرأ بضع آيات

من روائع القرآن، ص: ۱۱۲

منه فتشعر بإيقاع موزون من تتابع آياته، بل يسرى فى صياغته و تآلف كلماته، و تجد فى تركيب حروفه تناسقا عجيبا، بين الرخو منها و الشديد، و المجهور و المهموس، و الممدود و المقطوع، بحيث يؤلف اجتماعها إلى بعضها لحنا مطربا يفرض نفسه على صوت القارئ العربى كيفما قرأ، إذا كانت قراءته صحيحة.

و مهما طفت بنظرك فى جوانب كتاب اللّه تعالى و مختلف سوره، وجدته مطبوعا على هذا النسق العجيب.

غير أنه إذا كان لا بدّ من مثال نعرضه لاستجلاء هذه الحقيقة فيه، فلنعرض لك تلك الآيات التى تلاها النبى صلّى اللّه عليه و سلّم على عتبة بن أبى ربيعة، يوم جاءه رسولا من قبل قريش يعرضون عليه الملك و المال و الزعامة على أن يتخلى عن دعوتهم إلى توحيد اللّه:

بسم اللّه الرحمن الرحيم. حم تَنْزِيلٌ مِنَ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ. كِتابٌ فُصِّلَتْ آياتُهُ قُرْآناً عَرَبِيًّا لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ. بَشِيراً وَ نَذِيراً فَأَعْرَضَ أَكْثَرُهُمْ فَهُمْ لا يَسْمَعُونَ. وَ قالُوا قُلُوبُنا فِي أَكِنَّةٍ مِمَّا تَدْعُونا إِلَيْهِ وَ فِي آذانِنا وَقْرٌ وَ مِنْ بَيْنِنا وَ بَيْنِكَ حِجابٌ فَاعْمَلْ إِنَّنا عامِلُونَ. قُلْ إِنَّما أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُوحى إِلَيَّ أَنَّما إِلهُكُمْ إِلهٌ واحِدٌ فَاسْتَقِيمُوا إِلَيْهِ وَ اسْتَغْفِرُوهُ وَ وَيْلٌ لِلْمُشْرِكِينَ.

فحسبك أن تتأمل فى صياغة هذه الآيات و كلماتها لتجد فيها مصداق ما ذكرنا، على أنك واجد ذلك فى جميع آى القرآن و سوره.

فمن أجل ذلك تحيّر العرب فى أمره، إذ عرضوه على موازين الشعر فوجدوه غير خاضع لأحكامه، و قارنوه بفنون النثر فوجدوه غير لاحق بالمعهود من طرائقه، فكان أن انتهى الجاحدون منه إلى أنه السحر و استيقن المنصفون منهم بأنه تنزيل من ربّ العالمين.

و لك أن تسأل هنا: فكيف تقول إن القرآن يختلف عن جميع طرائق النثر المعهودة؛ مع أن فيه كثيرا من السجع، و هو منهج من مناهج

النثر العربى؟

و الجواب أن السجع ليس مجرد تقفية للجملة أو المقطع من الكلام بقافية

من روائع القرآن، ص: ۱۱۳

واحدة من الحروف و الوزن، بل هو- كما قال علماء هذا الشأن- موالاة الكلام على وزن واحد. فإذا تفاوتت أوزانه و اختلفت طرقه بأن كان أحد مصاريعه كلمتين و بعضهما أربع كلمات، كان من قبيح الكلام. فللسجع منهج مرتب محفوظ و طريق معين مضبوط متى أخلّ به المتكلم نسب ذلك منه إلى الخروج عن الفصاحة، و مثاله عند العرب قول أبى طالب لسيف بن ذى يزن: «منبتك منبت طابت أرومته، و عزّت جرثومته، و ثبت أصله، و بسق فرعه، و نبت زرعه، فى أكرم موطن و أطيب معدن».

و أنت لا- تجد هذا النسق فى كتاب اللّه تعالى لا- فى كثير منه و لا قليل. بل هو مرسل عن كل القيود التى ذكرنا، أما اتفاق فواصل بعض الآيات فى الوزن و الحروف فهو لا يسمى بذلك القدر سجعا، و لعلّك تعثر فيه على مقاطع يتوالى فيها الكلام على وزن واحد مع اتفاق الفاصلة، غير أنه مما يعترض فى الكلام اتفاقا و لا- يسمى سجعا مقصودا إليه، و إنما يقع مغمورا فى الخطاب، كما يقول الإمام الباقلانى. أ لا ترى أنك قد تعثر فى بعض آيات القرآن على وزن سليم لمصراع من الشعر، و قد تظفر ببيت كامل فيه، كما قد تظفر بمثل ذلك فى غير القرآن من سائر أنواع النثر، غير أن أحدا من الناس لا يسمى ذلك شعرا، و لقد قال العلماء إن البيت الواحد و ما كان على وزنه لا يكون شعرا، و إنما أقل الشعر بيتان فصاعدا، فمثل ذلك يقال عن السجع أيضا «۱».

الخاصّة الثانية (جريانه على مستوى رفيع واحد على الرغم من تنوع المعانى و الموضوعات):

فإذا تجاوزنا هذه الخاصّة من خصائص الأسلوب القرآنى، وقفنا على خاصّة أخرى هى من الأهمية بمكان، و هى من أجلّ مظاهر الإعجاز فى القرآن.

و هى أن التعبير القرآنى يظلّ جاريا على نسق رفيع واحد من السموّ فى جمال اللفظ ورقة الصياغة و روعة التعبير، رغم تنقله بين موضوعات مختلفة من

---

(۱) راجع للوقوف على تفصيل هذا المبحث كتاب إعجاز القرآن للباقلانى: ص ۵۷.

من روائع القرآن، ص: ۱۱۴

التشريع و القصص و المواعظ و الحجاج و الوعد و الوعيد، و تلك حقيقة شاقّة بل لقد ظلّت مستحيلة على الزمن لدى جميع من عرفنا و سمعنا بهم من فحول علماء العربية و البيان.

و بيان ذلك، أن المعنى الذى يراد عرضه، كلما كان أكثر عموما و أغنى أمثلة و خصائص، كان التعبير عنه أيسر و كانت الألفاظ إليه أسرع، و كلما ضاق المعنى و تحدد و دقّ و تعمق، كان التعبير عنه أشق و كانت الألفاظ من حوله أقل.

و لذا كان أكثر الميادين الفكرية التى يتسابق فيها أرباب الفصاحة و البيان هى ميادين الفخر و الحماسة و الموعظة و المدح و الهجاء، و كان أقل هذه الميادين اهتماما منهم و حركة بهم ميادين الفلسفة و التشريع و مختلف العلوم، و ذلك هو السر فى أنك قلّما تجد الشعر يقتحم شيئا من هذه الميادين الخالية الأخرى.

و مهما رأيت بليغا كامل البلاغة و البيان، فإنه لا يمكن أن يتصرف بين مختلف الموضوعات و المعانى على مستوى واحد من البيان الرفيع الذى يملكه، بل يختلف كلامه حسب اختلاف الموضوعات التى يطرقها، فربما جاء بالغاية من البراعة فى معنى من المعانى، فإذا انصرف إلى غيره انخذل عن تلك الغاية و وقف دونها.

غير أنك لا- تجد هذا التفاوت فى كتاب اللّه تعالى، فأنت تقرأ آيات منه فى الوصف، ثم تنتقل إلى آيات أخرى فى القصة، و تقرأ

بعد ذلك مقطعا فى التشريع و أحكام الحلال و الحرام، فلا تجد الصياغة خلال ذلك إلا فى أوج رفيع عجيب من الإشراق و البيان. و تنظر فتجد المعانى كلها لاحقة بها شامخة إليها.

و دونك فاقرأ ما شئت من هذا الكتاب المبين متنقلا بين مختلف معانيه و موضوعاته لتتأكد من صدق ما أقول و لتلمس برهانه عن تجربة و نظر.

الخاصّة الثالثة (صلاحية صياغته لمخاطبة الناس عامة على اختلاف ثقافاتهم و عصورهم):

و ثمة خاصّة ثالثة، لا تستطيع أن تجدها فى غير هذا الكتاب العزيز.

و هى أن معانيه مصوغة بحيث يصلح أن يخاطب بها الناس كلهم على

من روائع القرآن، ص: ۱۱۵

اختلاف مداركهم و ثقافتهم و على تباعد أزمنتهم و بلدانهم، و مع تطور علومهم و اكتشافاتهم.

خذ آية من كتاب اللّه مما يتعلق بمعنى تتفاوت فى مدى فهمه العقول، ثم اقرأها على مسامع خليط من الناس متفاوت فى المدارك و الثقافة، فستجد أن الآية تعطى كلّا منهم من معناها بقدر ما يفهم، و أن كلّا منهم يستفيد منها معنى وراء الذى انتهى عنده علمه.

و لسنا نقصد أن الآية تحتمل بذلك وجهين متناقضين أو فهمين متعارضين، بل هو معنى واحد على كل حال، و لكن له سطحا و عمقا و جذورا يتضمنها جميعا أسلوب الآية. فالعامىّ من الناس يفهم منه السطح القريب، و المثقف منهم يفهم مدى معينا من عمقه أيضا و الباحث المتخصص يفهم منها جذور المعنى كله.

و خذ إن شئت آية أخرى من كتاب اللّه مما يتعلق بمعنى يتطور مع امتداد الزمن، ثم اعرضها على مسامع الصدر الأول من المسلمين، فإنهم يفهمون منها المعنى المراد كما هو فى طورهم و عصرهم، ثم اعرضها على مسامع من بعدهم فإنهم يفهمون معناها كما تطور فى زمنهم، على أن كلا- الفهمين من المدلولات القريبة للآية، و ليس من قبيل التكلّف أو تحميل اللفظ ما لا يحمل، و لكن الفهم الثانى كان مطويا عن السابقين لعدم وجود ما ينبههم إليه إذ ذاك.

و فى القرآن الكثير من هذا و ذاك، فلنعرض أمثلة منه:

من القبيل الأول قوله تعالى: تَبارَكَ الَّذِى جَعَلَ فِى السَّماءِ بُرُوجاً وَ جَعَلَ فِيها سِراجاً وَ قَمَراً مُنِيراً، فهذه الآية تصف كلّا من الشمس و القمر بمعنيين لهما سطح قريب يفهمه الناس كلهم، و لهما عمق يصل إليه المتأملون و العلماء، و لهما جذور بعيدة يفهمها الباحثون المتخصصون و الآية تحمل بصياغتها هذه الدرجات الثلاث للمعنى، فتعطى كلّا حسب طاقته و فهمه دون أن يكون أىّ تعارض بينهما.

فالعامىّ من العرب يفهم منها أن كلّا من الشمس و القمر يبعثان بالضياء

من روائع القرآن، ص: ۱۱۶

إلى الأرض، و إنما غاير فى التعبير بالنسبة لكلّ منهما، تنويعا للفظ. و هو معنى صحيح تدل عليه الآية. و المتأمل من علماء العربية يدرك من وراء ذلك أن الآية تدلّ على أن الشمس تجمع إلى النور الحرارة فلذلك سمّاها سراجا، و القمر يبعث بضياء لا حرارة فيه؛ و هو أيضا معنى صحيح تدل عليه الآية دلالة لغوية واضحة. أما الباحث المتخصص فى شئون الفلك فيفهم من الآية إثبات أن القمر جرم مظلم و إنما يضىء بما ينعكس عليه من ضياء الشمس التى شبّهها بالسراج بالنسبة له؛ و هو أيضا معنى صحيح تدل الآية عليه بلغتها و صياغتها، فأنت تقول: غرفة منيرة إذا انعكس عليها الضوء من سراج فى وسطها، و لا- تقول قبس منير، إذ ينبعث النور من حقيقته و داخله، بل تقول قبس مضىء.

فالآية تتضمن هذه الدلالات الثلاث جملة واحدة، و لكنها- بأسلوبها العجيب- لا تخاطب الناس إلا بما يدركونه منها، كلّا حسب استعداده و طاقته الفكرية، و بذلك تكون الآية خطابا مفيدا لأضراب الناس كلهم.

و من هذا القبيل أيضا قوله تعالى: وَ الْأَرْضَ بَعْدَ ذلِكَ دَحاها، أَخْرَجَ مِنْها ماءَها وَ مَرْعاها، يقرأ هذه الآية العربى الذى لا يعلم عن الأرض و هيئتها إلا الشكل الذى يراه و هو الامتداد و الانبساط، فيفهم من قوله «دحاها» معنى الانبساط و الامتداد، و هو فهم صحيح تدل عليه الكلمة بمعناها اللغوى القريب. ثم يقرؤها عالم الفلك أو المثقف العادى فى هذا العصر، فيفهم من قوله: دَحاها معنى الاستدارة و التكوير، و هو أيضا فهم صحيح للكلمة، إذ هى تحمل فى آن واحد كلّا من معنى الاستدارة و الانبساط، و هو أدق ما توصف به الأرض. و لقد استعملت هذه الكلمة بكلا معنييها فى هذه الأبيات لابن الرومى:

إن أنس لم أنس خبازا مررت بهيدحو الرقاقة و شك اللمح بالبصر

ما بين رؤيتها فى كفّه كرهو بين رؤيتها قوراء كالقمر

إلا بمقدار ما تنداح دائرةفى صفحة الماء يلقى فيه بالحجر «۱»

---

(۱) تشترك مادة داح و دحا فى الدلالة على الاتساع و العظم و الانبساط و الاستدارة قال فى شرح

و من القبيل الثانى قوله تعالى: وَ الْخَيْلَ وَ الْبِغالَ وَ الْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوها وَ زِينَةً وَ يَخْلُقُ ما لا تَعْلَمُونَ لقد كان يقرأ هذه الآية أسلافنا، فلا يعنيهم من فهمها إلاـ قوله: و الخيل و البغال و الحمير لتركبوها و زينة، إذ كان ذلك القدر هو المنطبق على واقع حياتهم فيما تقصد إليه الآية من الحديث عن وسائل ركوب الإنسان و ما فى ذلك من نعمة اللّه عليه. فإذا قرءوا الجملة التى تليها و هى: و يخلق ما لا تعلمون، تاهوا بين تآويل و تفسيرات مختلفة. و يقرؤها إنسان هذا العصر فلا يشك فى أن المراد بها هذه الوسائل الحديثة الأخرى التى أضيفت إلى الوسائل السابقة.

و هكذا تجد الآية خطابا لأهل العصور المتتالية كلها، و ليست خاصّة بقوم دون قوم أو جيل دون جيل آخر.

فإذا تأملت فى هذه الخاصّية بعد تينك السابقتين، رأيت نفسك أمام الدليل القاطع على أن هذا الكتاب إنما هو كلام ربّ العالمين إلى الناس كلهم.

و هيهات أن يقوى الطوق البشرى على صياغة كلام يكون على قدر أفهام الناس المتفاوتة و علومهم المختلفة، بحيث يشعر كل فريق أن الكلام إنما هو على قدر حاجته و فهمه.

الخاصّة الرابعة (ظاهرة التكرار للألفاظ و المعانى):

اشارة

و قد كانت هذه الخاصة و لا تزال مجال بحث و درس، و ما أكثر ما ظنها بعض المستشرقين الأعاجم ثلمة يمكن التركيز عليها فى نقد القرآن و إلحاق النقيصة به.

و فى القرآن من هذه الظاهرة نوعان: أما أحدهما فتكرار بعض الألفاظ أو الجمل و أما الثانى فتكرار بعض المعانى كالأقاصيص و الأخبار.

فالنوع الأول منه:

يأتى على وجه التأكيد، ثم هو ينطوى بعد ذلك على نكت بلاغية أخرى كالتهويل، و الإنذار، و التجسيم، و التصوير. و للتكرار أثر

القاموس: و انداح بطنه عظم و استرسل، كانداح و اندحى و دحى، و بطن منداح: خارج مدور.

و ذكر فى اللسان نحو ذلك. و يشبه أن تكون الكلمتان فى أصلهما من مادة واحدة.

من روائع القرآن، ص: ۱۱۸

بالغ فى تحقيق هذه الوجوه البلاغية فى الكلام. غير أنه لا ينبغى أن يذهب بك الوهم إلى أن أىّ تكرار للكلمة أو الجملة يفى بهذا الغرض، و أنها وسيلة قريبة المنال لكل قادر على الكلام. فالتكرار الذى من شأنه أن يرفع بقيمة الكلام إلى الفصاحة و السمو فى التعبير، له قيود و حالات معينة لا ينبغى أن يتجاوزها، و ليس أى تكرير فى الكلام يبعث فيه التهويل أو التجسيم؛ و لو ذهبنا نشرح الصور المحمودة لتكرار الكلام و قيود ذلك- و لو شرحا يسيرا- لطال بنا البحث و خرجنا عمّا نحن بصدده، فارجع إليه إن شئت فى مظانه و أماكنه «۱».

و إذا سألت عن وجه العلاقة بين التكرار و هذه الصور البلاغية، فإن خير جواب على ذلك أن أضع فكرك و ذوقك العربى أمام نماذج لهذا النوع من التكرار فى هذا الكتاب المبين.

فمن ذلك قوله تعالى: الْحَاقَّةُ مَا الْحَاقَّةُ، وَ ما أَدْراكَ مَا الْحَاقَّةُ، كَذَّبَتْ ثَمُودُ وَ عادٌ بِالْقارِعَةِ و منه قوله تعالى: سَأُصْلِيهِ سَقَرَ، وَ ما أَدْراكَ ما سَقَرُ، لا تُبْقِي وَ لا تَذَرُ و منه قوله تعالى: إِنَّهُ فَكَّرَ وَ قَدَّرَ، فَقُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ، ثُمَّ قُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ و من ذلك تكرار كلمة أُولئِكَ فى قوله جلّ جلاله: أُولئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ وَ أُولئِكَ الْأَغْلالُ فِي أَعْناقِهِمْ، وَ أُولئِكَ أَصْحابُ النَّارِ و تكرار ما أَنْتَ فى قوله: وَ ما أَنْتَ بِهادِ الْعُمْيِ عَنْ ضَلالَتِهِمْ وَ ما أَنْتَ بِمُسْمِعٍ مَنْ فِي الْقُبُورِ.

و كلّ ما فى القرآن من تكرار الكلمة أو الجملة من هذا القبيل و على مثل هذا الإشراق، و ما أحسبك سائلى بعد ذلك عن وجه الجمال أو التهويل أو التصوير فى هذا التكرار إن كنت على شىء من السليقة العربية و ذوقها.

و أما النوع الثانى منه:

و هو تكرار المعنى، كتكرار بعض القصص و الأخبار، فهو أيضا ظاهرة بارزة فى كتاب اللّه تعالى؛ و مردّ ذلك إلى غرضين هامين: الغرض الأول إنهاء حقائق الدين و معانى الوعد و الوعيد إلى النفوس بالطريقة التى تألفها و هى تكرار هذه الحقائق فى صور و أشكال مختلفة من التعبير

---

(۱) انظر فى ذلك مثلا مشكل القرآن لابن قتيبة، و إعجاز القرآن للباقلانى، و البرهان للزركشى.

من روائع القرآن، ص: ۱۱۹

و الأسلوب. و فى بيان هذه الحكمة يقول اللّه عزّ و جلّ: وَ صَرَّفْنا فِيهِ مِنَ الْوَعِيدِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ أَوْ يُحْدِثُ لَهُمْ ذِكْراً (طه: ۱۱۳). قال الزركشى:

و حقيقته- أى و حقيقة التصريف- إعادة اللفظ أو مرادفه لتقرير معنى، خشية تناسى الأول لطول العهد به «۱».

و هى من الطرائق التربوية التى سلكها هذا الكتاب المبين، و لنا إلى الحديث عنها عودة- إن شاء اللّه- عند الحديث عن خصائصه التربوية.

أما الغرض الثانى فهو إخراج المعنى الواحد فى قوالب مختلفة من الألفاظ و العبارة، و بأساليب مختلفة تفصيلا و إجمالا، و تصريف الكلام فى ذلك، حتى يتجلى إعجازه و يستبين قصور الطاقة البشرية عن تقليده أو اللحاق بشأوه.

و أنت تعلم أن هذا الكتاب إنما تنزّل لتحقيق أمرين: أولهما إقناع العقلاء من الناس بأنه ليس كلام بشر، ثانيهما إلزامهم بالشريعة التى فيها. فلا بدّ فيه من الوسائل التى تفى بتحقيق السبيل إلى كلا الأمرين.

و من هنا، کان من المحال أن تعثر فی القرآن کله علی معنی یتکرر فی أسلوب واحد من اللفظ و یدور ضمن قالب واحد من التعبیر، بل لا بدّ أن تجده فی کل مرة یلبس ثوبا جدیدا من الأسلوب و طریقة التصویر و العرض، بل لا بدّ أن تجد الترکیز فی کل مرة منها علی جانب معین من جوانب المعنی أو القصة.

و لنضرب لک مثالا علی هذا الذی نقول: اقرأ قصة نوح فی سورة هود، و هی ما بین قوله تعالی: و لقد أرسلنا نوحا إلی قومه إنّی لکم نذیر مبین- و قوله جلّ جلاله: تلک من أنباء الغیب نوحیها إلیک ... الآیة، و هی فی جملتها اثنتان و عشرون آیة، ثم ارجع فاقرأ القصة نفسها فی سورة القمر من الآیة ۹ إلی الآیة ۱۵ ثم اقرأها فی سورة نوح، ثم تأمل فی النصوص الثلاثة و قارن بین أسلوب کلّ منها و طریقته فی العرض و التصویر و الجانب المعنوی الذی یرتکز علیه التعبیر فی کلّ منها، فإنک إن تأملت فی ذلک جیدا تخیلت أنک إنما تقرأ فی

---

(۱) انظر البرهان: ۳- ۱۰.

کل مرة خبرا جدیدا یشوقک أمره و تفجئک أحداثه، و شعرت أن النفس بحاجة إلی أن یعرض علیها هذا الخبر من کلا الجانبین و بکلا الأسلوبین.

علی أن هذا الغرض یعود إلی یعود إلی ما ذکرناه من کون القرآن خطابا للناس کلهم، ذلک أن فی الناس من لا یکفیه الموجز من القول و الخلاصة فی الحدیث، حتی ینصت إلی الأمر مفصلا مطنبا، و فی الناس من تکفیه الخلاصة و یقنعه الإیجاز، فاقتضی الأمر أن تتصرف المعانی القرآنیة فی طرائق مختلفة من التعبیر و البیان. و قد اهتم الجاحظ بهذه الحکمة فی التکرار القرآنی أکثر من غیرها «۱».

الخاصّة الخامسة (تداخل بحوثه و موضوعاته):

فأنت لا تجد فیه ما تجده فی عامّة المؤلفات و الکتب الأخری من التنسیق و التبویب حسب الموضوعات، و تصنیف البحوث مستقلة عن بعضها. و إنما تجد عامّة موضوعاته و أبحاثه لاحقة ببعضها دونما فاصل بینها، و قد تجدها متمازجة متداخلة فی بعضها فی کثیر من السور و الآیات.

و قد حسب بعض محترفی الغزو الفکری أن هذه الخاصّة القرآنیة ثلمة یمکن الدخول منها إلی اصطناع نقد أو محاولة تهدیم أو بثّ تشکیک، فأخذوا یتساءلون عن موجب هذا التداخل و التمازج فی معانی القرآن، ثم راحوا یجیبون عن تساؤلهم هذا بأنها البدائیة و البساطة فی منهج البحث ... و فیه إلماح- کما تری- إلی أنه لا یعدو کونه مجموعة أفکار منتثرة أنتجها فکر إنسان! ...

و الحقیقة، أن هذه الخاصّة فی القرآن، إنما هی مظهر من مظاهر تفرده و استقلاله عن کل ما هو مألوف و معروف من طرائق البحث و التألیف ...

و واضح لکل ذی عینین أن هذا الکتاب- و هو کتاب عربی مبین- نسق غیر معهود فی منهجه و أسلوبه و تعبیره؛ و یدلّک علی ذلک کل هذه الخصائص الذی ذکرناها و شرحنا طرفا منها.

---

(۱) انظر البرهان للزرکشی: ۳- ۱۲، و إعجاز القرآن للرافعی: ۲۲۱، و إعجاز القرآن للباقلانی: ص ۱۰۶ و ۱۰۷.

هذا شيء ...

و شيء آخر، هو أن من الخطأ فى أصل النقد و البحث أن نحاكم القرآن فى منهجه و أسلوبه، إلى ما تواضع عليه الناس اليوم، أو قبل هذا اليوم، أو إلى ما سيتواضعون عليه مع تطور الزمن- من طرائق البحث و التأليف و تنسيق المعايير.

فهذا الذى يتوافق عليه الكاتبون من تقسيم كتبهم إلى أبواب و فصول، ثم تضمين كل فصل منها لجملة معينة من الأبحاث و المعانى، ليس مردّه إلى أمر إلزامى أو مثل أعلى يفرض عليهم ذلك، و إنما الأمر فيه تابع للأغراض المتعلقة به، و هو فى جملته عرف يعتادونه و طور يمرون عليه و يجتازونه بعد حين إلى غيره.

فما هى الحقيقة الثابتة التى تلزم كتاب اللّه تعالى بأن يسير فى منهجه على طور من أطوار هؤلاء العباد و أن يتبع تنسيقهم الذى يضعون، أو أن تصنّف أبحاثه و معانيه حسب المنهج الذى يشاءون؟!. هذا إلى أن المناهج- كما قلنا- تتناسخ و الأساليب تتطور.

على أن الخاصّة تابع لحكمة عليا يدور معها المعنى القرآنى كله، ذلك أن جملة ما فى القرآن من مختلف المواضيع و المعانى الجزئية، إنما يدور جميعه على معنى كلّى واحد، هو دعوة الناس إلى أن يكونوا عبيد اللّه بالفكر و الاختيار كما خلقهم عبيدا له بالجبر و الاضطرار، و أن يدركوا أن أمامهم حياة ثانية بعد حياتهم هذه، و أن يستيقنوا ضالة هذه الحياة بالنسبة لتلك، فى كلّ من خيرها و شرّها و سعادتها و شقائها.

فالقرآن شأنه أن يبثّ هذا المعنى الكلى الخطير من خلال جميع ما يعرضه من الأبحاث و الموضوعات المختلفة من تشريع و وعد و وعيد و قصة و أمثلة و وصف؛ و إنما يتحقق ذلك بهذا النسق الذى جرى عليه من التداخل و التمازج فى المعانى.

فهو حينما يبدأ بعرض قصة، لا يدعك تنسى- و لو فى مرحلة من مراحلها- ذلك المعنى الكلّى الذى ذكرناه، فهو يمزجها بما ليس منها من تهديد أو وعد و وعيد أو نصيحة و وعظ، تحقيقا للغرض الذى من أجله تساق القصة،

من روائع القرآن، ص: ۱۲۲

و حفظا للفكر أن يتشتت مع أجوائها و أحداثها فينسى مساقها الأصلى.

و هو حينما يشرح لك أحكاما فى العبادات أو المعاملات أو غيرها، يسلك بك أيضا المنهج ذاته، فهو يحاذر أن تستغرق فى التأمل بهذه الأحكام من حيث هى علم أو فن برأسه، كما قد يحصل مع من ينكبّ على دراسة هذه الأحكام فى الكتب العلمية الخاصّة بها، فيوصلها بآيات ليست منها، فيها وعد أو وعيد أو حديث عن الآخرة أو دليل على وجود اللّه و عظمته، ليتنبّه الفكر، و يظلل مستيقظا للحقيقة الكلية الكبرى التى تطوف بها جميع المعانى الأبحاث.

و لو أن القرآن اتبع فى عرض معانيه، هذا الذى يسلكه الناس فى تآليفهم و بحوثهم، فأفرد فصولا خاصة لعرض الأحكام و التشريع، ثم ميّز فصلا آخر للقصص، و جاء بفصل ثالث فى وصف المغيبات كالجنة و النار، و هكذا ...-

نقول: لو درج القرآن على ذلك لفات تحقيق هذا الغرض الذى ذكرناه، و لما أمكن أن تكون هذه الفصول المتناثرة انعكاسا لمعنى كلى واحد تشترك كلها فى بثّه و التوجيه إليه. و لئن أمكن أن يتذكر القارئ ذلك فى تمهيد أو فصل من الفصول، فلسرعان ما ينساه عند ما يستغرق فى قراءة أو دراسة الفصول الأخرى.

و إن هذا الذى نقول، ليس من الحقائق المستعصية أو الخافية على من يصدق التأمل و النظر فى كتاب اللّه تعالى، و لكن فى الناس من يقود عقله وراء غرض ما ... فيمضى يصطنع مشكلة، و هو بعقله الحرّ يعلم أنها ليست بمشكلة، و لكن الغرض الذى يسعى إليه لا يدعه يحرّر عقله من الأسر فيمضى متوكلا على الشيطان ليزعم أن الأبيض أسود، و الموجود معدوم و الشمس مظلمة.

هؤلاء الناس هم محترفو الغزو الفكرى من المبشرين و المستشرقين أولا، ثم هم أذنابهم و ذيولهم الذين ينعقون بما لا يفقهون ثانيا.

و بعد، فهذه جملة خصائص الأسلوب القرآنى، عرضناها عرضا سريعا، ابتغاء تصورها فى إطار عام شامل. و لنا عود- إن شاء اللّه- بالتفصيل إلى كثير مما قد أجملناه خلال البحوث التالية.

من روائع القرآن، ص: ۱۲۳

إعجاز القرآن تعريفه، وجوهه، دليله، مظاهره

تمهيد لا بدّ منه:

الحديث عن إعجاز القرآن من أهم البحوث المتعلقة بالقرآن و آدابه و علومه، و هو لبّها و جوهرها و أساسها و عمدتها.

و مع ذلك، فإنني أعلم أن كثيرا ممّن سيقرأ ما أكتبه في هذا البحث، لا يملكون إلا أن يحفظوا ما أقوله بعقولهم، دون أن يتذوقوه بقلوبهم، و يستيقنوه بأفكارهم.

و السبب أنهم عاشوا غرباء عن القرآن، لم تتهيأ لهم أسباب قراءته و لم يتوفروا على شيء من دراسته؛ إن في هؤلاء- و يا للأسف- من لم يسمع بالقرآن إلا في أحاديث الناس و ما تقوله الكتب، و من لم ينصت إلى شيء من آياته إلا في أمسيات التعازي أو عند افتتاح حفل أو لدى مصادفة عند فتح إذاعة.

و إنما يفقه الحديث عن إعجاز القرآن و يتذوقه، من درس القرآن قبل ذلك، فأتقن قراءته، تماما كما كان يتقنها أطفال «الكتّاب» في بلادنا قبل اليوم.

فهو الذي يكون قد تصور حقيقة القرآن، و تهيأ لفهم الحديث عن إعجازه.

أما من لم يتوفر على تصوره إلا- في أصوات «المقرئين» و في أمسيات التعازي، و من إذا أراد أن يقرأ بضع آيات منه تلعثم و ترطّن و ثقلت كلماتها العربية على لسانه، فهيهات أن يفقه شيئا عن إعجاز القرآن و مظاهره و دلائله، إلا أن يحفظ ذلك حفظا و يبصمه بصما. ذلك لأن الحكم على الشيء فرع عن تصوره، فمن لم يتصور الشيء على حقيقته عجز عن إسناد أي حكم إليه.

من روائع القرآن، ص: ۱۲۴

و لقد قامت «و يا للأسف» حواجز كادت أن تصبح حصينة بين كثير من أفراد نشئنا المثقف و هذا الكتاب العظيم. و لم يعد سرّا خافيا أن هذا الحاجز إنما تكثف و استقرّ و تطاول، بفعل التخطيط الذي كانت و لا تزال تقوم به دوائر أجنبية، قصدا إلى إضعاف اللغة العربية في ألسنة أصحابها العرب و صدورهم، تحت شعارات و أهداف مزوّقة خادعة، كالدعوة إلى تبسيط قواعد العربية تارة، و ترويج فكرة الجمع بين العربية و العاميّة أخرى، و الدعوة إلى كسر عمود الشعر لإحلال ما يسمى ب «الشعر المنثور» مكانه تارة ثالثة.

و القصد البعيد من ذلك كله، هو إقامة هذا الحاجز بين الجيل و كتاب اللّه عزّ و جلّ، فإنه إذا حجز عنه، لم يعد يقدر على معرفته و إدراكه، و إذا لم يعد قادرا على معرفته، فأحر به أن لا يقدر على فهم شيء مما يقال حول إعجازه.

و إن هذه النتيجة لتنطوي على ربح عظيم لأولئك الذين يرقبون الأمر من بعيد، بمقدار ما تنطوي عليه من الخسارة الفادحة لهذا الجيل الذي نسي الكثيرون منه كل شيء إلا أنهم: عرب «۱».

و على كلّ، فلا بدّ من الحديث عن إعجاز القرآن، و على من لم يتصور حقيقة القرآن بعد، أن يسرع فيتدارك ما فاته، و سيهون الأمر عليه إذا ما تصور أن أول زاد الأديب و معلّم العربية إنما هو هذا الكتاب، فهو- من دون معرفته و إتقان تلاوته- لا يملك أن يقول شيئا في باب الأدب أو القواعد أو البيان، و ما أخزى و أسوأ منظر ذاك الذي يقف ليلقي درسا في العربية، فإذا ما صادفته آية من القرآن، و جدت لسانه لا يدور بها إلا كما يدور لسان الأعجمي إذا أراد أن يبين بالعربية و يتفصح!! ..

و لست أتحدث- في هذا المقام- عن أي غاية لضرورة دراسة هذا الكتاب و إتقان تلاوته، غير الغاية التي نحن بصددها. إن المهم أن عالم العربية ليس عالما بشيء منها طالما ظل غريبا عن ينبوع العربية و مصدر سائر علومها.

(١) اقرأ لتطلع على بسط الدلائل فى هذا المعنى كتاب «حصوننا مهددة من داخلها» للدكتور محمد محمد حسين إن عثرت عليه. و اقرأ كتاب تجربة التربية الإسلامية فى ميزان البحث لمؤلف هذا الكتاب.

من روائع القرآن، ص: ١٢٥

و حسب هذه الضرورة دافعا لكل عربى أن يقبل على هذا الكتاب فى دراسة واعية عميقة.

تعريف إعجاز القرآن:

أجمع عامّة الباحثين من علماء العربية و التشريع و الفلسفة و الفرق المختلفة أن القرآن معجز. فما معنى أنه معجز؟

لدينا فى الجواب على هذا السؤال تعريفان للإعجاز، أحدهما هو المعتمد لدى جمهور العلماء و الباحثين، و الثانى تفرد به أبو إسحاق إبراهيم النظام (ت: ٢٣١) اللغوى و المعتزلى المعروف، ثم تبعه فى ذلك بعض الناس من فرقته و جماعته.

فأما التعريف الأول، فهو أن القرآن قد سما فى علوّه إلى شأو بعيد بحيث تعجز القدرة البشرية عن الإتيان بمثله؛ سواء كان هذا العلو فى بلاغته أو تشريعه أو مغيباته.

و أما التعريف الثانى فهو أن اللّه قد صرف قدرات عباده و سلب همّتهم و حبس ألسنتهم عن الإتيان بمثله.

و الفرق بين التعريفين، أن مصدر الإعجاز فى التعريف الأول علوّ منزلة القرآن عن مستوى الطوق البشرى، أما مصدره فى التعريف الثانى فهو حبس القدرات و صرف الهمم عن معارضته و تقليده، أى فهو قد يكون، و الحالة هذه، غير بعيد فى منزلته البلاغية عن طاقة البشر، و لكن اللّه، تصديقا لنبيّه و لطفا به، صرف الناس عن تقليده و محاكاته.

و أنت إذا تأملت فى كلا التعريفين و فى الذى هو أقرب إلى العقل و الفهم منهما، أدركت أن تعريف النظّام و من شايعه فيه، لا معتمد من المنطق أو العقل له. و قد سخر كثير من الباحثين، و منهم الجاحظ، بهذا التفسير للإعجاز؛ و تكاثرت الردود عليه من كل صوب.

و لننقل لك منها كلام الإمام الباقلانى فى كتابه، إعجاز القرآن يقول:

من روائع القرآن، ص: ١٢٦

(... لو لم يكن القرآن معجزا على ما وصفناه من جهة نظمه الممتنع، لكان مهما حطّ من رتبة البلاغة فيه، و وضع من مقدار الفصاحة فى نظمه، كان أبلغ فى الأعجوبة إذا صرفوا عن الإتيان بمثله، و منعوا عن معارضته و عدلت دواعيهم عنه، فكان يستغنى عن إنزاله على النظم البديع و إخراجه فى المعرض الفصيح العجيب. على أنهم لو كانوا صرفوا على ما ادّعاه- أى القائل بهذا التعريف- لم يكن من قبلهم من أهل الجاهلية مصروفين عمّا كان يعدل به فى الفصاحة و البلاغة و حسن النظم و عجيب الرصف، لأنه لم يتحدّوا إليه، و لم تلزمهم حجته. فلما لم يوجد فى كلام من قبله مثله، علم أن ما ادّعاه القائل بالصرفة ظاهر البطلان).

ثم يقول بعد ذلك:

(و مما يبطل ما ذكروه من القول بالصرفة، أنه لو كانت المعارضة ممكنة- و إنما منع منها الصرفة- لم يكن الكلام معجزا، و إنما يكون المنع هو المعجز، فلا يتضمن الكلام فضيلة على غيره فى نفسه، و ليس هذا بأعجب مما لو قيل:

إن الكل قادرون على الإتيان بمثله، و إنما يتأخرون عنه لعدم العلم بوجه ترتيب لو تعلموه لوصلوا إليه بعد) «١».

أقول: و إن أيسر ما يوضح فساد تفسير إعجاز القرآن بالصرفة، أن الواقع قد خالف ذلك، فلم يصرف الناس فى الحقيقة عن الإقبال إلى تقليده و مجاراته، بل قام فى التاريخ- كما ستعلم- من حاول أن يعارض، و عارض و أتى بكلام زعم أنه قد حاكى به كلام اللّه عزّ و جلّ، و لكنه جاء مرذولا سمجا لا قيمة له. و أيضا ففيم سجد العرب من مشركين و مسلمين إذا لبلاغته حتى زعم بعضهم أنه السحر، و فيم كان المشركون يتواصون بعدم الذهاب إلى الكعبة فى جنح الليل لسماع القرآن من محمد عليه الصلاة و السلام حتى لا يفتن بذلك جنح الليل لسماع القرآن من محمد عليه الصلاة و السلام حتى لا يفتن بذلك الدهماء عن دين أجدادهم، ثم ما هو إلا

أن يتوارد هؤلاء المتواصون مع الليل، يختبئون خلف جدران الكعبة ليترنموا بسماع آيات القرآن؟ ... لو كان القرآن فى

---

(۱) إعجاز القرآن لأبى بكر الباقلانى: ۲۹ و ۳۰.

من روائع القرآن، ص: ۱۲۷

حقيقته كالكلام الذى يحسنه البشر، و لكن اللّه صرفهم عن مجاراته و محاكاته، لما وقع كل ذلك و لا شىء منه.

و مع ذلك فإن تفسير إعجاز القرآن، كما يراه النظّام، هو فى الحقيقة أقعد فى باب الإعجاز و أدعى إلى معرفة أنه كلام اللّه عزّ و جلّ، إذ العجز عن الإتيان بالشىء المستطاع أعجب من العجز عن الإتيان بالأمر الرفيع الذى لا يدرك و لا يستطاع. و لكن المنطق هو الذى يتجافى عن رأيه و تحليله.

الدليل على ثبوت الإعجاز فى كتاب اللّه فى الجملة:

و نقصد بكلمة «فى الجملة» قطع النظر عن أنواع الإعجاز القرآنى، و الأدلة التفصيلية الخاصة بكلّ منها. و إنما المراد هنا الوقوف على دليل علمى يصلح أن يكون برهانا على ثبوت المعنى الكلّى للإعجاز فى القرآن، و الشامل إجمالا للأنواع التى سنتحدث عن كلّ منها بشىء من التفصيل فيما بعد.

و اعلم أنك مهما حاولت أن تكشف عن براهين الإعجاز، فى القرآن، فلن تقع على برهان أبين و ألزم من برهان التجربة و المشاهدة.

و هو الذى عناه الخطابى فى كتابه «بيان إعجاز القرآن» عند ما قال:

«... و الأمر فى ذلك أبين من أن نحتاج إلى أن ندل عليه بأكثر من الوجود القائم المستمر على وجه الدهر، من لدن عصر نزوله إلى الزمان الراهن الذى نحن فيه» «۱».

و بيان ذلك أن العرب بدءوا فسألوا محمدا صلّى اللّه عليه و سلّم أن يأتيهم بآية تدل على صدق دعوته و رسالته. فأخبرهم اللّه تعالى بأن القرآن أعظم آية تدل على ما يريدون، و ذلك فى قوله جلّ جلاله:

وَ قالُوا لَوْ لا أُنْزِلَ عَلَيْهِ آياتٌ مِنْ رَبِّهِ. قُلْ إِنَّمَا الْآياتُ عِنْدَ اللَّهِ وَ إِنَّما أَنَا نَذِيرٌ مُبِينٌ أَ وَ لَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّا أَنْزَلْنا عَلَيْكَ الْكِتابَ يُتْلى عَلَيْهِمْ إِنَّ فِي ذلِكَ لَرَحْمَةً وَ ذِكْرى لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ (العنكبوت: ۵۰ و ۵۱).

---

(۱) ثلاث رسائل فى إعجاز القرآن ص ۲۱، طبع دار المعارف.

من روائع القرآن، ص: ۱۲۸

و لكن الكافرين أنكروا أن يكون فى شىء من آى القرآن ما يدلّ على صدق محمد صلّى اللّه عليه و سلّم فى دعوته، و ادّعوا أنه كتاب كغيره ليس فيه ما يعجز عن الإتيان بمثله، و أعرضوا عنه قائلين ما نقله اللّه عن لسانهم:

... قَدْ سَمِعْنا، لَوْ نَشاءُ لَقُلْنا مِثْلَ هذا، إِنْ هذا إِلَّا أَساطِيرُ الْأَوَّلِينَ (الأنفال: ۳۱)، و حينئذ تحدّاهم اللّه- أو قل تحدّاهم القرآن إن شئت- أن يأتوا بسورة من مثله. و أفرغ هذا التحدى فى قوالب مختلفة من اللفظ و الأسلوب، و أنهضهم إلى الإتيان بمثله أو بمثل أقصر سورة منه، بالتقريع و التحميس و مختلف أشكال التّحدى فقال لهم مرة:

وَ إِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِمَّا نَزَّلْنا عَلى عَبْدِنا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِنْ مِثْلِهِ وَ ادْعُوا شُهَداءَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صادِقِينَ. فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا- وَ لَنْ تَفْعَلُوا- فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَ الْحِجارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكافِرِينَ (البقرة: ۲۳ و ۲۴).

و قال لهم مرة أخرى: قُلْ لَئِنِ اجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَ الْجِنُّ عَلى أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هذَا الْقُرْآنِ لا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَ لَوْ كانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيراً (الإسراء:

۸۸).

و قال لهم مهيجا و مقرعا: أَمْ يَقُولُونَ تَقَوَّلَهُ، بَلْ لا يُؤْمِنُونَ. فَلْيَأْتُوا بِحَدِيثٍ مِثْلِهِ إِنْ كانُوا صادِقِينَ (الطور: ۲۳ و ۲۴).

و قد كان من مقتضى قولهم: لو نشاء لقلنا مثل هذا، و ما سمعوه من هذا التقريع و التحدى و ما كان يعتلج فى صدورهم من الحقد و الكراهية لهذا الذى جاءهم، النبى صلّى اللّه عليه و سلّم، و ما كانوا منصرفين إليه من البحث الدائب عن أىّ وسيلة يمكن الاعتماد عليها، لإفساد أمره عليه و منع دعوته من السير فى طريق النجاح- نقول: كان من مقتضى ذلك كله أن ينهضوا لمعارضته و مجاراته بفصول من كلامهم البليغ، ليقطعوا بذلك خطره عنهم و ليعلنوا بذلك لمن قد يتحدث بهذا الذى يأتيهم به من القرآن، أنهم قد جاءوا بمثله و خير منه.

و لكنهم- على الرغم من كل هذا- لم يفعلوا شيئا، و لم يستجيبوا لتحدى القرآن الكريم فى محاولة ما، غير أنهم تحولوا عن قولهم السابق: لو نشاء لقلنا

من روائع القرآن، ص: ۱۲۹

مثل هذا، إلى زعم أن محمدا إنما يأتيهم بسحر ... أو كهانة ... أو شعر فريد فى بابه، كما قال اللّه تعالى عنهم: وَ لَمَّا جاءَهُمُ الْحَقُّ قالُوا هذا سِحْرٌ وَ إِنَّا بِهِ كافِرُونَ (الزخرف: ۳۰).

ثم إن آيات التحدى هذه ظلت مسجلة فى كتاب اللّه تعالى تقرع آذان العلماء و الأدباء و الشعراء و البلغاء على اختلاف نحلهم و مذاهبهم فى كل عصر و قرن. فما استطاع واحد فيهم أن يسجّل إلى جانب هذا التحدى عملا ما يصلح أن يقال إنه قد عارض به القرآن فأتى بشىء حسن.

فهذا الواقع، من أجلى أدلة التجربة و المشاهدة على ثبوت صنعة الإعجاز للقرآن. إذ هو دلالة الواقع نفسه خلال التاريخ و القرون.

على أننا ندعم هذا البرهان بميزان الاستقراء التام الدّال على أن القرآن لا يمكن أن يكون كلام غير اللّه عزّ و جلّ فنقول:

إن عجز العرب كلهم عن الإتيان بمثل القرآن، دليل جلىّ على أنه لا يمكن أن يكون من تأليف أحد منهم كورقة بن نوفل، و بحيرا الراهب، أو غيرهما ... إذ إن الاحتمال مخالف لبرهان العجز الذى دلّت عليه التجربة المشاهدة، على أن القرآن فيه تعليق على أحداث وقعت بعد موت ورقة و بحيرة، فكيف يكون مع ذلك من إيحائهما أو تأليفهما.

و نمضى فى الاستقراء و البحث، فنفرض أنه موحى به إليه صلّى اللّه عليه و سلّم من قبل الجن ما دام أن الدليل قام على أنه ليس من كلام البشر.

غير أن هذا الفرض أيضا يستلزم نتائج باطلة تكشف عن بطلانه.

فالجان الذى يفرض أنه أوحى إلى محمد صلّى اللّه عليه و سلّم بهذه الألفاظ، لا يوحى بها إليه إلا و هى مما يقدر الجن على إيجاد مثله. و ليس ممكنا أبدا أن لا يقوم فى وجه هذا المخلوق الجنّى أحد من أمثاله، يوحى بقرآن مثله حلال هذه القرون كلها إلى واحد من هؤلاء الناس الذين يشتهون أن يؤلفوا مثله، فلا يستطيعون هذا مع العلم بأن اللّه تعالى، كما تحدى بالقرآن الإنس، تحدى به الجن أيضا، فقال عزّ و جلّ:

من روائع القرآن، ص: ۱۳۰

وَ ما تَنَزَّلَتْ بِهِ الشَّياطِينُ، وَ ما يَنْبَغِي لَهُمْ وَ ما يَسْتَطِيعُونَ، إِنَّهُمْ عَنِ السَّمْعِ لَمَعْزُولُونَ (الشعراء: ۲۱۲).

و كما يوجد فى الإنس من يحقدون على الحق مع العلم بأنه الحق، فيتمنّون لو أمكنهم إفساد صفة الإعجاز فى القرآن بأىّ وسيلة ممكنة، كذلك يوجد فى الجن من يحقدون مثل هذا الحقد، و يتمنّون مثل هذا التمنّى.

فلما لم نر إنسانا أوحى إليه من قبل أحد الجان بمثل القرآن، أو بمثل بعض منه، علمنا بدليل الواقع المشاهد أنه ليس من تأليف الجان و لا من إيحائهم.

و هكذا يتكامل دليل الاستقراء التام على أن هذا القرآن الذى تنزل على محمد صلّى اللّه عليه و سلّم، ليس من تأليف أحد من الناس الذين كانوا فى عصره، و ليس من تأليف جنى نفثه فى روعه أو ألقى به إليه.

فانحصر العقل عند ضرورة الإيمان بما يقوله و يقرره هذا القرآن نفسه، من أنه ليس إلا كلام اللّه عزّ و جلّ نزل به الروح الأمين على محمد صلّى اللّه عليه و سلّم ليكون خاتمة المنذرين إلى العالم كله و هو ما يؤكده البيان الإلهى بقوله عزّ و جلّ:

فَإِلَّمْ يَسْتَجِيبُوا لَكُمْ فَاعْلَمُوا أَنَّما أُنْزِلَ بِعِلْمِ اللَّهِ وَ أَنْ لا إِلهَ إِلَّا هُوَ، فَهَلْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ (هود: ۱۴).

ثم إن من أهم ما يزيد هذا البرهان التجريبى المحسوس و المشاهد، جلاء و يقينا، ما قد تعلمه من أن قلة من الناس حاولوا فعلا أن يأتوا بشىء من مثل القرآن فى بلاغته و مضمونه، فقد كانوا يأنسون فى أنفسهم من القدرة ما يجعلهم أهلا لهذه المغامرة. لكنهم ما إن أقدموا على ذلك حتى نزلوا عن المستوى الذى كانوا يقدرون عليه، و جاءوا بكلام بارد مضحك يسخر بعضه من بعض.

فمنهم مسيلمة بن حبيب الكذاب الذى تنبأ باليمامة فى أواخر حياة النبى صلّى اللّه عليه و سلّم فقد زعم أن له قرآنا آخر يوحى به إليه. و قد نقلوا له من قرآنه هذا كلاما سخيفا فى كلّ من مبناه و معناه.

من روائع القرآن، ص: ۱۳۱

و قد كان مسيلمة من فصحاء العرب، و كان إذا تكلم على سجيته جاء بكلام جيد، لا يوزن بشىء من السخف الذى انحطّ إليه عند ما حاول تقليد القرآن و معارضته.

و منهم آخرون، جاءوا مع فترات متقطعة من التاريخ، توفر لديهم حبّ المغامرة، و آنسوا فى ملكاتهم القدرة على معارضة القرآن. و لكنهم حذروا الفضيحة و السخرية- على ما يبدو- و خافوا أن ينتهى أمرهم إلى مثل ما انتهى إليه أمر مسيلمة. فأخذوا يعارضون بعضا من سور القرآن على تكتم و فى نجوة من الناس، ثم إنهم لما عادوا إليه بالنظر و التأمل، فوجدوه غثاء لا قيمة له، و كلاما لا طعم فيه رأوا أن يخرجوا به على الناس بعد أن يلصقوه بمن خطر فى بالهم من مشاهير الأدباء و الكاتبين.

من هذا القبيل ما نسب إلى ابن المقفع من أنه اشتغل بمعارضة القرآن مدة ثم أقصر عن ذلك و تركه. و أغلب الظن أن الأمر إنما ألصق به إلصاقا على النحو الذى ذكرت.

و يقول الرافعى رحمه اللّه، معللا اختيار هؤلاء المجهولين لابن المقفع دون غيره: «و إنما نسبت المعارضة لابن المقفع دون غيره من بلغاء الناس، لأن فتنة الفرق الملحدة إنما كانت من بعده و كان البلغاء كافة لا يمترون فى إعجاز القرآن و إن اختلفوا فى وجه إعجازه، ثم كان ابن المقفع متهما عند الناس فى دينه، فدفع بعض ذلك إلى بعض و تهيأت النسبة من الجملة» «۱».

و من هذا القبيل أيضا كلمات نسبت إلى أبى العلاء المعرى، قيل إنه عارض بها القرآن. و نسبوا إليه من ذلك فيما نسبوا قوله:

(أقسم بخالق الخيل، و الريح الهابّة بليل، إن الكافر لطويل الويل، و إن العمر لمكفوف الذيل، تعدّ مدارج السيل، و طالع التوبة من قبيل، تنج و ما إخالك بناج).

---

(۱) تاريخ آداب العرب لمصطفى صادق الرافعى ۲/ ۱۸۳.

من روائع القرآن، ص: ۱۳۲

قالوا: و لما أن قيل له: إن كلامك هذا لا يبدو فيه شىء من رواء القرآن و إشراقه، أجابهم: دعوه تصقله الألسن فى المحاريب أربعمائة سنة، ثم انظروا كيف يكون.

و ما من باحث، بل ما من متأمل عاقل، إلا و يدرك براءة المعرى من هذا الهراء، و من هذه الطريقة الغبية فى الدفاع عن هذا الكلام، لأسباب من أهمها:

أولا: إن المعرى لم يكن من الجهل بالواقع و التاريخ إلى حيث جعله يتوهم بأن الذين سجدوا لبلاغة القرآن، من العرب المشركين و

المسلمين، لم يفعلوا ذلك إلا بعد أن صقلت تلك الآيات أسماعهم أربعمائة سنة ...

ثانيا: إن الرجل عرض فى كتابه، رسالة الغفران، لسخف جاء به ابن الراوندى فى كتاب له سمّاه «التاج» و هو سخف يشبه هذا الذى ألصقوه بأبى العلاء مما نحن فى معرض حديثه، فتناول تاجه هذا، و مزقه بلسانه و قلمه شرّ ممزّق ثم تحدّث عن القرن حديث العاقل الذى يكرم نفسه من حيث يوقفها عند حدّها. و يؤكد أن لا مطمع لأى معارضة أو تقليد لهذا الكتاب، لأى إنسان مهما سما فى قدراته و طاقاته العلمية و البلاغية. و هذا كلامه عن ذلك فى رسالة الغفران:

(.. و أما ابن الراوندى، فلم يكن إلى المصلحة بمهدى، و أما «تاجه» فلا يصلح أن يكون نعلا، و لم يجد من عذاب و علا (أى ملجأ) .. و يجوز أن ينظم تاجه عقارب، فما كان المحسن و لا المقارب .. و هل تاجه إلا كما قالت الكاهنة:

أف و تف، و جورب و خوف. قيل و ما جورب و خف؟؟ .. قالت: واديان فى جهنم) إلى أن قال: (و أجمع ملحد و مهتد و ناكب عن المحجة و مقتد، أن هذا الكتاب الذى جاء به محمد صلّى اللّه عليه و سلّم كتاب بهر بالإعجاز، و لقى عدوه بالإرجاز، ما حذى على مقال، و لا أشبه غريب الأمثال، ما هو من القصيد الموزون و لا الرجز

من روائع القرآن، ص: ۱۳۳

من سهل و حزون، و لا شاكل خطابة العرب، و لا سجع الكهنة دوى الإرب، و جاء كالشمس اللائحة نورا للمسرّة البائحة وَ تِلْكَ الْأَمْثالُ نَضْرِبُها لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ. و إن الآية منه أو بعض الآية لتعترض فى أفصح كلم يقدر عليه المخلوقون، فتكون فيه كالشهاب المتلألئ فى جنح غسق، و الزهرة البادية فى جدوب ذات نسق فتبارك اللّه أحسن الخالقين» «۱».

أ فيمكن، فيما قد يتصوره عقل عاقل، أن يجرد المعرى هذه السياط الملهبة على ظهر ابن الراوندى، ثم يعمد فيضع هو أيضا ظهره تحت لهيبها؟

لا شك أن الأمر فى حقيقته كما قلنا، أن مجهولين غامروا، فخابت جهودهم، فألصقوا خيبتهم بمن قد أحبّوا أن يلصقوها به من مشاهير العلماء أو الأدباء.

فهذا هو الدليل المادى الملموس على أن هذا القرآن قد أعجز البشر أن يأتوا بمثله .. إذ قد تبين أن الناس- منذ نزول القرآن إلى هذا اليوم- فريقان اثنان:

فريق أعلن عجزه عن إمكان الإتيان بمثله أو بما يدانيه، دون سابق تجربة و محاولة و فريق جرّب و حاول، و بذل كل ما يملك من جهد، فلم يأت من عمله بشىء.

و من خلال موقف كلا هذين الفريقين اللذين انقسم إليهما جميع الناس إلى هذا اليوم، يتكامل الدليل العملى على ثبوت صفة الإعجاز فى القرآن.

و إنما يعرف الدليل على إعجازه من هذا الوجه فقط، سواء عرفت وجوهه و أسبابه أو لم تعرف.

إلا أننا سنحاول الآن ترسيخ هذا الدليل، عن طريق تحليل هذه الظاهرة

---

(۱) رسالة الغفران: ۴۷۹ و ۴۸۰.

من روائع القرآن، ص: ۱۳۴

الإعجازية التى تتجلى فى هذا الكتاب العظيم. و عن طريق الكشف عن وجوه هذا الإعجاز و أسبابه.

و فى يقينى أن العلماء يملكون مزيدا من وسائل الكشف عن هذه الوجوه و أسباب تجليتها، كلما تطاول الزمن، و ازداد عمر القرآن طولا بين الناس، إذ إن ذلك هو شأن المعجزة المستمرة و الباقية مدى الدهر.

وجوه الإعجاز القرآنى

اشارة

لن نطيل القول فى بيان الخلاف الذى جرى بين علماء القرآن، حول حقيقة الأعجاز الثابتة فى كتاب اللّه تعالى، بعد أن تكامل إجماعهم و اتفقت كلمتهم على أن سمة الإعجاز حقيقة ثابتة فى هذا الكتاب، بقطع النظر عن جوانبه و مظاهره.

فإن فيما سنعرضه من بيان هذه الوجوه و الجوانب، و تحليل كلّ منها و إبراز الأدلة و البراهين عليها، بالقدر الذى يتّسع له مجال مثل هذا البحث، ما يقضى على أسباب ذلك الخلاف، و يجلى لنا معظم هذه الوجوه، على نحو لا تلحقه المرية و لا يطوله الشك.

و نقول: يجلى لنا معظم هذه الوجوه. و لا نقول: يجلى كلها. لأنّا لا نعلم ما الذى تحمله قوادم الأيام و العصور، و مستجدات الأفكار و العلوم، من أضواء على مزيد من وجوه الإعجاز فى كتاب اللّه عزّ و جلّ، كيف لا و هو الكتاب الذى ضمنه اللّه تعالى معجزته الساطعة الباقية على مرّ الأجيال و الدهور. بل كيف و هو القائل فى محكم هذا التبيين:

سَنُرِيهِمْ آياتِنا فِى الْآفاقِ وَ فِى أَنْفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ، أَ وَ لَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلى كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ (فصّلت: ۵۳).

و لنشرع الآن ببيان وجوه الإعجاز فى القرآن، مع شرح مفصّل لكلّ منها، بحيث تظهر من خلاله الحجة على أن القرآن معجز فعلا من ذلك الوجه:

من روائع القرآن، ص: ۱۳۵

أولا: الإعجاز اللفظى أو البلاغى:

اشارة

و إنما نقصد بهذا الوجه بديع نظمه، و عجيب تأليفه «۱» و سموّه فى البلاغة إلى الحد الذى يعجز الطوق البشرى عن الإتيان بمثله. و أنت تعلم أن البلاغة إنما تعنى مطابقة الكلام لمقتضى الحال و دقة اللفظ فى انطباقه على المعنى المراد.

و الإنسان مهما أوتى من القدرة البيانية لا يستطيع أن يسمو إلى ذروة هذه الغاية للأسباب و العوائق التى سنتحدث عنها إن شاء اللّه.

و اعلم أن إعجاز القرآن من هذا الوجه حجة- بشكل مباشر- على العرب وحدهم، لأنهم هم الذين يدركون هذا المعنى فيه. إلا أن العرب حجة، بدورهم، على سائر الناس، لأنهم إذا رأوا أن أرباب هذه اللغة و أدباءها قد قصر بهم الطوق عن إنشاء مثله، أدركوا أنه معجز و أنه ليس مما يقدر عليه البشر «۲».

مصدر الإعجاز البلاغى فى القرآن:

اشارة

و قبل أن نتحدث عن مظاهر الإعجاز البلاغى فى القرآن، يجدر بنا أن نبين فى كلمة جامعة أساس الإعجاز البلاغى و مصدره، فى هذا الكتاب العظيم. فإن لهذه المظاهر التى سنتحدث عنها جذورا تنتهى إلى أساس واحد، إليه يردّ علم كل فرع و جانب تفصيلى.

و لعلّ أقصر طريق يمكن أن ينفذ منه الباحث إلى هذا المصدر أو الأساس الواحد، أن نتأمل فيما يملكه الإنسان- بمعناه الكلى- من الطاقة التعبيرية عن الأفكار و المعانى، و أن نبين من وراء ذلك الثغرات و النقائص التى تتلبس بطاقته هذه و تمنعه عن القدرة على التعبير عن كل ما يريد بالشكل الذى يريد .. فإذا تبينت لنا هذه النقائص و الثغرات، أدركنا عندئذ أن أساس الإعجاز البلاغى فى

القرآن، إنما هو كونه مبرءا من تلك النقائض و الثغرات.

---

(۱) نقصد بالتأليف هنا تآلف ألفاظه و جمله و تناسقها مع بعضها، على الوجه الذى سنشرحه فيما بعد إن شاء اللّه.

(۲) انظر ما كتبه فى هذا الإمام الباقلانى فى إعجاز القرآن ص: ۲۵۹ و الإمام السيوطى فى الإتقان ۲/ ۱۱۹.

من روائع القرآن، ص: ۱۳۶

و لقد قلنا إن مردّ البلاغة الكلامية إلى الدقة فى مطابقة اللفظ للمعنى.

و إنما سبيل ذلك أن يتسارع إلى الذهن جميع ألفاظ هذه اللغة و ما يسمى بمترادفاتها لينتقى منها ألصقها بالمعنى المراد و الصورة المتخيلة. فبمقدار ما يتم التوافق الدقيق بين المعنى القائم فى الذهن و اللفظ الدّال عليه و المصوّر له، يتسامى الكلام فى درجات البلاغة و البيان.

و لكن هل يتسنى للإنسان أن يحقق هذا التوافق بمعناه الكلى الدقيق؟

لن يتسنى للإنسان أيّا كان، تحقيق هذا الهدف مهما بذل من تحايل أو جهد، و ذلك لسببين اثنين:

أولهما: أن المعانى و التصورات أغزر من الألفاظ و قوالب التعبير. ذلك لأن المعانى و الأفكار و التصورات إنما تنبعث من داخل النفس الإنسانية، و هى منبع ثرّ لا يكاد ينضب لمختلف المعانى و التصورات و المشاعر.

أما الألفاظ و التعابير فإنما تقبل إلى الإنسان من الخارج، و هى بالإضافة إلى ذلك محصورة و متناهية. لذا كان من المتفق عليه أن اللغة- مهما كان نوعها- لا تغطى إلا جزءا يسيرا من المعانى و المشاعر.

أ لا ترى أن كلمة (الألم) تستعمل للدلالة على أنواع شتى من المشاعر و الأحاسيس و المعانى، دون أن تنجدك اللغة بأى دلالات لفظية يمكن أن تستعمل للتفريق بين تلك الأنواع، و إنما أنت منها أمام هذه الكلمة أو ما قد يشبهها: (الألم)؟

و إن أحدنا ليستعمل كلمة (الجمال) عن عالم واسع من المشاعر و الصور و المعانى، و هو يعلم أنها صور و معان متنوعة متخالفة، و إن من الجدير أن يلقى الإنسان لكلّ منها تعبيرا مستقلا.

و لكن أحدنا لا يملك مع ذلك أن يعبّر عن هذه الصور و المعانى المتخالفة بأكثر من كلمة (الجمال) و مشتقاتها.

و كذلك شأن أكثر كلمات اللغة، ما من واحدة منها إلا

من روائع القرآن، ص: ۱۳۷

و تستعمل لطائفة من المعانى المتغايرة و إنما القاسم المشترك بينهما علاقات سطحية تصل ما بينها. فأنت لا تملك من اللغة إلا ما يعبّر عن هذه المعانى السطحية القريبة، بحيث إذا أردت الغوص على دقائق المعانى المتشعبة تخلفت عنك طاقة التعبير و بقيت مع مشاعرك الصامتة «۱».

ثانيهما: أننا نقف من اللغة العربية أمام بحر عظيم من الكلمات و الألفاظ- على ما فيها من القصور الذى ذكرناه-. و معظم هذه الألفاظ مما يسمى بالمترادف. و مهما كان الكاتب أو المتكلم بليغا، و مهما كان يحفظ فى ذهنه من متن اللغة و ألفاظها و مترادفاتها، فلا يمكن أن تنتصب هذه المترادفات جميعها مكشوفة واضحة أمام خياله، كما تنتصب مضارب الأحرف من الآلة الكاتبة أمام ضاربها، لكى يلتقط من مجموعها ما هو أقرب إلى المعنى الذى يبغيه و الشعور الذى يجول فى صدره و إنما هو- عند التعبير- إنما يلقى حبال تفكيره إلى هذا اليم المتلاطم من الكلمات، ليلتقط منه ما قد يتسارع إليه و يسهل على لسانه. و فى اللغة من المترادفات الكثيرة ما ينجده لغرضه و يقوم بعضه مقام بعض فى التعبير العام عن مقصوده.

بيد أن هذه الألفاظ إنما تعدّ مترادفة، إذا ما أريدت منها الدلالة الإجمالية على المعنى، و هى التى يقتنع بها العامة من المتكلمين، و هم الذين لا يطمعون فى أكثر من إيصال خلاصة إحساساتهم و أفكارهم إلى الآخرين.

أما عند من يسبر أغوار هذه الكلمات و يستخرج ما يمتاز به كلّ منها من الخصائص و الفروق، فهى ليست من المترادفات فى شىء. بل لكلّ منها دلالته الخاصة و إشارته المتميزة و إيحاؤه الذى لا يشترك فيه غيره، و تصويره الذى ينفرد به عن سائر نظائره.

فقد تحسب مثلا أن كلّا من مضى، و ذهب، و انطلق، يؤدى معنى

---

(۱) انظر ما قاله السيوطى فى المزهر حول هذا المعنى: ۱/ ۱۶۴ ط المميئة.

من روائع القرآن، ص: ۱۳۸

واحدا، و أن كلّا من: قعد، و جلس، شىء واحد فى الدلالة، و أن كلّا من:

نام، و رقد، و هجع، متّحد فى المقصود و لكن الحقيقة ليست كذلك. ففى كل كلمة من هذه المترادفات وصف تستقل بالدلالة عليه، و إن كان جميعها متفقا فى الدلالة على أصل المعنى، بقطع النظر عن خصائص الفروق و الأوصاف، كما يقول الإمام أحمد بن يحيى المعروف بثعلب.

و قد كان جمع من أهل اللغة فى مجلس عند سيف الدولة، و فيهم أبو على الفارسى، و ابن خالويه. فقال ابن خالويه: أحفظ للسيف خمسين اسما. فتبسم أبو على و قال: أما أنا فلا أحفظ له إلا اسما واحدا و هو السيف. قال ابن خالويه: فأين المهنّد و الصارم و كذا و كذا .. فقال أبو على: هذه صفات، و كأن الشيخ لا يفرّق بين الاسم و الصفة.

فمن هنا تضيق السبل على من ينشد الدقة فى التعبير و الصدق فى تصوير المعانى و المشاعر. إذ تسقط فائدة المترادفات من حسابه، لما يختصّ به كلّ منها من دلالة و صفة معينة، و لا يمكن أن يتمثل متن هذه اللغة كلها أمام عينيه، ليلتقط منها ما يأتى مفصّلا على قدر مشاعره و أفكاره. و إنما هو يأخذ منها- كما قلنا- ما تبادر إلى ذاكرته و قرب إلى لسانه.

و عندئذ إما أن يقع فى تطويل لا فائدة منه، و إما أن يجنح إلى اختصار مفسد مخلّ، و إما أن يقع فى كلامه على ألفاظ و تعابير تفسد عليه تصوره و تشوش على السامع مقصوده. و إذا اتسعت أمامه السبل فى التعبير عن بعض معانيه و أفكاره، ضاقت عليه السبل لدى محاولة التعبير بدقة عن المعانى الأخرى.

و ما كاتب من الكتاب أو بليغ من البلغاء، ممّن سمعت بهم قديما أو حديثا، إلا و فيه هذه النقائص أو واحدة منها.

فمن أجل هذين السببين، يعانى الإنسان- مهما سمت درجته البلاغية و طاقته التعبيرية- من العجز، تجاه محاولته التعبير عن المعانى و المشاعر التى يريد التعبير عنها بدقة. و لا ريب أنه عجز متفاوت تبعا لتفاوت القدرات البلاغية و التعبيرية، عند الناس. إلا أن العجز سمة ثابتة للجميع بمعناه الإجمالى.

من روائع القرآن، ص: ۱۳۹

فإذا تجلّت لك هذه الحقيقة، فلتعلم أن الإعجاز البلاغى فى القرآن، ليس شيئا أكثر من كونه متحررا عن هاتين الظاهرتين اللتين يتجسد فيهما عجز الإنسان.

اقرأ ما شئت من سور القرآن و آياته، تجد أن كلّا من جانبى اللفظ و المعنى فيه متوافقان متطابقان أتمّ ما يكون الوفاق و التطابق. لا تشعر أن حرفا واحدا يفيض فى جانب اللفظ عن المعنى و لا تشعر أن أىّ جانب فى المعنى- مهما دقّ و لطف- قد تقاصر اللفظ أو التعبير عن الدلالة عليه.

فهذا هو مصدر الإعجاز البلاغى فى كتاب اللّه تعالى.

و لكن ما الدليل على أن القرآن قد تسامى على هاتين الظاهرتين اللتين يتجسد فيهما عجز الإنسان لدى محاولة تعبيره عن المعانى و الأفكار؟

يتجلى الدليل على ذلك من خلال شرح (و لو يسير) لمظاهر الإعجاز البلاغى، و هذا ما سنبدأ به الآن:

المظهر الأول (الكلمة القرآنية):

إن للكلمة القرآنية مزية لا تجدها فى الكلمات التى يتكون منها كلام الناس و تعابيرهم مهما سمت فى مدارج البلاغة و البيان.

فهى أولا: تتناول من المعنى سطحه و أعماقه و سائر صوره و خصائصه.

و لا تقف عند العموميات التى تقف عند حدودها تعبيراتنا البشرية التى تعانى من العجز الذى أوضحناه.

و هى ثانيا: تمتاز عن سائر مرادفاتها اللغوية بتطابق أتم مع المعنى المراد.

فمهما استبدلت بها غيرها، لم يسدّ مسدّها و لم يغن غناءها، و لم يؤد الصورة التى تؤديها «۱».

---

(۱) إنما يتجلى الإعجاز فى الكلمة القرآنية، عند ما تكون مستقرة فى مكانها من الجملة القرآنية فلا ينطبق شىء مما سنقوله فى هذا الصدد على الكلمات القرآنية إذا التقطتها خارج منازلها القرآنية كقواميس اللغة أو كلام الناس مثلا.

من روائع القرآن، ص: ۱۴۰

و لك أن تسأل: و لكنك أوضحت آنفا عجز اللغة عن التعبير عن جميع المعانى و المشاعر، فكيف يتأتى للقرآن أن يسخر كلماته لما وراء الحدود التى تقف عندها طاقة اللغة ذاتها، و هو إنما يستعمل فى تعبيراته اللغة ليس إلا؟؟

و الجواب: أن القرآن يتناول- كما سترى- من الكلمات المترادفة أدقها دلالة، و أتمها تصويرا بالنسبة إلى نظائرها. فإذا استنفدت اللغة طاقتها و لا تزال بقية من المعنى أو الصورة شاردة وراء حدود اللغة، اتسعت لها الكلمة القرآنية و شملتها عن طريق ما تتسم به من جرس و وزن و إيقاع.

و لن تعثر مهما حاولت، على أى ضابط لهذا الجرس و الوزن و الإيقاع، مؤملا أن تطبقه فى كلامك و تعبيرك. إنما هو الإحساس الذى يفيض به شعور القارئ عند تلاوته لهذه الكلمات أو سماعه لها مسبوكة مع بعضها، قائمة ضمن هيكلها القرآنى الفريد.

فأغطش مثلا فى قوله تعالى: أَغْطَشَ لَيْلَها وَ أَخْرَجَ ضُحاها مساو من حيث الدلالة اللغوية لأظلم. و لكن «أغطش» تمتاز بدلالة أخرى من وراء حدود اللغة يستقل بها الوزن و جرس الأحرف متآلفة مع بعضها. فالكلمة بهذه الدلالة تعبّر عن ظلام انتشر فيه الصمت و عمّ فيه الركود و تجلّت فى أنحائه مظاهر الوحشة. و لست بحاجة- لفهم هذه الصورة من الكلمة- إلى وساطة لغة أو مراجعة قاموس و إنما هو إحساس ينبعث فى نفسك من طبيعة الكلمة و وقع حروفها.

و كذلك «سكنا» من قوله تعالى: فالِقُ الْإِصْباحِ وَ جَعَلَ اللَّيْلَ سَكَناً وَ الشَّمْسَ وَ الْقَمَرَ حُسْباناً فهى من حيث الدلالة اللغوية مثل قولك: هدوءا، طمأنينة .. و لكن المعنى الذى تبثه فى شعورك الكلمة القرآنية، لا تجد شيئا منه فى غيرها مهما تساوى معها فى أصل الدلالة اللغوية.

إن طبيعة الأحرف التى تتكون منها كلمة «سكنا» مع توالى الفتحات على حروفها، تشعرك بذلك الهدوء الذى يبعث الطمأنينة و ينشر الأمن و الراحة فى أنحاء النفس. دون أن تحتاج فى ذلك إلى معرفة أى دلالة لغوية.

من روائع القرآن، ص: ۱۴۱

ثم حاول أن تحذف كلمة واحدة من كلمات هذه الآية، و أن تستبدل بها غيرها، مما يؤدى المعنى ذاته، مستعينا باللغة و قواميسها، فلسوف ترى أن اللغة كلها أعجز من أن تأتى بألفاظ مثلها أو خير منها فى الدلالة على المعنى و تصوير الأحاسيس المطلوب تصويرها. و مهما غيّرت فى الآية أفسدت من بهائها و نقصت من روعتها و إشراقها. ابحث عن أىّ كلمة تقوم مقام «فالق» فى أداء المعنى و تصوير المراد و تجسيم الفكرة، أو ابحث عن أى كلمة أخرى تضعها موضع «الإصباح» فى دلالتها على الحركة و الانبثاق و بثّ الصورة المطلوبة، أو حاول أن تأتى بكلمة أخرى مكان «سكنا» أو بكلمة أخرى أدلّ و أخصر و أجمع من هذه الكلمة العجيبة «حسبانا» فإنك

لن تملك من ذلك كله إلا إفساد الآية، و تشويه دلالتها.

و ربما عجزت اللغة عن اللحاق بالصورة المحلقة التى يريد المتكلم أو الكاتب أن يبثّها فى خيال السامع، فاضطر أن ينزل عن بساط خياله المحلّق، لحاقا بكلمة تقف دون الصورة التى يريدها، لا يجد فى اللغة سواها، فيفسد بها الصورة كلها.

غير أن القرآن لا- يعجزه أن تكون الكلمة دائما فى مستوى المعنى المراد، على أدق وجه، فهو يصعد باللغة إلى المعنى أو الصورة المطلوبة، و لا ينزل بالمعنى أو الصورة إليها فى حال من الأحوال.

انظر حينما يصف البيان الإلهى دعوة امرأة العزيز للنسوة اللاتى يتحدثن، منتقدات، عن مراودتها ليوسف عن نفسه، إلى جلسة رائعة مترفة فى بيتها، لتطلعهنّ فيها على يوسف، فيعذرنها فيما أقدمت عليه ... لقد قدّمت لهنّ فى ذلك المجلس طعاما و لا ريب. و لقد أوضح القرآن هذا، و لكنه لم يعبّر عن ذلك بالطعام، و هو اللفظ الذى لا بدّ أن يعبّر به أو بنظيره أىّ واحد من الناس مهما امتلك ناصية البلاغة و البيان، لم يعبّر البيان الإلهى بهذه الكلمة لأنها إنما تصوّر شهوة الجائعين من حوله، و تنقل الفكر و الخيال إلى (المطبخ) بكل ما فيه من ألوان الطعام و روائحه و أسبابه.

فبما ذا عبّر القرآن إذن؟ ... و أين فى اللغة الكلمة التى تؤدى معنى الطعام

من روائع القرآن، ص: ۱۴۲

و لا تمسّ الصورة بأى تعكير أو تشويه؟

لقد أبدع القرآن لذلك تعبيرا عجيبا رائعا ... فانظر ما ذا قال:

فَلَمَّا سَمِعَتْ بِمَكْرِهِنَّ أَرْسَلَتْ إِلَيْهِنَّ وَ أَعْتَدَتْ لَهُنَّ مُتَّكَأً ...

(يوسف: ۳۱).

مُتَّكَأً كلمة قرآنية، تصور لك من الطعام ذلك النوع الذى لا يقدّم إلا ترفا و تفكها و تجميلا للمجلس و توفيرا لمظاهر المتعة فيه، حتى إن الشأن فيه أن يكون الإقبال إليه على حالة من الراحة و الاتكاء. و الكلمة من الألفاظ الكثيرة التى أبدع القرآن صياغتها و اشتقاقاتها فتعلق العرب بها من بعد، و لو لا ذلك لما اهتدوا إليها و لخانتهم اللغة فى هذا الباب عن تصوير ما يريدون.

و نظرا إلى أن القرآن إنما تنزل خطابا للناس جميعهم، على تفاوت ثقافاتهم، و اختلاف عصورهم فإن الكلمة القرآنية تنطوى على دلالات متعددة، تستجيب للظروف كلها و لأحوال الناس كلهم، إذا كانت تلك الكلمة تتعلق بمعنى يختلف من عصر إلى آخر أو يتفاوت فهم الناس له، حسب تفاوت ثقافاتهم و علومهم. من روائع القرآن ۱۴۲ المظهر الأول(الكلمة القرآنية): ..... ص : ۱۳۹

و مكان الغرابة و العجب، فى هذه الكلمات، أن دلالاتها لا تتناقض على الرغم من اختلافها، و لا يشرد شىء منها عن قواعد اللغة و مقتضياتها، فهى تحتضن فى وقت واحد هذه الدلالات، لتقدم إلى كل عصر أو فئة من الناس ما هو أقرب إلى مألوف ذلك العصر أو ثقافة أولئك الناس. و جميعها دلالات صادقة صحيحة لا تنسخ واحدة منها الأخرى.

و أنت لو حاولت أن تلتقط من اللغة كلمات مرنة غنية بهذا الشكل، لرأيت أن الأمر يحتاج إلى جهد عظيم لا يمكن أن ترقى إليه طاقة البشر. مهما أوتى من قوة الحفظ و سموّ البيان.

من الأمثلة على ذلك أن القرآن حدّثنا عن مظاهر نعم اللّه على عباده، و من جملتها النار. فنبّهنا إلى مختلف فوائدها لحياتنا، و أوضح أنها متاع يحتاج إليه فى حالات السفر و اجتياز القفار، و لتحضير الطعام، و لما وراء ذلك من أسباب

من روائع القرآن، ص: ۱۴۳

المتعة و الرفاهية ... فكم هى الكلمات أو الجمل التى تتصور أنها وفّت بالتعبير عن هذه الفوائد كلها؟

إنها ليست أكثر من كلمة واحدة! ...

و اسمع فى ذلك قول اللّه عزّ و جلّ: أَ فَرَأَيْتُمُ النَّارَ الَّتِى تُورُونَ، أَ أَنْتُمْ أَنْشَأْتُمْ شَجَرَتَها أَمْ نَحْنُ الْمُنْشِؤُنَ، نَحْنُ جَعَلْناها تَذْكِرَةً وَ مَتاعاً

لِلْمُقْوِينَ (الواقعة: ۷۲ و ۷۳).

المقوين! ... هذه هى الكلمة التى تحمل المعانى كلها. فالمقوين جمع مقو، أى نازل فى القواء (و هو المكان القفر) أو مجتاز بها، و عليه قول النابغة:

يا دار ميّة بالعلياء فالسّندأقوت و طال عليها سالف الأمد و المقوين أيضا من القوى و هو الجوع، و عليه قول حاتم الطائى:

و إنى لأختار القوى طاوى الحشامحاذرة من أن يقال لئيم و المقوين أيضا جمع مقو، بمعنى مستمتع، كما قال مجاهد «۱» و عموم الاستمتاع فى هذا المعنى الثالث، إنما يفسره الزمن و تطور الأحوال و تقدّم أسباب الحياة و العيش.

فهل يطيق بشر، كائنا من كان، أن يخضع اللغة لمقاصده هذا الإخضاع العجيب، فيحشد مثل هذه المعانى المتباعدة فى كلمة واحدة، تأتى طوع قصده و مراده، بدون أى تمحّل أو تكلف أو تقعر؟! ...

إن العقل لا يرتاب فى أنها صنعة رب العالمين و كلامه.

و يتصل بهذا الذى نقول ما ذكرناه فى الخاصة الثالثة من خصائص الأسلوب القرآنى، و قد عرضنا فى بيان ذلك لأمثلة كثيرة من القرآن، فارجع إليه إن شئت «۲».

---

(۱) راجع مادة قوى فى لسان العرب و القاموس المحيط. و انظر تفسير القرطبى: ۱۷/ ۲۲۱.

(۲) انظر ص ۱۱۰ من هذا الكتاب.

من روائع القرآن، ص: ۱۴۴

المظهر الثانى: الجملة القرآنية:

اشارة

و يتلخص مظهر الإعجاز فى الجملة القرآنية فى الأمور الثلاثة التالية:

۱- الاتساق اللفظى و الإيقاع الداخلى.

۲- دلالتها بأقصر عبارة على أوسع معنى.

۳- إخراجها المعنى المجرد فى مظهر الأمر المحسوس.

فلنتناول كلّا من هذه الأمور الثلاثة ببيان موجز يتلاءم مع طبيعة هذا البحث.

أولا: الاتساق اللفظى و الإيقاع الداخلى:

لا بدّ أن تجد الجملة القرآنية مؤلفة من كلمات و حروف ذات أصوات يستريح لتآلفها السمع و الصوت و النطق، و يتكون من اجتماعها على الشكل الذى رتبت عليه، نسق جميل ينطوى على إيقاع خفى رائع، ما كان ليتم لو نقصت الجملة كلمة أو حرفا أو اختلف ترتيب ما بينها بشكل من الأشكال.

و القرآن كله مثال على هذه الحقيقة الجليّة. و لكن إذا كان لا بدّ من أمثلة و نماذج نعرضها فإليك هذه الأمثلة، و اعلم أن الجمل القرآنية كلها جارية على منوالها:

اقرأ مثلا قول اللّه تعالى: وَ لَقَدْ أَنْذَرَهُمْ بَطْشَتَنا فَتَمارَوْا بِالنُّذُرِ «۱».

و اقرأ قول اللّه تعالى: فَفَتَحْنا أَبْوابَ السَّماءِ بِماءٍ مُنْهَمِرٍ، وَ فَجَّرْنَا الْأَرْضَ عُيُوناً فَالْتَقَى الْماءُ عَلى أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ، وَ حَمَلْناهُ عَلى ذاتِ أَلْواحٍ وَ دُسُرٍ، تَجْرِى بِأَعْيُنِنا جَزاءً لِمَنْ كانَ كُفِرَ «۲» و تأمل تناسق الكلمات فى كل جملة منها. ثم دقّق نظرك، و تأمل تآلف الحروف الرخوة

مع الشديدة و مع المهموسة و المجهورة و غيرها. ثم أمعن فى تآلف الحركات و السكنات و المدود و تعاطفها مع بعضها. فإنك إذا تأملت فى ذلك علمت أن هذه الجمل القرآنية إنما صبّت من الكلمات و الحروف

---

(۱) القمر: ۳۶.

(۲) القمر: ۱۱ و ۱۲ و ۱۳ و ۱۴.

من روائع القرآن، ص: ۱۴۵

و الحركات فى مقدار، و أن ذلك إنما قدّر تقديرا بعلم اللطيف الخبير، و هيهات للمقاييس البشرية أن تقرى على ضبط الكلام بهذه القوالب الدقيقة.

و على الرغم من أن القرآن لا ينضبط بشىء من أعاريض النظم و أوزانه المعروفة، إلا أنك تشعر مع ذلك بتوقيع موزون من تتابع كلماته، بحيث يؤلّف اجتماعها إلى بعضها لحنا مطربا يفرض نفسه على صوت القارئ العربى كيفما قرأ، إذا كانت قراءته صحيحة. كما تلاحظ لدى قراءتك لهذه الآيات.

و لعلّ من أبرز آثار هذه الظاهرة، أن حفظ القرآن غيبا أيسر على الإنسان من حفظ سائر أنواع النثر. ذلك لأنه منضبط بأوزان و إيقاعات خاصّة به، فيسهل بذلك حفظه و التنبه إلى الخطأ الذى قد يقع القارئ فيه عند ما يقرؤه غيبا. بل المعروف لدى من مارس حفظ القرآن أن الخطأ قلّما يقع فى حفظه و ضبطه إلا من وجه واحد، هو ما قد يكون بين الآيات من تشابه، فيأتى الخطأ من خلط آية بأخرى و الوقوع فى اللبس بينهما.

ثانيا: دلالتها بأقصر عبارة على أوسع معنى:

و هذه ظاهرة جليّة تستطيع أن تتبينها فى طريقة التعبير القرآنى، مهما اختلفت بحوثه و موضوعاته لا تجد فى الجملة القرآنية كلمة زائدة يصلح المعنى مع الاستغناء عنها، و لا تستطيع أن تترجم معناها بألفاظ عربية من عندك إلا فى عدد من الجمل مهما حاولت الإيجاز و الاختصار.

و لنستعرض طائفة من الأمثلة على ذلك، و القرآن كله، كما قلنا، مثال على هذه الحقيقة. حدّثنا القرآن عن الضمانات التى أعطاها لآدم بعد خلقه، مما يحتاجه الإنسان فى حياته من كل ما يدخل فى مقوّمات بقائه و عيشه. لقد وضع البيان الإلهى هذه الاحتياجات كلها فى جملتين فقط و هما قوله عزّ و جلّ خطابا لآدم:

إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيها وَ لا تَعْرى وَ أَنَّكَ لا تَظْمَؤُا فِيها وَ لا تَضْحى (طه: ۱۱۸ و ۱۱۹)، فتأمل فى هاتين الجملتين، و ألفاظهما و كيفية صياغتهما و كيف أنهما جمعتا أصول معايش الإنسان كلها من طعام و شراب و ملبس

من روائع القرآن، ص: ۱۴۶

و مأوى. و انظر كيف عبّر عن تأمين حاجته إلى المسكن و المأوى بقوله: و لا تضحى ... أى لك أن لا تصيبك شمس الضحى أو يؤذيك لفحها بما نهيئه لك من المسكن الذى يؤويك «۱».

و انظر إلى هذه الآية و قد تضمنت حكما من الأحكام الشرعية المهمة.

و هى قوله تعالى: وَ إِمَّا تَخافَنَّ مِنْ قَوْمٍ خِيانَةً فَانْبِذْ إِلَيْهِمْ عَلى سَواءٍ إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ الْخائِنِينَ (الأنفال: ۵۸). تأمل صياغة هذه الآية و طريقة دلالتها على المعنى الذى تعبّر عنه، تجد نفسك أمام أسلوب فريد ليس من دأب الإنسان أن يتأتى له التعبير بمثله.

و إليك ما يقوله ابن قتيبة و هو يحاول التعبير عن معنى هذه الآية بألفاظ عربية من عنده:

(أ لا ترى أنك لو أردت أن تنقل قوله تعالى: وَ إِمَّا تَخافَنَّ مِنْ قَوْمٍ ...

الآيـة، لم تسـتطع أن تـأتى بهـذه الألفـاظ مؤديـة عن المعنى الـذى أودعته حتى تبسط مجموعها، و تصل مقطوعها، و تظهر مستورها فتقول: إن كان بينك و بين قوم هدنة و عهد فخفت منهم خيانة و نقضا فأعلمهم أنك قد نقضت ما شـرطت عليهم و آذانهم بالحرب، لتكون أنت و هم فى العلم بالنقض على استواء) «۲».

و حسبك أن تعلم أن الآيات المتضـمنة لأحكام التشـريع، قـد لا تزيد على ثلاثمائة آية، إلا شـيئا يسـيرا و هى لا تبلغ معشار النصوص الفقهيـة التى دوّنهـا الفقهاء فيما بعـد، و لكن قـد ثبت بما لا يـدع مجالا للشك أن من أبرز مظاهر الإعجاز فى هـذه الآيات أن الطريقة الفريدة فى صياغة و تراكب جملها، تجعلها متسعة للدلالة على ذخر من المعانى الكثيرة التى لا يمكن التعبير عنها بطريقتنا المألوفة، إلا بواسطة مجلدات ...

خذ على سبيل المثال هذه الآية:

---

(۱) هذا إن اعتبرنا أنه كانت فى الجنة شـمس حينما أسـكن اللّه آدم فيها، أما إن قلنا لم يكن ثمة شمس و لا ظل إذ ذاك، فقوله: و لا تضحى مجرد بيان بأنه لن يصيبه أذى من حرّ لافح.

(۲) تأويل مشكل القرآن لابن قتيبة: ۱۶.

من روائع القرآن، ص: ۱۴۷

وَ الْوالِداتُ يُرْضِعْنَ أَوْلادَهُنَّ حَوْلَيْنِ كامِلَيْنِ لِمَنْ أَرادَ أَنْ يُتِمَّ الرَّضاعَةَ وَ عَلَى الْمَوْلُودِ لَهُ رِزْقُهُنَّ وَ كِسْوَتُهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ، لا تُكَلَّفُ نَفْسٌ إِلَّا وُسْعَها، لا تُضَارَّ والِدَةٌ بِوَلَدِها وَ لا مَوْلُودٌ لَهُ بِوَلَدِهِ، وَ عَلَى الْوارِثِ مِثْلُ ذلِكَ. فَإِنْ أَرادا فِصالًا عَنْ تَراضٍ مِنْهُما وَ تَشاوُرٍ فَلا جُناحَ عَلَيْهِما. وَ إِنْ أَرَدْتُمْ أَنْ تَسْتَرْضِعُوا أَوْلادَكُمْ فَلا جُناحَ عَلَيْكُمْ إِذا سَلَّمْتُمْ ما آتَيْتُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَ اتَّقُوا اللَّهَ وَ اعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ بِما تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ (البقرة: ۲۲۳).

فهذه آية واحدة صيغت من ستة أسطر قرآنية، أى مما لا يزيد على ستين كلمة، و قد تضمنت ثلاثة و عشرين حكما مما يتعلق بنظام الأسرة، لم يستخرج واحد منها تمحلا و لا تكلفا. بل هو بين أن تكون الآية دلّت عليه بصريح المنطوق أو بجلى المفهوم أو بمقتضى النص. و أنت لو رحت تحاول التعبير عن هذه الأحكام بصياغة جليّة دون اختصار مخلّ أو إطالة من غير لزوم، لاقتضى ذلك منك ما لا يقل عن خمسة و عشرين سطرا من الكلام أى خمسة أضعاف النص القرآنى.

و انظر إلى أحكام الميراث فى كتاب اللّه عزّ و جلّ، و تأمل كيف صيغت فيما لا يزيد عن ثلاثة عشر سطرا من أسطر القرآن، موزعة فى آيتين. فلقد حوت هاتان الآيتان- فى غير إخلال و لا تمحّل- أحوال الوارثين و نصيب كلّ منهم فى كل حال من الأحوال. و لقد انبثق من هاتين الآيتين فن مستقل برأسه يمثّل شطرا كبيرا من أحكام الشريعة الإسلامية. و هو ما يسمى بعلم الميراث، و قد كتبت فيه مؤلفات مستقلة. و إنك لتعجب كيف اتّسع مضمون آيتين من القرآن لمدلولات كتاب برأسه ... و لكن انظر، و تأمل و قارن، فستجد أن هذا الذى تعجب منه حقيقة ثابتة.

ثالثا: إخراج المعنى المجرد فى مظهر الأمر المحسوس:

و لكى يتجلى لك معنى الإعجاز فى هذه المزية الثالثة التى تمتاز بها الجملة القرآنية، ينبغى أن نمهد لذلك بما يلى:

إن الذى أوتى ملكة فى الآداب و البلاغة العربية، لا يعدم أن يجد وسيلة

من روائع القرآن، ص: ۱۴۸

إلى تجسيد المعانى المجردة فى كلامه و إخراجها فى مظهر الأمر المحسوس. إلا أن هذه الوسيلة محصورة فى استعمال الاستعارات و المجازات و التشبيهات. و لكل ذلك طرق محدودة لا مجال للخروج عليها. فهو يستطيع أن يصل بهـذه الوسيلة إلى غايته التصويرية

بمقدار و ضمن حدود.

أما أن يجعل أحدنا من صياغة الجملة ذاتها و من تآلف كلماتها مع بعض، مرآة يتجسد فيها المعنى المطلوب و يبرز محسوسا و مصورا أمام خيال القارئ، فذلك ما لا سبيل للإنسان إليه. و تلك هى الطريقة الغالبة لتصوير المعانى و تجسيدها أمام المخيلة فى كتاب اللّه عزّ و جلّ. فحتى عند ما تجد الجملة القرآنية بعيدة عن استعمال المجاز و الاستعارة و الكنايات، ترى هذه الظاهرة بارزة متجلية فى جمل القرآن و آياته.

و لن نطيل القول هنا فى هذا الجانب الثالث فسنتناوله إن شاء اللّه بالتفصيل و ذكر الأمثلة فى مبحث التصوير فى القرآن.

ثانيا: الإعجاز بالغيبيات:

و نقصد بالغيبيات تلك الإخبارات المتعلقة بأحداث مقبلة، و التى لم يظهرها بعد أىّ شاهد من العقل أو الحس أو الدلائل التى تعوّد الإنسان على الاعتماد عليها. سواء تعلقت هذه الأخبار بأحداث عامة، أو تعلقت بأناس أو فئات بأعيانهم، أو تعلقت بنواميس كونية.

ففى القرآن آيات كثيرة أخبرت عن أحداث ستقع فى زمن مقبل، و فيه آيات تحدّثت عن مصائر أشخاص بأعيانهم، و فيه نصوص تقرر قوانين ثابتة بالنسبة لكثير من المظاهر الكونية المحيطة بنا. و قد جاء الزمن فيما بعد بمصداق هذه الأخبار كلها، دون أن يكون عليها أىّ شاهد من قبل، من حس أو عقل أو أىّ بيّنة من البيّنات.

فمن النوع الأول قول اللّه عزّ و جلّ: الم غُلِبَتِ الرُّومُ فِي أَدْنَى الْأَرْضِ وَ هُمْ مِنْ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ، فِي بِضْعِ سِنِينَ لِلَّهِ الْأَمْرُ مِنْ قَبْلُ وَ مِنْ بَعْدُ (الروم: ۱ و ۲).

من روائع القرآن، ص: ۱۴۹

و من المعلوم كما رواه الترمذى و غيره، و كما هو ثابت فى التاريخ أن الفرس انتصروا فى معركة بقيادة «شربزان» على الروم، و ذلك أيام كسرى.

و كان المشركون يحبّون أن يظهر أهل فارس على الروم لأنهم و إيّاهم أهل أوثان.

و كان المسلمون يحبّون أن تظهر الروم على فارس لأنهم أهل كتاب. فلما أنزل اللّه هذه الآية، و فيها إخبار كما ترى بأن الروم سيعودون فينتصرون على الفرس فى بضع سنين، أى فى أقل من عشر سنين، خرج أبو بكر يصيح بها فى نواحى مكة. فقال له: أناس من قريش، فذلك بيننا و بينكم، أ فلا نراهنك على ذلك؟ قال: بلى ... و ذلك قبل تحريم الرهان. فارتهن أبو بكر و المشركون و تواضعوا الرهان. و قالوا لأبى بكر: كم تجعل البضع؟ ثلاث سنين أو تسع سنين؟ فسمّوا بينهم ست سنين، فمضت السنوات الست قبل أن يظهر الروم، فأخذ المشركون رهن أبى بكر، فلما دخلت السنة السابعة ظهرت الروم على فارس قال: و أسلم عند ذلك كثيرون ... و فى رواية أخرى أنه لما مرّت السنوات الست و لم يظهر الروم. قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم لأبى بكر: ارجع فزدهم فى الرهان و استردهم فى الأجل، ففعل أبو بكر: فغلبت الروم فى أثناء الأجل.

و منه قوله تعالى: لَقَدْ صَدَقَ اللَّهُ رَسُولَهُ الرُّؤْيا بِالْحَقِّ، لَتَدْخُلُنَّ الْمَسْجِدَ الْحَرامَ إِنْ شاءَ اللَّهُ آمِنِينَ مُحَلِّقِينَ رُؤُسَكُمْ وَ مُقَصِّرِينَ (الفتح: ۲۷).

و معلوم أن هذه الآية نزلت فى حالة لم يكن المسلمون يتوقعون أن يدخلوا فيها مكة لطواف أو غيره، فقد رأوا من المشركين صدّا و عسفا و إيذاء، و لكن العام الذى تلا تلك الحالة جاء فصدّق هذه الآية و لاحت للناس الحكمة من الصدّ و الصلح، و تبين أن كل ذلك جاء مقدمة دقيقة و عجيبة بين يدى فتح مكة سلما كما شاءه اللّه عزّ و جلّ. و هو ما أخبر اللّه عنه فى آخر هذه الآية بقوله:

فَعَلِمَ ما لَمْ تَعْلَمُوا فَجَعَلَ مِنْ دُونِ ذلِكَ فَتْحاً قَرِيباً.

و لو وضعت الأمر فى ميزان التقديرات الفكرية و المنطقية، عند ما أنجز صلح الحديبية، لما رأيت أى دليل يمكن الاعتماد عليه، على

أن ثمرة هذه الصلح سيكون فتح مكة عمّا قريب، و أىّ فتح؟ فتح سلمى لا تتناوش فيه السيوف، و لا يقع فيه قتال يذكر.

من روائع القرآن، ص: ۱۵۰

و من النوع الثانى: آيات تحدّثت عن أشخاص بأعيانهم، أنبأت عن مصائرهم، و كشفت عن حكم اللّه المبرم فى حقهم. من ذلك قول اللّه تعالى عن أبى لهب عبد العزّى بن عبد المطلب عم الرسول صلّى اللّه عليه و سلّم: تَبَّتْ يَدا أَبِي لَهَبٍ وَ تَبَّ، ما أَغْنى عَنْهُ مالُهُ وَ ما كَسَبَ. سَيَصْلى ناراً ذاتَ لَهَبٍ إنك إذا تأملت هذه الآيات و ما قد تضمنته من إخبار عن مستقبل هذا الرجل و ما سيئول إليه حاله، علمت أن أحدا من الناس لا يملك أن يطلق هذا الوعيد و يسجله فى عنق الزمن و على صفحة الدهر. فما الذى يدرى هذا الإنسان أن أبا لهب سيثبت على كفره إلى الموت، و ما هى ضمانات أنه لن يؤمن كما آمن الكثير ممّن هم أشد منه كفرا و أقسى عنادا؟ بل ما الذى يطمئن هذا الإنسان إلى أن أبا لهب لن ينهض به دافع التحدّى عند ما يسمع هذا الوعيد المسجل فى حقه إلى أن يعلن إيمانه باللّه و رسوله على الملأ، ليثبت بذلك أنه قد محا أسباب شقوته، و أن إخبار القرآن عن مصيره مخالف للواقع الذى تم.

إن بشرا من الناس لن يستوثق من تقلبات الزمن، و ما قد يطرأ من الأحوال و الأفكار الجديدة على أبى لهب و أمثاله، و نظرا لذلك فلن يجد من الجرأة ما يعتمد عليه فى إطلاق مثل هذا الخبر الغيبى المخبوء فى تلافيف المستقبل.

و مثله قول اللّه عزّ و جلّ فى حق الوليد بن المغيرة المخزومى:

ذَرْنِي وَ مَنْ خَلَقْتُ وَحِيداً، وَ جَعَلْتُ لَهُ مالًا مَمْدُوداً، وَ بَنِينَ شُهُوداً، وَ مَهَّدْتُ لَهُ تَمْهِيداً، ثُمَّ يَطْمَعُ أَنْ أَزِيدَ، كَلَّا إِنَّهُ كانَ لِآياتِنا عَنِيداً سَأُرْهِقُهُ صَعُوداً إلى قوله: سَأُصْلِيهِ سَقَرَ وَ ما أَدْراكَ ما سَقَرُ، لا تُبْقِي وَ لا تَذَرُ ....

إن هذا الإخبار الغيبى: سأرهقه صعودا ... سأصليه سقر ... ليس مما يتجرأ إنسان عليه لأن الإنسان يفرض الاحتمالات المختلفة للزمن، و الأطوار المفاجئة العجيبة للإنسان، و هو ليس مطّلعا على ما قد يأتى به الغد أو ما قد يفاجأ به فكر الإنسان. و لكنه إخبار غيبى يصدر عمّن بيده مصير الزمن و المكان، و عمّن يعلم خائنة الأعين و ما تخفى الصدور و ما ينتهى إليه حال أىّ إنسان.

من روائع القرآن، ص: ۱۵۱

و تدخل فى هذا النوع تلك الآيات التى أخبرت عن اليهود و ما قضى اللّه بشأنهم إلى قيام الساعة كقوله تعالى: وَ أَلْقَيْنا بَيْنَهُمُ الْعَداوَةَ وَ الْبَغْضاءَ إِلى يَوْمِ الْقِيامَةِ، كُلَّما أَوْقَدُوا ناراً لِلْحَرْبِ أَطْفَأَهَا اللَّهُ وَ يَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَساداً (المائدة: ۶۴). و كقوله: وَ إِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكَ لَيَبْعَثَنَّ عَلَيْهِمْ إِلى يَوْمِ الْقِيامَةِ مَنْ يَسُومُهُمْ سُوءَ الْعَذابِ (الأعراف: ۱۶۷). و كقوله عزّ و جلّ: وَ قَطَّعْناهُمْ فِي الْأَرْضِ أُمَماً مِنْهُمُ الصَّالِحُونَ وَ مِنْهُمْ دُونَ ذلِكَ وَ بَلَوْناهُمْ بِالْحَسَناتِ وَ السَّيِّئاتِ ... (الأعراف: ۱۶۸).

و أنت إذا نظرت إلى تاريخ اليهود فى العالم، و إذا تأملت ظاهرة انتشارهم و تفرقهم بين الأمم و الشعوب، و كيف يختبئون خلف كل فتنة يهيجونها، و وراء كل نار يوقدونها، و كيف يبعث اللّه عليهم بين الحين و الآخر من يسومهم سوء العذاب، و كيف أنهم- على الرغم من مراسهم لأسباب الفتن و الحروب و سيطرتهم على الكثير من أسواق العالم و تجاراته- لم يأتوا من جهدهم بطائل، و لم تقم لهم قائمة يطمئنون إليها، بل ظلوا مقطعين فى الأرض. أقول: إذا تأملت فى ذلك كله أدركت أن إخبارات القرآن عنهم وقعت كما أخبر، و أن الزمن ماض فى تحقيق المزيد منها.

إنك لتلاحظ تناقضا عجيبا فى واقع اليهود و شأنهم الذى يتقلبون فيه.

فهم الذين يملكون ينابيع كثير من الثروات فى العالم، و هم الذين كانوا و لا يزالون يلعبون بالذهب فى أسواق العالم خفضا له و رفعا، و هم الذين يختبئون خلف الكثير من سياسات العالم و قياداته يوجهون و ينذرون و يغرون ...

و لكنك تلاحظ أنهم- على الرغم من هذا كله- لم يستطيعوا أن ينشئوا لأنفسهم دولة مستقرة أو كيانا مطمئنا، و إن الأمم التى أنشأت كياناتها و استقرت فى أوطانها، وصلت إلى ما ابتغته من ذلك منذ عصور بعيدة، باليسير مما يملكه اليهود و يسيطرون عليه.

فما تحليل هذا التناقض؟ ... تحليله الوحيد أن الأمر فى جملته تصديق أمين لحكم اللّه فيهم و وعيد اللّه لهم، إنه قرار اللّه عزّ و جلّ: وَ

قَطَّعْناهُمْ فِي الْأَرْضِ أَمَماً يلاحقهم فى كل حين و على كل حال. و أنه حكم اللّه عزّ و جلّ: وَ إِذْ

من روائع القرآن، ص: ۱۵۲

تَأَذَّنَ رَبُّكَ لَيَبْعَثَنَّ عَلَيْهِمْ إِلى يَوْمِ الْقِيامَةِ مَنْ يَسُومُهُمْ سُوءَ الْعَذابِ يهيمن عليهم فى حالة العسر و اليسر، و فى تقلبات البأس و الضعف.

و من النوع الثالث: آيات كثيرة تعلن، فى بيانات حاسمة عن نواميس كونية، و تخبر أنها ستظل قوانين نافذة حاكمة على الناس كلهم و على الطاقة العلمية كلها، مهما تنوعت و تقدمت صعدا. فهى تستعصى على كل محاولات التغيير و التطوير، و إليك بعضا من هذه الآيات:

- وَ مَنْ نُعَمِّرْهُ نُنَكِّسْهُ فِي الْخَلْقِ أَ فَلا يَعْقِلُونَ (يس: ۶۸).

- أَيْنَما تَكُونُوا يُدْرِكْكُمُ الْمَوْتُ وَ لَوْ كُنْتُمْ فِي بُرُوجٍ مُشَيَّدَةٍ (النساء: ۷۸).

- وَ أَنْزَلْنا مِنَ السَّماءِ ماءً بِقَدَرٍ فَأَسْكَنَّاهُ فِي الْأَرْضِ وَ إِنَّا عَلى ذَهابٍ بِهِ لَقادِرُونَ (المؤمنون: ۱۸).

- وَ يَسْئَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَ ما أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا (الإسراء: ۸۵).

- نَحْنُ قَسَمْنا بَيْنَهُمْ مَعِيشَتَهُمْ فِي الْحَياةِ الدُّنْيا وَ رَفَعْنا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجاتٍ، لِيَتَّخِذَ بَعْضُهُمْ بَعْضاً سُخْرِيًّا (الزخرف: ۳۲).

تأمل فى هذه التقارير القاطعة فى أسلوبها، المطلقة عن قيود الزمان و المكان، المرسلة فى قوة و إصرار إلى أعماق غيوب المستقبل، المتجاهلة بل المترفعة عن محاولات التطوير و العلم، أ يمكن أن ينطق بها بشر؟ ... و هل الإنسان نفسه إلّا ذرّة من جزئيات الكون، فهو لا يدرى ما الذى يأتى به الغد أو يتطور إليه العلم، أو تمتد إليه الطاقة؟

إن أعظم العلماء شأنا اليوم، يرى الحقيقة العلمية بعينيه، ثم يتحفظ مع ذلك فى التعبير عنها، متوقعا أن يفاجأ فى كل يوم بقيود أو حدود جديدة لها.

فأىّ رجل هذا الذى يستطيع أن ينهض من وراء القرون الغابرة، فيبعث إلى الدنيا كلها بتقرير علمى جازم يفصّل فيه أمر النواميس الكونية الراسخة، و يرفعها فوق هام البشرية مؤكدا أن أى طاقة، مهما كانت، لن تمتد إليها بأى تغيير؟

من روائع القرآن، ص: ۱۵۳

إنها معجزة الإخبار اللغوى، يقرره البيان الإلهى، صادرا عن الخالق ذاته، صاحب هذه النواميس و مبدعها، متحديا قدرات التطوير و وسائل البحث و التغيير. و تلك هى الدنيا و أجيالها، و طموح العلم و البحث فيها، كل ذلك خاضع خضوعه المطلق لهذه القوانين و النواميس.

و لعلّ هذه النماذج كافية لبيان ظاهرة الإعجاز الغيبى فى القرآن. و لعلك تلاحظ أن ما يسمى عند بعضهم بالإعجاز العلمى يندرج تحت الإعجاز الغيبى، لأن الآيات التى تتضمن حقائق علمية صدقت عليها موازين العلوم و الاكتشافات الحديثة، تتضمن حقائق غيبية فى الوقت ذاته.

ثالثا: الإعجاز بالتشريع:

تحدّث كثير من الكاتبين عن الإعجاز التشريعى فى القرآن، بطريقة لا أظن أنها تكشف حقيقة عن جانب جديد من الإعجاز القرآنى، ينبع من أحكامه التشريعية. و قصارى ما ينتهى إليه ذهن القارئ أو المتتبع لهذه الطريقة، إن فى القرآن تشريعا أصيلا و أحكاما مهمة و ضرورية لمصالح الناس و إن علماء الشرائع و القانون لا- غنى لهم، على مرّ العصور، عن الإفادة منها و الرجوع إليها. أما أنا تشكل مظهرا من مظاهر الإعجاز فى القرآن، فذلك شىء آخر قد يخفى على من يدرس الإعجاز التشريعى فى القرآن بتلك الطريقة.

على أن الإعجاز التشريعى فى القرآن، حقيقة بارزة لا- تقبل ريبا و لا يكتنفها غموض، و لكن الأمر يحتاج إلى فهم حيثية الإعجاز التشريعى فيه، و هو ما فات التنبّه له، أو التنبيه إليه، لدى كثير من الباحثين.

و لا شک أن التنبّه إلى هذه الحيثية التى هى مكمن الإعجاز التشريعى فى القرآن يحتاج إلى مقدمة، نوجزها فيما يلى:

من المعلوم فيما أجمع عليه علماء القانون و الاجتماع، أن آخر ما يتوج به تقدم أىّ جماعة أو أمة فى نهضتها المدنية و الحضارية، هو تكامل البنية القانونية و التشريعية فى حياتها. أى إن ظهور صياغة قانونية متكاملة فى الأمة يعدّ الثمرة العليا لتقدمها الحضارى.

من روائع القرآن، ص: ۱۵۴

و لا- يمكن أن تنعكس هذه الظاهرة بحال من الأحوال، أى فلم تصادف أن تجد جماعة من الناس بدأت سيرها فى طريق الرقى و الحضارة بإرساء بناء قانونى متكامل لحياتها، بحيث جعلت منه منطلقها إلى الثقافة و الرقى الاجتماعى و الاقتصادى و العلمى. ذلك لأن الأمة التى لم تتقدم حضاريا بعد، و التى لا تزال تعيش فى عهد البداوة و فى ظل الأعراف القبلية، ليس فى حياتها الاجتماعية من التعقيد ما يشعرها بالحاجة إلى سن قانون و وضع تشريع. غير أنها تزداد شعورا بذلك، تدريجا كلما تقدمت حضاريا و ازداد تركيبها تعقيدا.

غير أن الذى ظهر فى الجزيرة العربية، قبل أربعة عشر قرنا، عكس هذا الذى أجمع عليه علماء القانون و الاجتماع، و عرفه الناس من تجارب الأمم و وقائع التاريخ ... فلقد ظهر فجأة بين تلك الجماعات الأميّة من أهل الجزيرة العربية، قانون متكامل يتناول الحقوق المدنية، و الأحوال الشخصية و يرسم العلاقات الدولية و يضع نظام السلم و الحرب و يضبط آثارهما ... كل ذلك، و لما تتعلم تلك الجماعات بعد شيئا عن معنى المجتمع الذى يحتاج إلى قانون، و لما تأخذ بنصيب من العلم أو الحضارة و الثقافة مما يعدّ خطوات أساسية لا بدّ من اجتيازها فى طريق الوصول إلى المستوى الذى يوجد الشعور بالحاجة إلى وضع تشريع و قانون.

ففكّر ما طاب لك التفكير، هل تجد من حلّ لهذا اللغز العجيب، إلا فى اليقين بأن الكتاب الذى حوى هذا التشريع. إنما أنزل وحيا من عند اللّه و لم يؤلّف من قبل أىّ بشر على وجه الأرض ...

و إلا- فأين المفر من أعجوبة لا يقبلها عقل أىّ مفكر: أن تؤلف قبائل تظلها حياة البداوة البدائية البسيطة قانون توثيق العقود، و نظام توزيع التركات و المواريث، و ضوابط السلم و الحرب ثم تمر الأجيال و تتطور الظروف و الأحوال دون أن يشعر أى باحث منصف بأىّ موجب حقيقى لتغيير شىء من هذه النظم و الأحكام، بل تعقد لدراسته المؤتمرات العالمية بعد مرور أربعة عشر قرنا من وجوده، و تطبيق المسلمين له، و يجمع أساطين الفقه و القانون على أعقاب هذه المؤتمرات- على اختلاف مللهم و مذاهبهم- على الأهمية البالغة لهذا

من روائع القرآن، ص: ۱۵۵

التشريع و على ضرورة دراسته و الإفادة منه فى الدراسات المختلفة ... أ فيكون هذا التشريع الذى اتّسم بهذا الخلود من وضع جماعات من العرب و الأعراب الأميين الذى يحكمهم نظام البادية و أعراف القبيلة؟ ... أى مجنون هذا الذى يصدّق مثل هذا الخلط و الهراء؟ ...

من أجل هذا اللغز الذى لا يحلّ إلا باليقين بأن هذا القرآن كلام اللّه، ذهب الباحثون المستشرقون و من لفّ لفّهم يمينا و يسارا، فى البحث عن تحليل مقبول لقصة هذا التشريع الذى ظهر فجأة فى الجزيرة العربية، فمرّة فرضوا أنه مقتبس عن القانون الرومانى، و لما رأوا أنه لا توجد أىّ جسور واصلة ما بين هذه الفرضية و واقع الجزيرة العربية آنذاك، تحولوا عن هذا القول إلى فرض أنه مقتبس عن الشرائع اليهودية ... و لما أعوزهم الدليل على هذا الزعم العجيب، قالوا فلعلّه مقتبس عن شريعة حمورابى.

كل هذا، فرارا من لغز عجيب يلزمهم- إن هم لم يقبلوا وجها من هذه الوجوه- بالقول بأن هذا التشريع ظهر هكذا فى جو الجزيرة العربية، دون أن ينبع من أرضها لأنه غير معقول أو أن ينزل من سمائها، لأنهم لا يريدون أن يعترفوا بنبوّة محمد عليه الصلاة و السلام.

و نحن نقول: أما أنه لا يمكن أن يكون قد نبع من أرضها، فهو صحيح، لأن فاقد الشىء لا يعطيه بل لا يستشعر الحاجة إليه. و أما أنه لا يمكن أن يكون قد نزل من سمائها، فهذا ما نخالف فيه إن أردنا أن نحلّ اللغز حلّا يقبله المنطق و العقل. بل نقول إنه لا يمكن إلا أن

يكون شرعا منزّلا من السماء أى من لدن ربّ العالمين، نزل به الروح الأمين على قلب محمد صلّى اللّه عليه و سلّم ليكون من المبلغين له بلسان عربى مبين.

فإن لم نحلّ اللغز عن طريق اليقين بهذه الحقيقة، فلنعلم أن اللغز سيظل قائما. و سيظل كل عاقل فى حيرة من أمر هذا التشريع و مصدره، و لن يحلّ شيئا من الأشكال تلك الافتراضات العشوائية التى لا تعتمد على أىّ بينة أو برهان أو حتى إشارة يستأنس بها.

فهذه هى خلاصة القول عن الإعجاز التشريعى فى القرآن. أما القول

من روائع القرآن، ص: ۱۵۶

عن دقة هذا التشريع وسعته و مقوّمات خلوده و صلاحيته، فحدّث عن ذلك و لا حرج، و الكلام فى ذلك متشعب، و طويل الذيل. إلا أن الحديث فى ذلك خارج فى جملته عن حقيقة الإعجاز الذى نتكلم عنه. و إنما مكمن الإعجاز التشريعى هو ما قد أوضحناه بشكل موجز.

رابعا: مظهر جلال الربوبية:

لم أجد من فصل القول فى هذا الجانب من الإعجاز القرآنى، على الرغم من أنه من أبرز ما يظهر حقيقة الإعجاز القرآنى، فهو الجانب الذى لا يمكن أن يخفى حتى على العامّة الذين لا يتمتعون بدراية واسعة للبلاغة العربية أو الثقافة العامّة. إذا كانوا ممّن يقرءون القرآن بتأمل و تدبّر.

و مما لا ريب فيه أن أكثر الناس الذين يقرءون كتاب اللّه تعالى، و قد وقر فى أنفسهم أن هذا الكلام لا يمكن أن ينطق به بشر من الناس، دون أن يعلموا البرهان الواضح على يقينهم هذا، إنما يستشعرون فى الحقيقة، هذا النوع الذى نحن بصدد شرحه و تحليله، و هو ما أسميناه: مظهر جلال الربوبية فى القرآن، إلا أن من الطبيعى أن القارئ الذى لا يتمتع بثقافة أو دراية علمية واسعة لا يمكن أن يعبّر عن مصدر شعوره أو يقينه الذى تأثر به.

و لكى نحلّل هذا الجانب المهم من الإعجاز القرآنى، يجب أن ننبّه إلى حقيقة علمية و نفسية لا يقع فيها ريب و لا مراء. فما هى؟

من المعلوم أن الكلام مرآة دقيقة لطبيعة المتكلم. فما تتجلى الأغوار النفسية لشخص على شىء كما تتجلى على ما قد يكتبه أو يقوله. و كلما تبسط الإنسان و زاد من حديثه الذى يكتبه أو يقوله، ازدادت خصائصه النفسية جلاء و وضوحا.

لذا لم يكن من اليسير أن يقلّد كاتب كاتبا آخر فى أسلوبه إذا كتب. فلا يستطيع الرجل أن يتقمص نفسية المرأة فى كتابته، و لا يستطيع كاتب معاصر- مهما بلغ فى السيطرة على أسلوبه و قلمه- أن يقلّد كاتبا عاش قبل هذا العصر.

و لقد حاول كثيرون أن يقلدوا أسلوب الجاحظ و غيره فما استطاعوا إلى ذلك

من روائع القرآن، ص: ۱۵۷

سبيلا. ذلك لأن الأسلوب ليس طريقة معينة فى صوغ العبارة فقط، بل هو قبل ذلك مرآة لنفسية صاحب الأسلوب. فلئن استطاع الكاتب أن يقلّد الآخر فى صوغ العبارات، فهيهات أن يستطيع تقليده فى إبراز نفسية كنفسيته. فمن هنا يأتى العجز عن أن يتقمص أى كاتب أسلوب غيره.

و ليزداد الأمر وضوحا لك، افرض أن العقاد رحمه اللّه أحبّ أن يقلّد- و هو الكاتب القدير- أسلوب المازنى رحمه اللّه فى مرحه و دعابته، أ فيستطيع أن يفعل ذلك بنجاح؟ من البداهة بمكان أنه لا يقدر لأن ما طبع عليه العقاد من الجدّ و الغوص إلى أعماق المعانى، يحول دون إمكان ظهوره بمظهر إنسان مرح يتناول الأحداث و المعانى من جوانبها السطحية المضيئة ... و لو أن المازنى أراد هو الآخر أن يقلّد أسلوب العقاد. لوقع فى براثن العجز ذاته، لأنه لا يستطيع أن يتجرد عن طبعه و يرتدى طبعا آخر لم يفطر عليه ...

فإذا اتضح لنا أن الفوارق النفسية و الطبيعية تحول دون إمكان تقليد كلّ منّا للآخر فى أسلوب الكتابة و القول، على الرغم من وجود

الإنسانية العامّة قاسما مشتركا بين الجميع، فأحرى- فى باب البداهة و الوضوح- أن لا يستطيع إنسان من الناس أيّا كان، أن يتجرد عن بشريته و طبيعته، ثم يجعل من نفسه إلها يتصف بكل ما لا بدّ أن يتّصف به الإله من الصفات الربانية المضادة للطبيعة البشرية، و ينطق بكلام تبرز فيه هذه الألوهية بكل ما فيها من خصائص و صفات، و كل ما تمتاز به من تجرد عن مظاهر البشرية و الضعف الإنسانى.

و لكى نرى تطبيق هذه الحقيقة على كتاب اللّه تعالى، يجب أن نلاحظ أن الآيات القرآنية، تنقسم إلى طائفتين: أما طائفة منها فيتحدث فيها اللّه عزّ و جلّ على ألسنة أنبياء أو أشخاص آخرين، و ذلك فى نطاق القصص أو الإخبار عن أقوالهم. و لا كلام لنا فى هذا الصدد عن هذه الطائفة من الآيات.

الطائفة الثانية آيات ذاتية، أى يتكلم فيها اللّه عزّ و جلّ عن ذاته آمرا أو ناهيا أو مخبرا، فإذا تأملت فى هذه الآيات، رأيتها تتسم بجلال الربوبية و صفات الألوهية، و لم تجد فيها أى معنى من المعانى البشرية و الصفات

من روائع القرآن، ص: ۱۵۸

الإنسانية، كما ستجد الآن من خلال الأمثلة التى سنذكرها.

فإذا كان الإنسان عاجزا عن تقليد أسلوب أخيه الإنسان: بسبب حواجز الطبائع المتخالفة، أ فيكون قادرا على صياغة كلام بعيد عن شوائب البشرية، تشعّ منه رهبة الربوبية و ينشر من حوله جبروت الألوهية، أى: أ فيقدر الإنسان أن يجعل من نفسه ربّا للعالمين و ينطق باسمه محليا نفسه بصفاته بعد أن عجز أن يجعل من نفسه زيدا من الناس من أمثاله و أن ينطق بأسلوبه و يرتدى صفاته؟ ...

إن هذا مستحيل بلا شك ...

ذلك لأن الطبيعة البشرية لا يمكن أن تتخلى عن الإنسان لحظة من لحظات حياته، و من ثم فهى لا بدّ أن تعوقه عن القدرة على هذا الأمر. و إذا حاول أن يجرّب عن طريق الصنعة و التمثيل، فإنه لن يأتى إلا بكلام متنافر متهافت فى وحيه و دلالته، لا يدل إلّا على ما أقامه فى نفسه من ازدواج متكلف كاذب فى الطبع و الشعور.

و إليك بعض الأمثلة القرآنية التى يشعّ فيها جلال الربوبية و صفات الألوهية من خلق و إعدام و قدرة و إحاطة ... إلخ، تأملها جيدا، و تساءل مع نفسك: أ فيمكن أن تكون هذه الآيات مما قد نطق به بشر مثلنا من الناس:

فَوَ رَبِّكَ لَنَحْشُرَنَّهُمْ، وَ الشَّياطِينَ ثُمَّ لَنُحْضِرَنَّهُمْ حَوْلَ جَهَنَّمَ جِثِيًّا، ثُمَّ لَنَنْزِعَنَّ مِنْ كُلِّ شِيعَةٍ أَيُّهُمْ أَشَدُّ عَلَى الرَّحْمنِ عِتِيًّا، ثُمَّ لَنَحْنُ أَعْلَمُ بِالَّذِينَ هُمْ أَوْلى بِها صِلِيًّا، وَ إِنْ مِنْكُمْ إِلَّا وارِدُها، كانَ عَلى رَبِّكَ حَتْماً مَقْضِيًّا، ثُمَّ نُنَجِّي الَّذِينَ اتَّقَوْا وَ نَذَرُ الظَّالِمِينَ فِيها جِثِيًّا مريم: ۶۸- ۷۲.

إِنَّنِي أَنَا اللَّهُ، لا إِلهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدْنِي، وَ أَقِمِ الصَّلاةَ لِذِكْرِي، إِنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ أَكادُ أُخْفِيها لِتُجْزى كُلُّ نَفْسٍ بِما تَسْعى، فَلا يَصُدَّنَّكَ عَنْها مَنْ لا يُؤْمِنُ بِها وَ اتَّبَعَ هَواهُ فَتَرْدى (طه: ۱۴- ۱۷).

وَ إِنْ كادُوا لَيَفْتِنُونَكَ عَنِ الَّذِي أَوْحَيْنا إِلَيْكَ لِتَفْتَرِيَ عَلَيْنا غَيْرَهُ، وَ إِذاً لَاتَّخَذُوكَ خَلِيلًا، وَ لَوْ لا أَنْ ثَبَّتْناكَ لَقَدْ كِدْتَ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْئاً قَلِيلًا، إِذاً لَأَذَقْناكَ

من روائع القرآن، ص: ۱۵۹

ضِعْفَ الْحَياةِ وَ ضِعْفَ الْمَماتِ ثُمَّ لا تَجِدُ لَكَ عَلَيْنا نَصِيراً، وَ إِنْ كادُوا لَيَسْتَفِزُّونَكَ مِنَ الْأَرْضِ لِيُخْرِجُوكَ مِنْها، وَ إِذاً لا يَلْبَثُونَ خِلافَكَ إِلَّا قَلِيلًا، سُنَّةَ مَنْ قَدْ أَرْسَلْنا قَبْلَكَ مِنْ رُسُلِنا وَ لا تَجِدُ لِسُنَّتِنا تَحْوِيلًا (الإسراء: ۷۱- ۷۷).

إِنَّا نَحْنُ نُحْيِي وَ نُمِيتُ وَ إِلَيْنَا الْمَصِيرُ، يَوْمَ تَشَقَّقُ الْأَرْضُ عَنْهُمْ سِراعاً، ذلِكَ حَشْرٌ عَلَيْنا يَسِيرٌ، نَحْنُ أَعْلَمُ بِما يَقُولُونَ، وَ ما أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِجَبَّارٍ فَذَكِّرْ بِالْقُرْآنِ مَنْ يَخافُ وَعِيدِ (ق: ۴۱- ۴۴).

فتأمل فى هذه الآيات التى يتجلى فيها جلال الربوبية، ثم قل لى: أ فتجد أن مثل هذا الكلام مما يمكن لبشر من الناس أن يصطنعه اصطناعا و أن ينطق به تمثيلا أو أن يتحلى به تزويرا؟

أمّا إنّ الطبع لغلّاب، و ليقم أى فرعون من الفراعنة المتألهين أو المتجبرين، ثم ليجرب أن ينطق بمثل هذا الكلام الذى يتنزل من عرش الربوبية و يغمر النفس بالرهبة و الجلال، فإن لسانه سيدور فى فمه على غير هدى، و إذا تكلم فسيأتى بكلام يكشف بعضه بعضا فيه محاولة التمثيل و ليست فيه صنعته إذ هو مما لا يسلس القياد فيه لتصنّع و لا لتمثيل.

إن بشرية الإنسان و ضعفه يمنعانه- أيّا كان مسلما أو كافرا- من أن يقول: نَبِّئْ عِبادِي أَنِّي أَنَا الْغَفُورُ الرَّحِيمُ وَ أَنَّ عَذابِي هُوَ الْعَذابُ الْأَلِيمُ أو يقول: وَ ما خَلَقْتُ الْجِنَّ وَ الْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ أو أن يقول: كُلُّ نَفْسٍ ذائِقَةُ الْمَوْتِ وَ نَبْلُوكُمْ بِالشَّرِّ وَ الْخَيْرِ فِتْنَةً وَ إِلَيْنا تُرْجَعُونَ.

و إن هو حاول أن يقول شيئا من هذا فسيلتوى عليه لسانه و يتعثر بضعفه و مخلوقيته ثم لن ينجح فى النطق بمثل هذا الكلام.

و انظر، فقد صوّر اللّه لنا بمحكم بيانه المعجز ألوهية فرعون الزائفة، و كلامه الذى حاول أن يبثّ فيه دعوى ألوهيته و ربوبيته، و صوّر لنا من خلال ذلك كيف أن كلامه جاء تكذيبا لطموحه و ربوبيته الزائفة. و ذلك عند ما قال عنه:

وَ قالَ فِرْعَوْنُ يا أَيُّهَا الْمَلَأُ ما عَلِمْتُ لَكُمْ مِنْ إِلهٍ غَيْرِي فَأَوْقِدْ لِي يا هامانُ عَلَى الطِّينِ فَاجْعَلْ لِي صَرْحاً لَعَلِّي أَطَّلِعُ إِلى إِلهِ مُوسى وَ إِنِّي لَأَظُنُّهُ مِنَ الْكاذِبِينَ (القصص: ۳۸).

من روائع القرآن، ص: ۱۶۰

إنّه يدّعى الربوبية، و يزعم أن لا إله لهم غيره، ثم يطلب من هامان أن يوقد على الطين، فيجعل له منه برجا عاليا يصعد عليه ليبحث من هناك عن إله موسى! ... فانظر كيف صوّر القرآن بشرية فرعون التى فرضت نفسها على كلامه لتكذبه فيما يزعم و لتسخر من عظم دعواه أمام ضآلة ذاته، صوّر ذلك فى قوله: فَأَوْقِدْ لِي يا هامانُ عَلَى الطِّينِ ... يدّعى الربوبية و يريد الصعود إلى أجواء السماء ثم لا يرى سبيلا إلى ذلك إلا أن يستعين بالطين و أسباب الطين ...

إن الذى يضطر إلى الاستعانة بالطين، فيما يسعى إلى تحقيقه، لا يمكن إلا أن يكون ذلك المخلوق الضعيف الذى خلق من طين.

ثم إنه يقول: لعلّى أطلع إلى إله موسى، و لعلّ أداة رجاء. و الرجاء من أبرز دلائل الضعف و تقاصر القدرة. ذلك لأن الذى يرجو شيئا، إنما يظهر تعلق قلبه و انصراف نفسه إليه دون أن يستيقن أنه قادر على بلوغ فعله. إذ كانت رغبته فيه أقوى من قدرته عليه، فهو يعلّل نفسه بالأمل.

إنّ الرب الحقيقى أجلّ من أن يكون على هذه الحال، و لكنها الفطرة البشرية تأبى إلّا أن تفرض نفسها على لسان صاحبها، سواء أ كان مؤمنا أم كافرا، متجبرا كان أم متألها.

فهذا الجانب من الإعجاز القرآنى، لا يتوقف إدراكه أو الشعور به على سعة علم أو ثقافة أو بلاغة. بل لا بدّ أن يتنبه إليه كل متدبر لتلاوة القرآن متأمل فيما يقرأ، مهما كانت ثقافته و درايته. غير أنه قد لا يحسن التعبير عمّا يشعر به، و لا يقدر على تحليله و شرح أسبابه.

و إذا رأيت من إذا تلا القرآن تأثر به قائلا: إن هذا الكلام لا يمكن أن يصدر عن بشر، فاعلم أنه متفاعل مع هذا الوجه الأخير الذى فرغنا من شرحه و تحليله.

من روائع القرآن، ص: ۱۶۱

غير أن كل هذا الذى أوضحناه من الوجوه المختلفة للإعجاز فى هذا الكتاب الربّانى لا يتجلّى شيء منه إلا لقلب لم تخنقه أغشية الكبر و العناد، فأقبل إلى القرآن يتأمله متجردا عن أى عناد أو أسبقية إلى ضلالة عاهد نفسه أن لا يتحول عنها.

فأما من قد ران على قلبه الكبر و العصيان، و مرّ بالقرآن على هذه الحال.

فقد لا يتنبه إلى شيء مما ذكرنا و لا يتأثر به، و إن نبهه المنبهون و استثاره الناصحون، كيف و هو الذى يقول القرآن فى حقه و حق أمثاله:

وَ نُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ ما هُوَ شِفاءٌ وَ رَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ وَ لا يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إِلَّا خَساراً (الإسراء: ۸۲).

و يقول أيضا: وَ الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ فِي آذانِهِمْ وَقْرٌ وَ هُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى ...
(فصّلت: ۴۴).
نسأل اللّه تعالى أن يلهمنا الحق و الرشد، و أن لا يصدّنا بفعل شهواتنا و أهوائنا عن الحق الذى أنزله على رسله و أنبيائه، إنه على كل شىء قدير.

الذين كتبوا فى إعجاز القرآن

و الكاتبون فى إعجاز القرآن من العلماء و أئمة البيان كثير، و أول من كتب فى ذلك الجاحظ رحمه اللّه (ت: ۲۵۵) فقد ألّف فى ذلك كتابا سمّاه (نظم القرآن) ثم ألّف أبو عبد اللّه محمد بن يزيد الواسطى (ت: ۳۰۶) كتابه إعجاز القرآن و جاء من بعده عبد القاهر الجرجانى (ت: ۴۷۱) فشرحه شرحا مستفيضا سمّاه: المعتضد. كما ألّف كتابه المشهور (دلائل الإعجاز). ثم جاء أبو عيسى الرمانى (ت: ۳۸۵) فألّف هو الآخر كتابا فى إعجاز القرآن، و ظهر من بعده كتاب القاضى أبو بكر الباقلانى (ت: ۴۰۳) و اسمه أيضا: إعجاز القرآن، و هو كتاب جليل سلك فيه مؤلفه أقرب الوسائل إلى كشف جوانب الإعجاز القرآنى و تذوقه.
و كتب بعدهم كثيرون فى هذا الباب، كالإمام الخطابى و فخر الدين الرازى و ابن أبى الأصبع. أما فى عصرنا فأحسب أن خير من كتب فى هذا الموضوع
من روائع القرآن، ص: ۱۶۲
المرحوم مصطفى صادق الرافعى صاحب كتاب إعجاز القرآن. أما سيد قطب رحمه اللّه فقد عالج نواحى خاصة من إعجاز القرآن. فأبدع فيها و أجاد، و من خير آثاره فى ذلك، التصوير الفنى فى القرآن، و مشاهد يوم القيامة فى القرآن.
هذا إلى جانب تفسيره العظيم. فى ظلال القرآن، فقد نهج فيه نهجا جديدا قد يكون بعيدا عن تحقيق المسائل و القضايا العلمية، و لكنه لامس حاجة فى نفوس كثيرين من الناس و هى التطلّع إلى الكشف عن وجدانيات القرآن و أسراره و تبسيطها و تقريبها للأفهام بعيدا عن التأملات العلمية و الفكرية العويصة.
من روائع القرآن، ص: ۱۶۳

موضوعات القرآن و طريقة عرضه لها

تدور بحوث القرآن كلها على غرض رئيسى واحد، هو دعوة الناس كلهم إلى أن يكونوا عبيدا للّه عزّ و جلّ بالفكر و الاختيار كما خلقهم عبيدا له بالجبر و الاضطرار «۱».
و تلك هى خلاصة ما ينطوى عليه الدين الحق الذى ألزم اللّه به عباده منذ أن خلق آدم عليه الصلاة و السلام إلى أن بعث خاتم الأنبياء محمدا صلّى اللّه عليه و سلّم.
و كلّ ما فى القرآن من موضوعات، متفرع عن هذا المقصد الرئيسى الأسمى.
إذ كان لا بدّ، لكى يدين الناس بالعبودية للّه وحده من أن يطّلعوا على دلائل وجوده و وحدانيته و أن يستيقنوا قيام الناس لرب العالمين من بعد الموت، و أن الذى ينتظرهم إذ ذاك إما سعادة عظيمة فى جنات الخلد أو شقاء و بيل فى نار تتلظى. فكان لا بدّ من أن يعرض القرآن لموضوع العقيدة و كلياتها، و ضرورة إيمان كل إنسان عاقل لها.
فهذا هو الموضوع الأول، و طريقة عرض القرآن له تقرير كليات العقيدة التى لا بدّ من الاعتقاد بها، من وحدانية اللّه عزّ و جلّ و بعث الناس بأرواحهم و أجسادهم يوم القيامة، و الحساب و الصراط و الجنة و النار و ما إلى ذلك، ثم عرض الأدلة على هذه الكليات، و أهمها وجود اللّه و وحدانيته بأسلوب يشترك فى

(۱) انظر ص ۱۲۰ من هذا الكتاب.

من روائع القرآن، ص: ۱۶۴

فهمه سائر أصناف الناس و طبقاتهم، و لذلك تراه ينبّه الناس إلى أدلة الكون و ما يشيع فيه من دقة النظام و روعة الخلق و جمال التنسيق، دون أن يعرض لشيء من الأدلة المنطقية الفلسفية أو العلمية التى تختصّ بفهمها فئات معينة من الناس، اللهمّ إلا أن تدل الآية على شيء من ذلك من وراء دلالتها على القدر المشترك الذى يفهمه الناس كلهم، ففى القرآن من ذلك كثير و قد مرّ بيانه فيما مضى.

و إذا تأملت فى معالجة القرآن لموضوع العقيدة، فإنك قلّما تجده يعرض للدليل على أصل وجود اللّه عزّ و جلّ، و إنما هو يقرر وحدانيته و ينبّه العقول إلى الأدلة المختلفة على ذلك. و السبب هو أن وجود اللّه عزّ و جلّ أمر مفروغ منه لا نزاع و لا حاجة إلى البحث فيه، و إنكار وجوده أو الشك فيه شيء لا يتصوره عقل عاقل. فهذا ما أراد القرآن أن يوحى به عند ما لم يعرض للاستدلال على أصل وجود الخالق عزّ و جلّ إلا فى آيات قليلة. و الحقيقة أن نزعة الحديث عن وجود اللّه و الشك فيه أو فرض عدم وجوده، شيء لم يعرف إلا فى القرون الأخيرة، أما فيما مضى فقد كان الإيمان بوجود الخالق جلّ جلاله أمرا مفروغا منه، أما مظاهر الضلال فإنما كانت تحوم حول تفسير هذا الخالق أو توهم تعدده و وجود شركاء له، أو توهم حلوله فى الأفلاك العشرة أو العقول العشرة كما كان يتخيل بعض فلاسفة اليونان.

ثم كان لا بدّ من عرض العبر و الآيات المختلفة التى مرّت مع التاريخ كى يستنير بها العقل فى مجال اعتباره و استدلاله، و كى تتجلى مظاهر عظمة اللّه عزّ و جلّ و قدرته فيما سجله الزمن من واقع و أحداث. فمن أجل ذلك عرض القرآن لموضوع آخر هو: القصص، قصص الأمم الخالية و ما آل إليه أمرها من الهلاك و الدمار، و قصص كثير من الأنبياء الذى تعاقبوا على الدعوة إلى دين واحد، و كرروا إبلاغ الناس حقيقة واحدة لم يختلفوا عليها و لم يتفرعوا عنها فى طرائق متعددة أو متباينة. و لا نطيل الحديث عن القصة و كيفية عرض القرآن لها، فإن لذلك فصلا خاصا به سيأتى إن شاء اللّه.

ثم كان لا بدّ أن تقوم حياة الناس فى دنياهم على نظام معين يضمن لهم

من روائع القرآن، ص: ۱۶۵

مصالحهم و أسباب عيشهم، و يجمعهم على صراط من التحابب و التعاون، فكان من مقتضى ذلك أن يعرض لموضوع ثالث، هو: التشريع، و قد أوضح القرآن فى عرضه لهذا الموضوع الأحكام المتعلقة بسائر المعاملات المدنية المختلفة، حيث قرر الأحكام المتعلقة بالبيوع و الإيجار و الشركات و عامة العقود المالية و غيرها، و قرر الأحكام المتعلقة بمختلف الأحوال الشخصية من زواج و طلاق و ميراث و سائر ما يتعلق بذلك من أحكام الأسرة، و تحدّث عن الجنايات و الجرائم المختلفة و عقوباتها، و عمّا ينبغى أن تكون عليه علاقة المسلمين، كدولة، بالدول و الجماعات الأخرى. و الحاصل أن القرآن قد عرض لعامة ما يسمى اليوم بالقوانين المدنية الجنائية، و النظم الدستورية و الإدارية، و القانون الدولى.

غير أن طريقة عرض القرآن لهذه النظم و الأحكام، اختلفت إلى ثلاث طرق و ذلك حسب اختلاف متعلقات تلك الأحكام.

فمنها ما نصّ القرآن على حكمه بعبارات حاسمة واضحة منفصلة لا تعليق فيها و لا إبهام أو إجمال، و ذلك مثل فريضة الميراث و حقوق كلّ من الورثة فى مال الموروث، و مثل عقوبات بعض الجرائم كالزنا و السرقة و القذف و جريمة القتل و قطع الطرق؛ و مثل كثير من مسائل الأحوال الشخصية.

و منها ما اكتفى ببيان حكمه من وجوب أو حرمة أو إباحة ... و عرّف بها إجمالا، ثم و كل إيضاح الشروط و الصفات و كيفية التطبيق إلى بيان الرسول صلّى اللّه عليه و سلّم، و ذلك مثل عامّة العبادات من صلاة و صيام و حج و زكاة، و مثل كثير من أحكام المعاملات.

و منها ما وضع فيه المبادئ الأساسية و قرر بحقه الأحكام الكلية ثم أناط تعيين الاحتمالات و وجوه التطبيق فيه بأعراف الناس و تطورات الزمن و الأحوال.

ثم كان لا بدّ، لتقوم حياة الناس على مبدأ قويم و نظام صالح، و لتتوفر ضمانات تطبيق ما وضعه أمامهم من الأحكام التشريعية- من أن يحيا القلب الإنسانى بمراقبة اللّه عزّ و جلّ فى كل الظروف و الأحوال و أن تقوم بين الناس

من روائع القرآن، ص: ۱۶۶

وشائج من الأخلاق الفاضلة و المحبة و الإيثار و ما إلى ذلك. فمن أجل ذلك عرض القرآن لموضوع رابع و هو: الأخلاقيات، فعنى به عناية كبرى، و جعله من الثمرات الأولى للإيمان باللّه عزّ و جلّ، و أوضح أن هناك تلازما شديدا بين عبودية الإنسان للّه عزّ و جلّ و السلوك الأخلاقى الفاضل فى المجتمع.

و الطريقة القرآنية لعرض هذا الموضوع، أنه يربط بين مبادئ العقيدة و الإيمان باللّه عزّ و جلّ، و المبادئ السلوكية فى الحياة، و يكشف عن التلازم الذى بينهما، و أن الثانية دائما نتيجة و ثمرة للأولى.

فهو يوضح لك الرابطة المتينة بين اعتقادك بأنك عبد للّه عزّ و جلّ، و التواضع و لين الجانب لإخوانك من الناس، و يأمرك بالثانى من حيث أمرك و ألزمك بالأول فهو يقول مثلا: وَ عِبادُ الرَّحْمنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْناً وَ إِذا خاطَبَهُمُ الْجاهِلُونَ قالُوا سَلاماً «۱».

و هو يوضح لك التلازم بين اعتقادك بأن الرزق إنما يأتى من عند اللّه عزّ و جلّ و بتقديره، و بأن المال هو مال اللّه جعل الناس خلفاء فيه، و بين ما ينبغى أن تلتزمه بصدد الإنفاق، من القصد فى ذلك و عدم الإقتار و لا الإسراف، و يوضح لك أن الثانى نتيجة للأول دائما. فهو يقول: وَ لا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلى عُنُقِكَ وَ لا تَبْسُطْها كُلَّ الْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُوماً مَحْسُوراً «۲» ثم يوضح أساس هذا الأمر قائلا: إِنَّ رَبَّكَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشاءُ وَ يَقْدِرُ إِنَّهُ كانَ بِعِبادِهِ خَبِيراً بَصِيراً «۳».

أى فالقرآن يقوّم المعايير الأخلاقية تقويما دينيا، و يجعل وجه ضرورة الالتزام بها الإيمان باللّه عزّ و جلّ بكل ما يستلزمه من توابع و متممات، بل إنه ليهدد أولئك الذين يفضلون العثوّ و الفساد فى الأرض بأخلاقهم السيئة، بأن أفئدتهم و عقولهم لن تتفتح لفهم الحقائق و أنها ستظل منصرفة عن أن تعى شيئا

---

(۱) الفرقان: ۶۳.

(۲) الإسراء: ۲۹.

(۳) الإسراء: ۳۰.

من روائع القرآن، ص: ۱۶۷

من دلائل الإيمان باللّه، فهو يقول مثلا: سَأَصْرِفُ عَنْ آياتِيَ الَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ، وَ إِنْ يَرَوْا كُلَّ آيَةٍ لا يُؤْمِنُوا بِها ... «۱».

فهذه جملة الموضوعات التى يتناولها القرآن بالبحث و تلك هى طريقة عرضه لها ذكرناها بسرعة و اختصار، و هى كما قلت لك فروع عن المقصد الأول الذى خاطب القرآن من أجله البشر، ألا و هو أن يدخل الناس فى العبودية للّه بالإيمان و العبادة طوعا كما أدخلهم فيها بالفطرة و الطبع كرها.

---

(۱) الأعراف: ۱۴۶.

من روائع القرآن، ص: ۱۶۸

التّصوير فى القرآن مظهره و رسائله

تمهيد:

يقول علماء العربية و البيان: الكلام ينقسم إلى خبر و إنشاء.

و الخبر هو- كما تعلم- الحديث عن معنى قد وقع، على سبيل الاطلاع عليه لمن كان جاهلا، أو التذكير به لمن كان ناسيا؛ و الإنشاء هو تحصيل معنى عن طريق استفهام أو طلب.

فشأن الكلام- على كل حال- مرتبط بالمعنى، إخبارا به أو استفهاما عنه أو طلبا له، و ليس له شأن بما وراء ذلك.

و ما هو المعنى؟ ... إنه عبارة عن كل ما يدركه العقل، فكل ما علمه العقل فهو معنى.

و من هنا، كانت صلة الكلام بالعقل دائما؛ و المتكلم إنما يخاطب فى الناس عقولهم؛ فإذا أدرك العقل و استوعب، حمل إلى مكامن الإحساس و الوجدان من ذلك المعنى ما يلائمه من التأثيرات المختلفة. فتفاعل الإحساس بها و تأثر.

غير أن لكلام القرآن طريقة أخرى فى الخطاب.

إنه لا يخاطب العقل وحده، على نحو ما نعلم من طبيعة سائر أنواع الكلام. و لكنه يخاطب كلّا من العقل و الخيال و الشعور معا؛ أو قل إنه يحمل إلى العقل معنى يخاطبه به و ينهاه إليه، و ينفث فى المشاعر و الخيال إحساسا

من روائع القرآن، ص: ۱۶۹

بصورة ذلك و ينبههما إلى ما فيه من حركة و حياة.

و كلام القرآن، لا يعثر على هذا السبيل فى الخطاب اتفاقا؛ أو بأن يتهيأ له سبيل إلى تشبيه أو استعارة أو مجاز، حتى إذا تجاوز ذلك عاد إلى النسق المألوف و الكلام المعتاد. بل هو فى القرآن نسق مطّرد، و طريقة متبعة، و سبيل عرفت به و عرف بها؛ سواء كان يأمر و ينهى، أو يخبر و يقصّ، أو يعلّم و يشرّع، أو يتحدث عن غيب أو يحذر من عذاب.

و سرّ العجب و الإعجاز فى ذلك، كلّ من حقيقتين اثنتين:

الأولى: أن المعانى، فى حقيقتها، ليست إلا مجردات اعتبارية، يهضمها و يدركها العقل وحده. فتحوّلها إلى صورة مما تألفه العين و يدركه الشعور و الخيال، مما لا يقدر عليه الإنسان إلا فى حدود ضيقة و بالنسبة لمعان معينة.

الثانية: أن الألفاظ، ليست إلا- حروفا صوتية جامدة، فتحولها إلى ريشة تنبع من رأسها الأصباغ و الألوان المختلفة المطلوبة لتحيل المعنى إلى صورة فى لوحة يتأملها الخيال، بل تكاد أن تدركها العين قبل أن يستوعبها العقل- أمر لا يقوى عليه شىء مما نسمّيه المجاز أو البلاغة و البيان.

و مع ذلك فإن لكلّ من المعنى و اللفظ فى القرآن شأنا آخر! ...

فليست المعانى فى القرآن مجردات اعتبارية لا يدركها إلا العقل، و إنما هى صورة حيّة تمرّ بخيال القارئ، و يلمسها إحساسه، و تكاد أن تراها عينه.

و ليست الألفاظ فى القرآن تلك الحروف التى لا تدل إلّا على المعنى، بل هى ينبوع يفيض بالصور و الأحاسيس و الألوان.

و آية هذا الذى نقول- قبل أن نعرض للدليل التطبيقى- أن تتذكر انطباعاتك النفسية و الشعورية تجاه القرآن عند ما كنت تتلوه أو تنصت إليه فى زمان طفولتك (إن كنت ممّن أتيح لهم أن يمارسوا تلاوة القرآن فى عهد الطفولة)؛ فستتذكر أنه قد كانت لخيالك جولة كبرى و نشاط غريب فى آفاق واسعة بعيدة أثناء تلاوته أو الإنصات إليه؛ و ستردّك ذاكرتك إلى صور و أشكال و أخيلة غريبة منطبعة فى خلدك، كلما قرأت شيئا من آياته.

من روائع القرآن، ص: ۱۷۰

و إن فى خزانـة فكرى اليوم لنمـاذج كثيرة من هـذه الأخيلـة و الصور التى انطبعت فيهـا ممـا كانت ترسـمه الآيات فى ذهنى أيام كنت منكبّا على دراسة القرآن و تعلمه، و أنا طفل، و الكثير منها غريب و مضحك! ..

و لقد كنت أحسب فيما مضـى أن مردّ ذلك إلى حالة خاصة بى هى الجهل أو نحوه، و لكن لدى دراسة معانى القرآن و ما تيسـر من آدابه، علمت أن ذلـك هو شـأن القرآن و عمله فى الأخيلـة كلها، و رأيت الكاتب و الإنسان الكبير: سـيد قطب رحمه اللّه يـذكر هـذا المعنى و يصف الصورة التى كـانت ترسـمها هـذه الآيـة فى خيـاله إذ هو طفـل: وَ مِنَ النَّاسِ مَنْ يَعْبُدُ اللَّهَ عَلى حَرْفٍ، فَإِنْ أَصابَهُ خَيْرٌ اطْمَأَنَّ بِهِ، وَ إِنْ أَصابَتْهُ فِتْنَةٌ انْقَلَبَ عَلى وَجْهِهِ، خَسِرَ الدُّنْيا وَ الْآخِرَةَ ذلِكَ هُوَ الْخُسْرانُ الْمُبِينُ «۱».

و أهميـة الطفولـة بالـذات، لكشف هـذا الجـانب من أسـلوب القرآن و منهجه هى أن الطفل بمقـدار ما يكون اسـتعداده لتلقى المعانى المجردة ضـعيفا، يكون استعداده لتصور الرسوم و التقـاط الأشـكال قويا؛ فللطفل خيال مشـبوب، و مرآة صافيـة سـرعان ما يلتقط بهما صور الأشياء. و من هنا كانت لهذه الظاهرة قيمة كبرى فى كشف معنى «التصوير القرآنى» و البرهنة عليه.

فلا يهمنا إذا، أن تثبت هـذه الصور فى ذهن الطفل مشوّهـة أو ناقصة أو غير ذات دلالة، لأن ذلك هو شأن تخيّل الصورة دون إدراك المعنى، و لكن المهم أنه يجـد فى هـذا الكتاب ما يخاطب خياله، و إن لم يجد فيه إلا القليل مما يخاطب عقله، على حين أن ذلك لا يتفق له بالنسبة للكتب الأخرى اللهمّ إلا تلك التى صيغت خصيصا من أجله.

ثم إن التصوير القرآنى يتـدرج فى مظاهر متعددة بوسائل مختلفة، و كثيرا ما تجد هذه المظاهر كلها مجتمعة فى نصّ واحد، و قد تجد بعضها متفرقا فى نصوص متعددة.

---

(۱) الحج: ۱۱، و انظر مقدمة كتاب التصوير الفنى فى القرآن لسيد قطب، و هو مرجع ذو أهمية بالغة فى هذا الباب.

من روائع القرآن، ص: ۱۷۱

فأول مظهر للتصوير، هو إخراج مدلول اللفظ من دائرة المعنى المجرد إلى الصورة المحسوسة و التخيلة.

المظهر الثانى: تحويل الصور من شكل صامت إلى منظر متحرك حىّ.

المظهر الثالث: تضخيم المنظر و تجسيمه حينما يكون الجو و المشهد يقتضيان ذلك.

و الوسـيلة القريبة إلى تحقيق هذه المظاهر، لا تعدو أن تكون اسـتعارة، أو مجازا مرسـلا، أو تشبيها و تمثيلا. و هذه الوسائل التى وضـع عليها علم البيان إنما هى قواعد استخلصت و استنبطت من التصوير الذى انطوى عليه أسلوب القرآن الكريم؛ فالقرآن هو الأساس لهذه القواعد و ليس العكس كما قد يتوهم.

أما الوسـيلة البعيدة، فلسـنا نملك منها إلا الوصف التقريبى؛ إذ هى سـر إعجازه و هى الغاية التى تقف دونها طاقة أئمة البيان. و كل ما نسـتطيع أن نقول عنها أنها الكيفيـة اللطيفة الدقيقة التى تتألف الكلمات على وفقها و تتناسق الحروف و الحركات و ما يتبعها من مدود و شـدّات على أساسـها، فتخرج الكلمـة و الجملـة فى قـالب من اللفـظ و طريقـة الأداء يبث فى الإحساس و الخيال صورة مجسّـِمة حيّة للمعنى! ..

و لو ذهبت تفكر، لتقف على القاعـدة التى بهـا يتم تصوير اللفـظ للمعنى، كى تتخـذ منهـا دسـتورا لصـياغة الكلام، على نحو مـا فعل العلمـاء فى اسـتنباط قواعـد الاسـتعارة و المجـاز و غيرهمـا- لمـا انتهيت إلى شـىء! ... كـل ما يمكن للفكر أن يعلمه، و كل ما يمكن للحس أن يشـعر به، هـو أن هـذه الألفـاظ القرآنيـة تلصـق صـورة المعنى و شـكله بإحساسـك، و إن لتنـاسق حروفهـا المعينـة و توالى حركاتها المتنوعة مدخلا و أثرا كبيرا فى هذا التصوير.

ثم إنك قـد تجد الجملة كلها تحمل إلى خيالك صورة المعنى و تبث فيه الحركة و الحياة، و قد تجد كلمة واحدة تؤدى هذه المهمة كلها.

و ما أظنك إلا مستعجلا فى الانتقال إلى عرض نماذج و أمثلة لكل هذا الذى نقول، فلنكتف بما ذكرناه من التقرير و التعريف النظرى، و لنبدأ بذكر

من روائع القرآن، ص: ۱۷۲

بعض الأمثلة. و نقول، قبل عرض الأمثلة، كما قال المرحوم سيد قطب: إن الأمثلة على هذا الذى نقول هى القرآن كله حيثما تعرض لغرض من الأغراض، و حيثما شاء أن يعبّر عن معنى مجرد أو حالة نفسية، أو صفة معنوية، أو نموذج إنسانى، أو حادثة واقعة أو قصة ماضية، أو مشهد من مشاهد يوم القيامة، أو حال من حالات النعيم و العذاب «۱».

و إليك الآن هذه النماذج:

۱- أوضح اللّه لرسوله أنه لا جدوى من أن يضيق صدره بكفر الكافرين، و إلا فليجهد جهده و ليعمل كل ما بوسعه فى تقديم آية لهم، إن كان قادرا، يبرهن بها على صدقه و يدخل بها الإيمان فى قلوبهم. فالتعبير عن هذا المعنى بمثل هذه الألفاظ أو نحوها مما هو مألوف و مقدور عليه، و هو معنى يخاطب به العقل و الفكر مباشرة، و لكن انظر إلى التعبير القرآنى:

وَ إِنْ كانَ كَبُرَ عَلَيْكَ إِعْراضُهُمْ، فَإِنِ اسْتَطَعْتَ أَنْ تَبْتَغِيَ نَفَقاً فِي الْأَرْضِ أَوْ سُلَّماً فِي السَّماءِ فَتَأْتِيَهُمْ بِآيَةٍ وَ لَوْ شاءَ اللَّهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى الْهُدى، فَلا تَكُونَنَّ مِنَ الْجاهِلِينَ «۲».

فقد صوّر أولا التألم من إعراضهم، فى صورة شىء قد كبر و ضخم حجمه ينوء الرسول صلّى اللّه عليه و سلّم تحت ثقله و يضيق ذرعا به. ثم صوّر الجهد الذى لن يأتى منه بطائل إن هو أجهد نفسه به، بصورة من يريد أن يتخلص من كل الثقل العالق به، فهو ينبعث، فى قلق و بحث دائبين، نحو كل الجهات، و خلف كل حجاب و ستر، ليعثر على ما قد ينشط به من هذا العقال المتشبث به. فأنت ترى الآية قد أخرجت هذا المعنى الفكرى فى مظهر شىء محسوس، ثم بثّ فيه الحركة و الحياة كما قد رأيت، ثم جسّمت الفكرة نفسها فى هذه الصورة الحيّة المتحركة و خاطبت بذلك كله الخيال قبل أن تخاطب مجرد الفكر و الذهن.

---

(۱) التصوير الفنى: ۳۰.

(۲) الأنعام: ۳۵.

من روائع القرآن، ص: ۱۷۳

۲- أمر اللّه رسوله صلّى اللّه عليه و سلّم إن هو التقى بجموع الكافرين الذين أصرّوا على عنادهم، أن يشتد فى قتالهم حتى تحقيق بهم الهزيمة و يدخل فى قلوبهم الرعب. فانظر إلى الأداة التى استعملها فى التعبير عن هذا المعنى: فَإِمَّا تَثْقَفَنَّهُمْ فِي الْحَرْبِ، فَشَرِّدْ بِهِمْ مَنْ خَلْفَهُمْ، لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ «۱». فقد أخرج معنى التلاقى الذى يكون بين المسلمين و أعدائهم، فى صورة من ظل يتربص بشىء حتى ظفر به و وقع عليه و عبّر عن ذلك بقوله: تَثْقَفَنَّهُمْ بمجموع ما تحمله هذه الكلمة من الدلالة و من الصياغة اللفظية، و من تناسق السكنات و الحركات و التشديد البارز بينها. ثم أخرج معنى إلحاق الهزيمة، فى صورة فريدة عجيبة، هى صورة جند أقوياء أشدّاء انقضوا فى هجوم صاعق على طلائع أعدائهم أو الصفوف الأولى منهم؛ فأخذ الرعب و الفزع منهم كل مأخذ حتى سرى ذلك منهم إلى من خلفهم من بقية الجموع فتبعثروا فى كل جهة قبل أن يصل إليهم السوء و يلامسهم.

لا ريب أنك إنما تتسمع إلى هذا الوصف بخيالك و إحساسك، و لا ريب أنك تتصوره الآن منظرا حيّا فى فلاة واسعة، أو على مسرح يعجّ بالحركة الصاخبة. و قد استنفد بيان هذه الصورة بضعة أسطر كما رأيت.

فتأمل كيف صاغها بيان التنزيل فى أقل من سطر واحد! ..

۳- وصف اللّه المنافقين بالجبن و بيّن أن ما يتظاهرون به من الشجاعة كذب، و أن الرعب سرعان ما يستولى على قلوبهم فينهزمون، لا يلوون على شىء.

فانظر كيف عبّر عن هذا المعنى: لَوْ يَجِدُونَ مَلْجَأً أَوْ مَغاراتٍ أَوْ مُدَّخَلًا، لَوَلَّوْا إِلَيْهِ وَ هُمْ يَجْمَحُونَ «۲».

فتأمل كيف بسط معنى الهزيمة و الجبن على هذه اللوحة التصويرية الرائعة، و أخرج هذا المعنى الفكرى فى صورة جماعات من الناس تائهة زائغة العين لما سيطر عليها من الرعب، فهى تنقذف هنا و هناك بحثا عن المأمن و المهرب فى حركات عجيبة غريبة. و قد يحسب صاحب النظرة

---

(۱) الأنفال: ۵۷.

(۲) التوبة: ۵۷.

من روائع القرآن، ص: ۱۷۴

العجلى أن هذه الكلمات الثلاث: ملجأ، مغارات، مدّخل، مترادفة المعنى. و لكنها فى الحقيقة ليست كذلك، بل كلّ منها تصوّر فى الذهن شكلا معينا للملاذ الذى يبحث عنه المنهزم و الخائف، بدءا من الشكل الطبيعى المألوف و هو الملجأ العادى من دار أو غرفة أو جماعة من الناس، إلى الشكل الذى لا يألفه و يرضيه إلا من اشتد خوفه و هو المغارة فى باطن الأرض أو بطن الجبل، إلى الشكل الذى هو أبعد فى القبول و الإلف من كليهما و هو: المدّخل، أى المكان الضيق الذى لا يستطيع هذا الخائف أن يقتحمه إلا بجهد و لا يكاد أن يستقر فيه إلا تضاؤلا و التصاقا. و انظر كيف تؤدى كلمة «مدّخلا» هذه الصورة و تجسمها فى الحسّ بوزنها و جرسها و شدة الدال فيها، ثم تأمل فيما تصوره فى خيالك كلمة: لَوَلَّوْا إِلَيْهِ. ثم فيما تتركه كلمة: يَجْمَحُونَ من الصورة الضاحكة الساخرة، ثم تأمل فى صورة هاتين الكلمتين، فمهما شرحت و فصّلت، فلن أبين أكثر مما يبينه خيالك و شعورك و أنت تتأمل جرسهما و وقعهما.

ثم ارجع النظر مرة أخرى إلى الجملة كلها لتبصر الريشة الإلهية العجيبة و هى تصوّر الهزيمة و الجبن و القلق النفسى هذا التصوير المتحرك الساخر، و كيف تتجسد الصورة فى خيالك حتى لتكاد العين الباصرة تراها و اليد اللامسة تتقراها.

۴- أخبر اللّه رسوله أن مسئولية كل عمل متلبسة بصاحبه خيرا كان أم شرّا؛ فلا يسأل إنسان عمّا لم يعلم، و لا ينبعث الشر من مصدر طيرة أو شؤم، و إنما ينبعث من فاعله الذى فعله. فتأمل كيف عبّر عن هذا المعنى: وَ كُلَّ إِنسانٍ أَلْزَمْناهُ طائِرَهُ فِي عُنُقِهِ، وَ نُخْرِجُ لَهُ يَوْمَ الْقِيامَةِ كِتاباً يَلْقاهُ مَنْشُوراً «۱». إذا تأملت فى هذا التعبير، بعد أن علمت أن العرب فى الجاهلية كانوا يرون فى مظاهر بعض الأنواء و الحيوانات و الطيور سببا و باعثا للمصائب و الشرور، تخيلت صورة إنسان قد تجمعت كل أسباب الشؤم و الطيرة المختلفة فالتصقت به و تعلقت بعنقه، ليدل بذلك على أن الذى

---

(۱) الإسراء: ۲۳.

من روائع القرآن، ص: ۱۷۵

يقوده إلى الشر إنما هو ذاته نفسها، و إذا كان لا بدّ أن هناك مصدر طيرة و شؤم، فإنه على كل حال مصدر متعلق به و لا ينفك عنه. و إنما أخرج المعنى بهذا المظهر الحسىّ الملموس، ليكون أوقع فى النفس و أدلّ على المقصود و ليحمل التعبير معنى السخرية بأوهام الجاهلية و سخافتها.

۵- أخبر اللّه تعالى أنه جعل من الليل و النهار دليلين على وجود الخالق العظيم و وحدانيته، و أنه جعل الليل لتهدأ فيه الرجل و يستريح الإنسان، و جعل النهار مضيئا ليتهيأ فيه السعى و العمل، و لكنه لم يعبّر عن هذا المعنى بهذه الطريقة و إنما قال: وَ جَعَلْنَا اللَّيْلَ وَ النَّهارَ آيَتَيْنِ فَمَحَوْنا آيَةَ اللَّيْلِ وَ جَعَلْنا آيَةَ النَّهارِ مُبْصِرَةً لِتَبْتَغُوا فَضْلًا مِنْ رَبِّكُمْ وَ لِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَ الْحِسابَ «۱» و إذا قرأت هذه الآية، أسرع خيالك فتصور حيوانين أو شبحين عظيمين أحدهما يظل مطبقا عينيه لا يفتحهما على النور، و الآخر يظل فاتحا عينيه لا يطبقهما على ظلام. فأما الأول فيتجسد فيه ظلام الليل و انطواؤه و هدوؤه، و الآخر يتجسد فيه ضياء النهار و حركته و التماعه.

۶- أخبر اللّه تعالى عن كراهية أهل الجاهلية للأنثى إذ تولد فى دار أحدهم و بيّن أن الكرب يأخذ من أحدهم كل مأخذ إذا ما أخبر بأنثى قد ولدت له، و أنه يراوده فكرة أن يدفنها فى التراب حيّة، و لكنه عبّر عن هذا الشعور النفسى بأسلوب تصويرى تسجد له البلاغة فى أسمى مظاهرها و ألوانها. يقول اللّه عزّ و جلّ: وَ إِذا بُشِّرَ أَحَدُهُمْ بِالْأُنْثى ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَ هُوَ كَظِيمٌ، يَتَوارى مِنَ الْقَوْمِ مِنْ سُوءِ ما بُشِّرَ بِهِ، أَ يُمْسِكُهُ عَلى هُونٍ أَمْ يَدُسُّهُ فِي التُّرابِ أَلا ساءَ ما يَحْكُمُونَ «۲».

فقد صوّر تهكم من حوله به بكلمة بُشِّرَ ثم صوّر شدة الكرب الذى انتابه بقوله: ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَ هُوَ كَظِيمٌ، ثم صوّر وقع النبأ

---

(۱) الإسراء: ۱۲.

(۲) النحل: ۵۸.

من روائع القرآن، ص: ۱۷۶

الذى حمله إليه القوم مبشرين- أى متهكمين و مشفقين- بقوله: يَتَوارى مِنَ الْقَوْمِ مِنْ سُوءِ ما بُشِّرَ بِهِ، ثم صوّر الحيرة التى تراوده و يطوف بخاطره بقوله: أَ يُمْسِكُهُ عَلى هُونٍ أَمْ يَدُسُّهُ فِي التُّرابِ. و ردّد النظر و الفكر فى هذه الكلمة: يدسّه، لتبصر كيف أنها تشفّ عن الغيظ و العصبية و الشدة و قد تلبست بها حالة الرجل و أعضاؤه، و كيف تصور لك الدفع المغتاظ للرحمة فى مظهرها الضعيف المتألم المسالم! ..

۷- أخبر اللّه الناس أنه ما من خبر من الغيبيات التى أخبر اللّه بها إلا و سيأتى يوم يتضح فيه صدقه و وقوعه كما أخبر به. فانظر إلى التعبير القرآنى عن ذلك:

لِكُلِّ نَبَإٍ مُسْتَقَرٌّ وَ سَوْفَ تَعْلَمُونَ «۱»، و أنا فما أذكر أننى قرأت هذه الآية مرة إلا و تخيلت أن فى جو السماء شبحا يسبح فى أنحائه لا يدرى الناس ما هو، و الكل رافع رأسه محدق بنظره يتأمله و كلّ منهم يتوهمه حسبما يخيل إليه؛ و الجميع ينتظرون ساعة هبوطه و استقراره فى الأرض ليعلموا حقيقته و ليتخلصوا من أوهامهم و تخيلاتهم فيه. إن اللّه عزّ و جلّ يصوّر الإخبار عن قيام الساعة و ما يلوذ بها من الغيبيات، بصورة هذا الشيء الذى ظاف حوله لغو كثير من القول، و أبى كثير من الناس أن يؤمنوا بحقيقته تبعا لما جاء من كلاب رب العالمين، ليقول لهم إن لهذا الشيء مكانا و زمانا يستقر فيهما عيانا أمام أبصاركم، و لسوف تعلمون حينئذ، دون أن يفيدكم العلم.

و تصوّر مثل هذا التصوير كلمة مُرْساها فى قوله تعالى:

يَسْئَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْساها، قُلْ إِنَّما عِلْمُها عِنْدَ رَبِّي لا يُجَلِّيها لِوَقْتِها إِلَّا هُوَ ... «۲» فالساعة فى تعبير الآية كالسفينة محجوبة عن الأعيان فى غمار بحر عظيم متلاطم، و المنكرون يستعجلون فى طلب إرسائها عند الشاطئ ليشاهدوا حقيقتها بأعينهم.

۸- بيّن اللّه عزّ و جلّ أن الأموات سوف يبعثون من قبورهم و تعود إليهم الحياة

---

(۱) الأنعام: ۶۷.

(۲) الأعراف: ۱۸۷.

من روائع القرآن، ص: ۱۷۷

ليواجهوا جزاءهم، و أن ذلك يسير على اللّه عزّ و جلّ، فجاء التعبير القرآنى عن ذلك بهذا الشكل: يَوْمَ تَشَقَّقُ الْأَرْضُ عَنْهُمْ سِراعاً، ذلِكَ حَشْرٌ عَلَيْنا يَسِيرٌ «۱». و لا ريب أنك إذا قرأت هذه الآية تصورت أمامك أرضا واسعة المدى تتشقق عن أشخاص هنا و هناك يخرجون منها ليسرعوا إلى حيث لا يدرون. أجل، فالآية تترك فى ذهن القارئ هذه الصورة الحيّة المتحركة، ليتصور الأمر البعيد واقعا يشاهده أمام عينيه فى بساطة و يسر.

۹- قرّر اللّه عزّ و جلّ أن من سنّته فى الكون أن يعرض الأمم للمصائب و المحن، فإن لم يتنبهوا بذلك للخضوع و التوبة و التضرّع إلى اللّه، غمسهم اللّه تعالى فى أصناف الملذات، حتى إذا فرحوا بذلك و استغرقوا فى لهوهم و انشغالهم عن اللّه أهلكهم اللّه على حين غرّة، فقال فى ذلك: فَلَمَّا نَسُوا ما ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنا عَلَيْهِمْ أَبْوابَ كُلِّ شَيْءٍ، حَتَّى إِذا فَرِحُوا بِما أُوتُوا أَخَذْناهُمْ بَغْتَةً، فَإِذا هُمْ مُبْلِسُونَ «۲».

فانظر إلى قوله: فَتَحْنا عَلَيْهِمْ أَبْوابَ كُلِّ شَيْءٍ لكأن أسباب النعيم و الترف و اللذائذ ممتلئة فى مخازن من وراء أبواب، فما هو إلا أن فتحت هذه الأبواب حتى اندلقت عليهم من كل جانب و من كل نوع ..

ثم تأمل فى قوله: فَأَخَذْناهُمْ و أى تصوير لضئلة شأنهم و نسيانهم أنفسهم أبلغ و أروع من هذه الكلمة: أخذناهم.

ثم انظر كيف يتقارب الزمن الطويل متحركا متنقلا من مشهد إلى آخر فى هذه الآية، و ذلك بوحى و تصوير تتابع هذه الأحرف و الكلمات:

فَلَمَّا ... حَتَّى إِذا ... بَغْتَةً ... فَإِذا هُمْ ... مشهد من وراء آخر، و مرحلة تلى ما قبلها، قد تكون الفترة بينهما طويلة، و لكن التعبير القرآنى يقارب ما بين هذه المراحل فى بضع كلمات، و يصوّرها فى ذهن القارئ، و كأنها تاريخ سريع يمرّ من أمامه.

---

(۱) ق: ۴۴.

(۲) الأنعام: ۴۴.

من روائع القرآن، ص: ۱۷۸

۱۰- و من التصوير الرائع البديع الذى تنفرد به كلمة واحدة قوله تعالى: ما لَكُمْ إِذا قِيلَ لَكُمُ انْفِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ اثَّاقَلْتُمْ إِلَى الْأَرْضِ «۱». و المقصود الأصلى هو استنكار تكاسل بعض المسلمين أمام داعى الجهاد فى سبيل اللّه. و لكن انظر إلى الأداة التعبيرية عن ذلك اثَّاقَلْتُمْ إِلَى الْأَرْضِ. لقد أخرج معنى الكسل الذى هو من مدركات العقل فى صورة جرم ثقيل كلما حاولت أن ترتفع به إلى الأعلى انحطّ بك إلى الأرض، و هو من الثقل بحيث لا ينفك عالقا و ملتصقا بكل ما هو دون، من أرض و غيرها. و كما يقول سيد قطب: لو أنك حذفت الشدة من الكلمة فقلت «تثاقلتم» لخفّ الجرس و ضاع الأثر المنشود و لتوارت الصورة المطلوبة التى رسمها اللفظ و استقلّ برسمها «۲».

۱۱- أنبأنا اللّه تعالى عن دخول هذا الكون كله تحت سلطانه و أنه ليس إلا شيئا ضئيلا بالنسبة لملكه و عظيم قدرته، و لكنه وضع هذا المعنى فى صورة مخيّلة محسوسة يمتلئ بها الخيال و الحس، و يذوب فيها الشعور. يقول اللّه عزّ و جلّ: وَ ما قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ، وَ الْأَرْضُ جَمِيعاً قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيامَةِ وَ السَّماواتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ ... «۳».

فأنت لست من هذه الآية أمام كلمات الملك و السلطان و العظمة و نحوها مما هو من مفهومات الفكر المتأمل ... و لكنك أمام الهول العجيب الذى يذهب له الحس و تخشع له المشاعر: الأرض جميعا شىء صغير فى قبضة اللّه و السموات كلها بأجرامها العظيمة قد طويت كما يطوى البساط أو الصفيحة، فهى ليست إلا جرما صغيرا لا تكاد تدركه العين مخبوءة فى يمين اللّه عزّ و جلّ. و ليس هناك من يمين، و لا- قبضة، و لا- طى بالمعنى الحسى المعروف، و لكنه التخييل و التجسيم للمعنى الذهنى، كى يفيض الشعور و الخيال إحساسا به.

---

(۱) التوبة: ۴۸.

(۲) انظر التصوير الفنى و ما ذكره سيد قطب فى تحليل هذه الآية: ص ۸۷.

(۳) الزمر: ۶۷.

من روائع القرآن، ص: ۱۷۹

۱۲- و ربما اقتضى المشهد فى بعض الأحيان أن تمثل الصورة أمام الخيال شاخصة صامتة لا حراك فيها، و ذلك كما فى قوله تعالى: فَكَأَيِّنْ مِنْ قَرْيَةٍ أَهْلَكْناها وَ هِيَ ظالِمَةٌ فَهِيَ خاوِيَةٌ عَلى عُرُوشِها وَ بِئْرٍ مُعَطَّلَةٍ وَ قَصْرٍ مَشِيدٍ «۱» و المعنى المقصود لفت النظر إلى الأمم التى جاءت و مضت و تركت آثارها من ورائها. و لكنه أقام من هذه اللوحة التصويرية فى الآية تعبيرا مجسما له.

و هى صورة صامتة شاخصة، تبصر فيها بيوتا خالية قد سقط بعضها على بعض ... و تبصر فى جانب منها بئرا متروكة معطلة، و قصرا لا تزال فيه جدران باقية قائمة ...

و لا- و اللّه، ما تلوت هذه الآية مرة إلا و رأيتنى أمام لوحة فنية رائعة صوّرتها كلمات هذه الآية فى رسم معبّر نادر، يجلله صمت رهيب، تلوح عليه آثار القرون و السنين!! ...

و بعد، فهذه أمثلة قليلة، قس كلام القرآن كله عليها.

و لن نستطيع أن نفيض فى بيان الأمثلة و النماذج؛ فقد التزمنا فى هذا الكتاب القصد فى البحث، كى يتسع المجال لعرض المسائل و البحوث الأخرى، و لو أردنا أن نستقصى الكلام فى تصوير القرآن و مقوّماته و مظاهره، لجفّ المداد و نفد الورق دون أن نوفى البحث حقه: قُلْ لَوْ كانَ الْبَحْرُ مِداداً لِكَلِماتِ رَبِّى لَنَفِدَ الْبَحْرُ قَبْلَ أَنْ تَنْفَدَ كَلِماتُ رَبِّى وَ لَوْ جِئْنا بِمِثْلِهِ مَدَداً.

فإن كنت قد ألقيت السمع إلى ما قلنا و أنت شهيد بعقلك الصافى المتحرر، وقفت على الحق فى كل الذى ذكرنا، و أدركت أن نظيره مثله مما لم نقل، و أيقنت أن هذه المعجزة التى تصورت كلاما يتلى ليست مما يصوغه بشر، و لا ينبغى أن تكون مادة كذب كذب بها محمد صلّى اللّه عليه و سلّم على اللّه، بعد أن عاش أربعين عاما يتوقّى الكذب فيها على الناس.

---

(۱) الحج: ۴۵.

من روائع القرآن، ص: ۱۸۰

أما إن كنت تتسمع إلى ما أقول بأذن يجثم من ورائها عناد متحكم، أو غيظ متغلب، أو غرض مستعبد، أو هوى لا قبل لك به، فليس للمنطق أىّ حيلة مع مثل هذه الأذن و إن بدت أنها صاغية. و لقد جسّد اللّه عزّ و جلّ هذا الغيظ و الغرض و الهوى، فى صورة محسوسة منظورة، إذ قال: وَ لَوْ فَتَحْنا عَلَيْهِمْ باباً مِنَ السَّماءِ فَظَلُّوا فِيهِ يَعْرُجُونَ، لَقالُوا إِنَّما سُكِّرَتْ أَبْصارُنا بَلْ نَحْنُ قَوْمٌ مَسْحُورُونَ «۱».

---

(۱) الحجر: ۱۴ و ۱۵، هذا و إن شئت أن تقف على مزيد من الأمثلة للتصوير الفنى فى القرآن فارجع إلى كتاب التصوير الفنى لسيد قطب، ففيه فيض كبير من الأمثلة. هذا و قد حرصت أن تكون غالب الأمثلة التى أتيت بها مما لم يذكره سيد قطب، و ذلك حتى لا يتوهم متوهم أن مدار التصوير فى القرآن على طائفة من الآيات المعينة لا- مزيد عليها. بل هى كما قلنا الطريقة المتبعة فى التعبير القرآنى دائما.

من روائع القرآن، ص: ۱۸۱

الأمثال فى القرآن

ضرب المثل فى غضون الكلام، يعتبر لونا متميزا من ألوان التشبيه و يعتبر أحيانا لونا خاصّا من ألوان الاستعارة، فإن كان الممثل له مذكورا فى الكلام كان تشبيها، و إن كان محذوفا فهو استعارة.

و بين المثل الذى يضرب و القصة التى تورد، فارق كبير، و إن كان يجمعهما قدر مشترك من تنبيه الذهن إلى أخذ العبرة و قياس الحال على الحال.

فالأمثال لا يشترط صحتها على أنها واقعة تاريخية ثابتة: و إنما يشترط فقط إمكان صحتها أى وقوعها، حتى يتسنى للذهن تصورها كما

لو أنها وقعت فعلا، فمن أجل ذلك يمكن الربط بين المثال و المعنى الممثل له، حيث يلبس نسيجا ماديا محسوسا يتصوره الذهن و يألفه الخيال.

و لكن الأمثال لا يشترط أيضا عدم صحتها فى نطاق الواقع التاريخى فربما ضرب المثل بقصة واقعة. و فى القرآن من ذلك كثير. و إنما تسمى القصة عندئذ تمثيلا، لأنها سيقت مساق التمثيل بها، و لم تورد على أساس الإخبار عنها.

و فى القرآن نافذة عريضة كبرى على هذه الأمثلة. بل قلّما يخلو معنى من المعانى التى يعرضها القرآن، من الارتباط بمثال مقرّب يكسوه ثوبا يحسّ به و يتجسد فيه.

و لسنا الآن بصدد تحليل القيمة البلاغية لضرب الأمثال، و بيان كيفية استعمالها و الاستفادة منها فى أنواع الحديث و أصول المخاطبات. و إنما الذى

من روائع القرآن، ص: ۱۸۲

يهمنا فى هذا الصدد أن نتلمس أبرز الخصائص التى تظهر فى أمثلة القرآن، و علاقة ذلك ببلاغته و إعجازه.

و نستطيع أن نوجز هذه الخصائص فى الأمور التالية:

أولا- تعتبر أمثلة القرآن على اختلافها، لوحات فنية رائعة لتصوير مشاهد الطبيعة بأشكالها و أنواعها المختلفة، و فى هذه اللوحات مشاهد ألفتها العرب و عرفتها فى حياتها النوعية الخاصة، و فيها ما لم تعرفه و لا رأته و لا سمعت به مما قد يعرفه بعض الأمم و الشعوب الأخرى. فالقرآن إذ يضرب الأمثلة بهذه المشاهد المنتزعة من مظاهر الكون و صوره، يؤلّف بين القيم و المبادئ المجردة التى تنزل من أجلها، و المشاهد الطبيعية التى يعيش الإنسان فى أكنافها؛ و فى ذلك من إبراز وحدة الحقائق الكونية و ترابطها الكلى ببعضها ما يطول شرحه و يعظم خطره، و ليس لنا فى هذه العجالة سبيل إلى بسط القول فى ذلك.

ثانيا- تأخذ الأمثلة فى أغلب الأحيان طابع القصة فى عرض الجزئيات و تفصيل صفاتها، و ذلك على خلاف المألوف عند العرب من تكثيف المثال و عرضه فى أقل قدر ممكن من الكلمات. فالعرب قد يضربون المثل للشيء الخادع بالسراب، دون تعريج على أىّ تفصيل فى المثال أو بسط لصورته، و لكن القرآن عند ما يضرب به المثل يبسط منه صورة حيّة يتراءى فيها كيف ينخدع الظمآن به، ثم يسعى وراءه، حتى إذا جاءه فوجئ بأنه ليس شيئا، و وجد بدلا عنه ثمرة انخداعه من الجهد الضائع و الانقطاع عن الرفقة و الطريق: وَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمالُهُمْ كَسَرابٍ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ الظَّمْآنُ ماءً، حَتَّى إِذا جاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئاً وَ وَجَدَ اللَّهَ عِنْدَهُ فَوَفَّاهُ حِسابَهُ وَ اللَّهُ سَرِيعُ الْحِسابِ (النور: ۳۹).

ثالثا- كثيرا ما تأتى أمثلة القرآن كلاما كاملا مستقلا بذاته، أى دون ذكر للمعنى الممثل له على غرار ما هو معروف فى مألوف اللغة العربية و أسلوبها.

و إنما يكون المعنى الممثّل له فى هذه الحال مطويا، يشار إليه فى تضاعيف المثال ذاته، بحيث لا يجهل السامع أو القارئ المعنى الكلى الذى سيق له

من روائع القرآن، ص: ۱۸۳

المثال، و ذلك على غرار الاستعارة و كيفية دلالتها على المعنى الأصلى المقصود.

و لا ريب أن سوق المثال بهذا الأسلوب يأتى أبلغ و ألصق بالمعنى المراد، إذا لم يكن فى سياق الكلام ما يدعو إلى التصريح به.

فمن هذا القبيل قوله عزّ و جلّ: وَ ما يَسْتَوِى الْبَحْرانِ، هذا عَذْبٌ فُراتٌ سائِغٌ شَرابُهُ وَ هذا مِلْحٌ أُجاجٌ «۱» فقد ضرب اللّه مثال البحرين للمؤمن و الكافر، و الحديث عن المؤمن و الكافر مطوى فى تضاعيف المثال، يدلّ عليه السياق.

و منه أيضا قوله عزّ و جلّ: ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا رَجُلًا فِيهِ شُرَكاءُ مُتَشاكِسُونَ وَ رَجُلًا سَلَماً لِرَجُلٍ، هَلْ يَسْتَوِيانِ مَثَلًا «۲» فهو مثال للفرق بين من لم يتخذ مع اللّه شريكا فهو لا يبغى الخير و لا يتقى الضرّ إلّا من قبله، و من ثم فهو لا يسعى لإرضاء غيره، و من اتخذ مع اللّه شركاء له

فقلبه أوزاع بينهم، و هم فيما بينهم متشاكسون متنافسون على مكاسب الألوهية و مقتضياتها، فهو لا يدرى بأيّهم يربط قلبه و لأيّهم يعطى ولاءه! ... و لكن هذا المعنى المقصود مطوى فى المثال الذى ضربه اللّه تعالى، و هو مثال رجلين أحدهما يتعلق به شركاء متشاكسون متنافسون كلّ يدّعى انفراده بالسلطان الكامل عليه، و الآخر موصول الولاء بشخص واحد فهو سلّم له و مسئول تجاهه.

و منه أيضا قوله عزّ و جلّ: وَ الْبَلَدُ الطَّيِّبُ يَخْرُجُ نَباتُهُ بِإِذْنِ رَبِّهِ وَ الَّذِى خَبُثَ لا يَخْرُجُ إِلَّا نَكِداً كَذلِكَ نُصَرِّفُ الْآياتِ لِقَوْمٍ يَشْكُرُونَ (الأعراف:

۵۸). و إنما هو مثال للقلوب، فقلب سليم يقبل الموعظة و الذكرى، و قلب فاسق قاس ينبو عن ذلك.

هذه أبرز خصائص الأمثال فى كتاب اللّه تعالى.

و لنعرض الآن نماذج مختلفة لهذه الأمثلة، نتلمس من خلالها القيمة

---

(۱) فاطر: ۱۳.

(۲) الزمر: ۲۹.

من روائع القرآن، ص: ۱۸۴

البلاغة التى فيها، و سمة الإعجاز التى تتميز بها، و الأسلوب القرآنى فى تقريب البعيد، و تجسيد المجردات، و تهويل ما ينبغى تهويله من معانى التهديد و الوعيد:

۱- يقول اللّه تعالى فى تمثيل حال المنافقين:

مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الَّذِى اسْتَوْقَدَ ناراً، فَلَمَّا أَضاءَتْ ما حَوْلَهُ ذَهَبَ اللَّهُ بِنُورِهِمْ وَ تَرَكَهُمْ فِى ظُلُماتٍ لا يُبْصِرُونَ. صُمٌّ بُكْمٌ عُمْىٌ فَهُمْ لا يَرْجِعُونَ أَوْ كَصَيِّبٍ مِنَ السَّماءِ فِيهِ ظُلُماتٌ وَ رَعْدٌ وَ بَرْقٌ، يَجْعَلُونَ أَصابِعَهُمْ فِى آذانِهِمْ مِنَ الصَّواعِقِ حَذَرَ الْمَوْتِ وَ اللَّهُ مُحِيطٌ بِالْكافِرِينَ يَكادُ الْبَرْقُ يَخْطَفُ أَبْصارَهُمْ كُلَّما أَضاءَ لَهُمْ مَشَوْا فِيهِ وَ إِذا أَظْلَمَ عَلَيْهِمْ قامُوا، وَ لَوْ شاءَ اللَّهُ لَذَهَبَ بِسَمْعِهِمْ وَ أَبْصارِهِمْ إِنَّ اللَّهَ عَلى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ.

فهما مثالان، يدل كلّ منهما فى الجملة على أن شأن المنافق أن يتحلّى بظاهر من الدين ليكسب منه غنائمه و يتقى مغارمه، و لكنه يبوء بنهاية تنقلب غنائمه فيها وبالا عليه، فلا تكسبه خيرا و لا تحرز له نفعا.

و انظر كيف يعبّر عن ذلك المثال الأول: إن حالهم أشبه بحال من أشعل نارا ليستضىء بها، و لكنها ما كادت تضىء ما حوله و ما كاد يطمئن إلى إمكان الاستفادة منها، حتى انطفأت و عاد ما حولها إلى ظلام و بقى صاحبها يتيه بين الوحشة و الحسرة.

و هذا هو معنى المثال الثانى: أو إن حالهم كحال أصحاب مطر غزيرة فى ليلة ظلماء مليئة بوميض البرق و زمجرة الرعد، إذا أومض عليهم البرق كاد أن يتخطف منهم أبصارهم و إذا داهمهم قصف الرعد جعلوا أصابعهم فى آذانهم من مخافته و اتقائه. و هم أثناء ذلك يحاولون أن يستفيدوا من ومضات النور الذى يلمع لهم بين الحين و الآخر، فيسيرون فى ضيائه كلما أومض، و يتربصون بأنفسهم كلما أظلم.

أى إنهم متلبسون فى ظاهرهم بالإسلام الذى هو كصيّب من المطر، و لكنهم فى قلق شديد من تبعاته و وظائفه و أحكامه، و على طمع من التعلّق بمنافعه و خيراته الدنيوية، فهم لا يزالون كذلك: يسرعون للاستفادة من

من روائع القرآن، ص: ۱۸۵

ثماره كلما لاحت لهم، و ينكمشون أو يتوارون من تبعاته و وظائفه و زواجره كلما أقبلت تواجههم! ..

و التمثيل هنا مسوق فى تفصيل صوره و أجزائه مساق وصف قصصى كما ترى، و هو من خصائص أمثلة القرآن كما قد ذكرنا آنفا.

ثم هو مبنى على تشبيه مجموع حالة بمجموع حالة أخرى دون النظر إلى مقارنة أو تشبيه أجزاء الحالين ببعضهما.

قال الزمخشرى فى شرح هذين التمثيلين: [و الصحيح الذى عليه علماء البيان لا يتخطونه، أن التمثيلين جميعا من جملة التمثيلات المركبة دون المفرقة، لا يتكلف لواحد واحد شىء يقدر شبهه به، و هو القول الفحل و المذهب الجزل. بيانه أن العرب تأخذ أشياء فرادى معزولا بعضها عن بعض، لم يأخذ هذا بحجزة ذاك، فتشبهها بنظائرها ... و تشبه كيفية حاصلة من مجموع أشياء قد تضامّت و تلاصقت حتى عادت شيئا واحدا بأخرى مثلها ...] «۱».

۲- يقول اللّه عزّ و جلّ: وَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمالُهُمْ كَسَرابٍ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ الظَّمْآنُ ماءً، حَتَّى إِذا جاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئاً، وَ وَجَدَ اللَّهَ عِنْدَهُ فَوَفَّاهُ حِسابَهُ وَ اللَّهُ سَرِيعُ الْحِسابِ. أَوْ كَظُلُماتٍ فِي بَحْرٍ لُجِّيٍّ يَغْشاهُ مَوْجٌ مِنْ فَوْقِهِ مَوْجٌ مِنْ فَوْقِهِ سَحابٌ، ظُلُماتٌ بَعْضُها فَوْقَ بَعْضٍ إِذا أَخْرَجَ يَدَهُ لَمْ يَكَدْ يَراها وَ مَنْ لَمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُوراً فَما لَهُ مِنْ نُورٍ (النور: ۳۹، ۴۰).

يشبه اللّه تعالى ما قد يبدو أنه مبرور من أعمال الكفار، فى عدم فائدته و انقطاع الجدوى منه- إذ كان مؤسسا على باطل من الكفر باللّه عزّ و جلّ- بمثالين اثنين، أحدهما سراب «۲» يراه الناظر بالفلاة، و قد غلبه العطش فيحسبه ماء، حتى إذا أضنى نفسه فى المجىء إلى مكانه ضاع عنه

---

(۱) الكشاف: ۱/ ۲۱۲ و ۲۱۳.

(۲) السراب: ما يرى فى الفلاة من ضوء الشمس وقت الظهيرة يسرب على وجه الأرض كأنه ماء يجرى. و القيعة و القاع المنبسط المستوى من الأرض.

من روائع القرآن، ص: ۱۸۶

و لم يجده شيئا. و يمزج البيان الإلهى فى آخر هذا التمثيل بين المشبّه و المشبه به، أو قل إنه يؤلف بينهما فى الربط بنهاية واحدة، و ذلك عند ما يقول:

و وجد اللّه عنده فوفّاه حسابه. فقد كان الحديث إلى ما قبل هذه الجملة عن ظمئان اغترّ بسراب، و فى نهاية المثل اتضح أن الظمآن لم يكن غير هذا الكافر الذى اغترّ بظاهر أعماله الإنسانية، و راح ينتظر ثمراتها و آثارها الخيّرة، حتى إذا جاء يوم الحساب و حانت ساعة القطاف، راعه أنه لم يجد لأعماله الصالحة أثرا، بل وجد بدلا منها إله الذى لم يكن يتوقع أن يراه، و وفّاه حسابه على الحقائق التى كان يبطنها فى قلبه لا على المظهر الزائف الذى كان يتجلى به بين قومه و أصحابه.

أما المثال الثانى فهو بحر هائل بعيد الغور تكاثفت فوقه ظلمات متراكمة تألفت من ظلمة البحر ذاته و ظلمة أمواجه العاتية و ظلمة السحب الداكنة من فوقه؛ فهى ظلمات ثلاث تراكمت بعضها فوق بعضها إلى أن غشيت جو السماء و كاد الرجل أن يضلّ فيها حتى عن ذاته.

و إنما الظلام فى المعنى الممثّل له ظلام الكفر باللّه عزّ و جلّ؛ و إنما القصد أن الكفر إذا حاق بالقلب اصطبغت الأعمال كلها بلونه و تأثرت بظلامه و لم يعد فى شىء منها بصيص ضياء، فهى لا تزيد صاحبها إلا ضلالا و لا تكسبه إلا مزيدا من الغواية و الخذلان! ...

و المثل- كما تعلم- لا يعرفه إلا من يعبر المحيطات من البحارة و أمثالهم، فهناك يتكاثف مثل هذا الظلام تبعا لحالات و ظروف معينة فهو شىء لا يعرفه سكان الجزيرة العربية و لا ما حولها. فالتمثيل به ينطوى على دليل من أهم أدلة الإعجاز، و يؤكد ما ينبغى أن يعلمه كل مسلم من أن هذا الكتاب إنما هو كلام اللّه عزّ و جلّ، لم يتدخل فى صياغة شىء منه أى بشر من الناس كائنا من كان.

۳- قال اللّه تعالى: وَ اتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِي آتَيْناهُ آياتِنا فَانْسَلَخَ مِنْها، فَأَتْبَعَهُ الشَّيْطانُ فَكانَ مِنَ الْغاوِينَ، وَ لَوْ شِئْنا لَرَفَعْناهُ بِها وَ لكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الْأَرْضِ

من روائع القرآن، ص: ۱۸۷

وَ اتَّبَعَ هَواهُ، فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ الْكَلْبِ إِنْ تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَثْ، ذلِكَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآياتِنا فَاقْصُصِ الْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ

يَتَفَكَّرُونَ «۱».

ضرب اللّه تعالى هذا النبأ مثلا لكفار بنى إسرائيل، إذا علموا نبوّة سيدنا محمد صلّى اللّه عليه و سلّم حتى إنهم كانوا يستفتحون به على المشركين، فلما جاءهم ما عرفوا كفروا به.

و النبأ فى الآيـة، نبأ واحد من علماء بنى إسـرائيل و قيل من الكنعانيين اسـمه بلعام بن باعوراء، أوتى علم بعض كتب اللّه تعالى، و لكنه انسلخ منها و ركب متن الضلالة، إذ أخلد إلى متاع الدنيا و فضّل الركون إلى أهوائها و شهواتها.

فلـم ينفعـه إذ ذاك علمه. و غـدا فى تعلقه بالـدنيا كـالكلب يلهث فى كـل حـال إن جـاع أو شـبع، إن اهتـاج أو ترك، و هـو من أبرز الحيوانات التى تعرف بهذا الشأن. أى فغدا الرجل يلهث وراء الدنيا و مغانمها فى كل حال لا يقعده عن ذلك شبع و لا غنى.

فمثل هؤلاء اليهود فى ضـلالتهم عن الحق الذى لم يجهلوه، بسبب ميلهم إلى المغانم الدنيوية، كمثل ذلك الرجل الذى لم ينفعه علمه لما أخلد إلى الدنيا و أهوائها، بل لم يعد يغنيه امتلاؤه و شبعه عن مواصلة السعى وراءها و الانحطاط فى شهواتها.

و هذا المثل- كما ترى- منتزع من قصة واقعة، و ليس مجرد فرضية مؤلفة.

فهو مثال و قصـة بآن واحد، و إنما عدّدناها فى الأمثال لا فى القصـص لأنها سـيقت مساق المثل، إذ جردت من تفاصـيلها القصصـية و اعتصرت منها معالم العبرة مكثفة موجزة، و لأن اللّه سمّاه مثلا إذ قال فى نهاية الآية: ذلك مثل القوم الذين كذبوا بآياتنا.

و من هـذا القبيل قوله عزّ و جلّ: وَ اضْـرِبْ لَهُمْ مَثَلًا رَجُلَيْنِ جَعَلْنا لِأَحَـدِهِما جَنَّتَيْنِ مِنْ أَعْنابٍ وَ حَفَفْناهُما بِنَخْلٍ وَ جَعَلْنا بَيْنَهُما زَرْعاً «۲» إلى آخر

---

(۱) الأعراف: ۱۷۵- ۱۷۶.

(۲) الكهف: ۳۱- ۴۲.

من روائع القرآن، ص: ۱۸۸

قوله تعـالى: وَ أُحِيـطَ بِثَمَرِهِ ... الآيـة. فهى قصـة ذات تفصـيل و أحـداث و مراحـل، و لكنها سـيقت مساق المثل فكانت مثالا من أمثلة القرآن، و كانت فى الوقت نفسه قصة واقعة يجب التصديق بها.

و منه أيضا قوله عزّ و جلّ: إِنَّا بَلَوْناهُمْ كَما بَلَوْنا أَصْـحابَ الْجَنَّةِ إِذْ أَقْسَـمُوا لَيَصْرِمُنَّها مُصْبِحِينَ ... «۱» إلى آخر الآيات. فهى أيضا قصة واقعة و لكنها سيقت مساق المثل و لم تورد على أساس مجرد الإخبار عنها.

و لقد اشتهى بعض الكاتبين أن يصطنع اللبس بين المثل الفرضى الذى يورده القرآن و القصة الواقعية التى يخبر عنها، ثم حلّ المشكلة المصطنعة بأن اعتبر قصص القرآن كلها مجرد أمثال سيقت للبيان و التقريب، و لم تذكر للحمل على التصديق بما فى مضمونها! ..

و الحقيقة أنه لا يوجد أى لبس بين المثال الفرضـى و القصة الحقيقة، و ما رأينا عالما و لا مفسرا ممّن مضى قبلنا أحسّ بشىء من هذا اللّبس أو تكلم عنه.

فما من عاقل إلا و هو يـدرك أن قصـة يوسف، و موسـى، و نوح، و مريم، و عاد، و ثمود، و مـدين، أخبار ثابتـة لا يلحقها الريب و لا يطولها التأويل، و ما من قصة منها إلا و يوجد بين يديها أو من خلفها ما ينبّه القارئ إلى واقعيتها و صدقها و إلى أنها ليست فرضـية من فرضـيات الوهم و الخيـال، و كقوله تعالى: نحن نقصّ عليك نبأهم بالحق «۲». و كقوله: نحن نقصّ عليك أحسن القصـص بما أوحينا إليك هذا القرآن «۳». و كقوله عزّ و جلّ: ذلك من أنباء الغيب نوحيه إليك و ما كنت لديهم إذ أجمعوا أمرهم و هم يمكرون «۴». و كقوله: تلك من أنباء الغيب نوحيها إليك ما كنت تعلمها أنت و لا قومك من قبل هذا فاصبر إن العاقبة للمتقين «۵».

---

(۱) ن: ۱۷- ۳۲.

(۲) الکهف: ۱۳.

(۳) یوسف: ۳.

(۴) یوسف: ۱۰۲.

(۵) هود: ۴۹.

من روائع القرآن، ص: ۱۸۹

و لکن الکاتب الذی فعل هذا، شاقه أن یخلد سخافة صاحب «فی الشعر الجاهلی» عسی أن یطبّل الناس له، کما قد طبّلوا لذاک، سواء جاء ذلک التطبیل ضربا علی القفا أو صفعا من الأمام، ما دام أنه تطبیل یذهب بالصیت و یشهره بین عامة الناس.

و بعد، فأحسب أننی لست بحاجة إلی أن أطیل فی عرض النماذج من أمثلة القرآن. فالاستقصاء عسیر، و النموذج یکتفی فیه بأقلّ مما أوردناه.

و الغرض أن تدرک من وراء هذا الذی ذکرناه مدی أهمیة الأمثلة فی کتاب اللّه تعالی، و قد أفردها بالتألیف الإمام أبو الحسن الماوردی (۳۶۴- ۴۵۰) و أن تتنبه إلی أن جانبا کبیرا من الإعجاز القرآنی إنما یطلّ من هذه الأمثال من ناحیتی الأسلوب و المضمون، و أن تعلم بأن المعنی مهما ألبس ثوبا مطرزا من البیان و الإشراق، فإنه یظل بعیدا عن مرأی العین و الخیال حتی یتجسد فی مثال مما یمسّه الحسّ و الشعور.

و لأضع أمامک تحقیقا لهذا الحق و خاتمة لهذا البحث، و هو خلاصة ما قاله الشیخ عبد القاهر الجرجانی فی هذا المقام:

[و اعلم أن ما اتفق العقلاء علیه أن التمثیل إذا جاء فی أعقاب المعانی أو أبرزت هی باختصار فی معرضه، و نقلت عن صورها الأصلیة إلی صورته، کساها أبّهة، و کسبها منقبة، و رفع من أقدارها و شبّ من نارها ... فإن کان مدحا کان أبهی و أفخم ... و إن کان اعتذارا کان إلی القبول أقرب و للقلوب أخلب، و إن کان وعظا کان أشفی للصدر و أدعی إلی الفکر ...

و إن أردت أن تعرف ذلک، فانظر إلی قول البحتری:

دان علی أیدی العفاة و شاسع‌عن کل ید فی الندی و ضریب

کالبدر أفرط فی العلو وضوؤه‌للعصبة السارین جدّ قریب و فکّر فی حالک و حال المعنی معک، و أنت فی البیت الأول لم تنته إلی الثانی و لم تتدبر نصرته إیاه و تمثیله له فیما یملی علی الإنسان عیناه و یؤدی إلیه

من روائع القرآن، ص: ۱۹۰

ناظراه، ثم قسمهما علی الحال و قد وقفت علیه و تأملت طرفیه، فإنک تعلم بعد ما بین حالتیک، و شدّة تفاوتهما فی تمکّن المعنی لدیک، و تحبّبه إلیک، و نبله فی نفسک؛ و توفیره لأنسک، و تحکم لی بالصدق فیما قلت، و بالحق فیما ادّعیت] «۱».

---

(۱) من أسرار البلاغة للشیخ عبد القاهر الجرجانی باختصار: ص ۱۰۱ و ۱۰۲.

من روائع القرآن، ص: ۱۹۱

القصّة فی القرآن أغراضها، خصائصها

اشارة

موضوع القصة فی القرآن، یشترک مع موضوعات القرآن الأخری، فی القصد إلی تحقیق الغرض الکلّی الذی تنزل القرآن من أجله. فللقصة فی القرآن إذا غرض أساسی، هو تحقیق المعنی الکلی الذی جاء به القرآن إلی الناس.

و لكنّ لها، إلى جانب ذلك، أغراضا فرعية، لا تخرج فى هدفها الأول عن ذلك الغرض الأساسى.

و نحن نلخص هذه الأغراض فى ثلاثة أمور:

الأمر الأول: إثبات الوحى الإلهى و الرسالة النبوية لرسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم

فقد كان عليه الصلاة و السلام، كما علمت، أميّا. و قد علم التاريخ و رجاله أنه لم يقصد إلى أحد من علماء اليهودية أو النصرانية يسمع منهم أخبار عيسى و موسى و غيرهما من الأنبياء السابقين عليهم صلوات اللّه و سلامه. و لو فعل ذلك، لما كتمه عن الناس و لا موّه عليهم، كيف و قد عرف بين قومه طوال أربعين سنة من العمر بالأمانة و الصدق و الوفاء مع الناس.

فلما جاء القرآن بقصص الأنبياء السابقين و الأمم الغابرة، على نحو يتفق جملة و تفصيلا مع ما أثبته التوراة و الإنجيل من عرض تلك الأخبار و القصص، كان ذلك دليلا لا يقبل الشك بأن هذا القرآن ما كان حديثا يفترى، و لكنه وحى من اللّه عزّ و جلّ «۱».

---

(۱) انظر مبحث تاريخ الوحدانية فى كتاب الظاهرة القرآنية لمالك بن نبى ص: ۱۹۴ و ما بعد.

و لتنبيه الناس إلى هذه الدلالة، يعقب اللّه عزّ و جلّ على كل قصة ينتهى من عرضها بما يثير الانتباه إلى أن هذه المعلومات لا يمكن أن تكون قد أتت إلى محمد عليه الصلاة و السلام إلّا من نافذة الوحى المجرد فهو يقول بعد الانتهاء من ذكر قصة مريم و ولادتها و كفالة زكريا لها: ذلِكَ مِنْ أَنْباءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ وَ ما كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يُلْقُونَ أَقْلامَهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ، وَ ما كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ «۱» و يقول بعد عرض قصة يوسف بتفصيلها الواسع المعروف ذلِكَ مِنْ أَنْباءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ، وَ ما كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ أَجْمَعُوا أَمْرَهُمْ وَ هُمْ يَمْكُرُونَ «۲».

و يقول، بعد ذكر قصة موسى و فرعون و ما يتعلق بهما من أخبار:

كَذلِكَ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْباءِ ما قَدْ سَبَقَ وَ قَدْ آتَيْناكَ مِنْ لَدُنَّا ذِكْراً «۳» و يسرد علينا قصة موسى نفسها بتفصيل أوسع، و أسلوب مختلف فى سورة القصص، حتى إذا انتهى من بيانها و تصويرها، عاد يخاطب محمدا عليه الصلاة و السلام بهذه الآيات:

وَ ما كُنْتَ بِجانِبِ الْغَرْبِيِّ إِذْ قَضَيْنا إِلى مُوسَى الْأَمْرَ، وَ ما كُنْتَ مِنَ الشَّاهِدِينَ. وَ لكِنَّا أَنْشَأْنا قُرُوناً فَتَطاوَلَ عَلَيْهِمُ الْعُمُرُ، وَ ما كُنْتَ ثاوِياً فِي أَهْلِ مَدْيَنَ تَتْلُوا عَلَيْهِمْ آياتِنا وَ لكِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ. وَ ما كُنْتَ بِجانِبِ الطُّورِ إِذْ نادَيْنا، وَ لكِنْ رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ لِتُنْذِرَ قَوْماً ما أَتاهُمْ مِنْ نَذِيرٍ مِنْ قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ «۴».

الأمر الثانى: العبرة و الموعظة

، و تأتى فى أحد مظهرين:

الأول: بيان مدى قدرة اللّه تعالى و بالغ جبروته و سطوته، و الكشف عمّا حاق بالأمم الماضية من فنون العذاب و الهلاك، لتجبّرها و عنادها و استكبارها

---

(۱) آل عمران: ۴۵.

(۲) يوسف: ۱۰۲.

(۳) طه: ۹۹.

(۴) القصص: ۴۴ و ۴۵ و ۴۶.

من روائع القرآن، ص: ۱۹۳

على الحق. للتنبيه على أن مثل ذلك يوشك أن يقع بمن أبى إلا أن يمشى على دربهم متّبعا خطاهم.

و من الأمثلة على ذلك، تلك القصص المتتالية السريعة التى تقرأها فى سورة: القمر. فقد سيقت على هذا المساق، و هو الكشف عن جبروت اللّه و بالغ قدرته، و أن أخذه للظالمين أليم شديد. و لذلك تجده عند ما ينتهى من عرضها، الواحدة إثر الأخرى، و من بيان ما حاق بكل أمة من الأمم الباغية من أنواع الدمار المختلفة، يتجه بالخطاب إلى الناس قائلا: أَ كُفَّارُكُمْ خَيْرٌ مِنْ أُولئِكُمْ أَمْ لَكُمْ بَراءَةٌ فِي الزُّبُرِ؟ أَمْ يَقُولُونَ نَحْنُ جَمِيعٌ مُنْتَصِرٌ؟ سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَ يُوَلُّونَ الدُّبُرَ «۱».

و من ذلك ما تقرأه من قصص الأمم الغابرة فى سورة هود، فقد أريد منها التنبيه إلى ضرورة عدم الاغترار بشىء مما يتخيله الإنسان فى نفسه قوة أو علما أو سلطانا، و إلى أن اللّه تعالى إنما يمهل ... فإذا شاء أخذ. و إذا أخذ لم يفلت.

و لذلك ختم البيان القرآنى تلك القصص بهذه الآيات:

ذلِكَ مِنْ أَنْباءِ الْقُرى نَقُصُّهُ عَلَيْكَ، مِنْها قائِمٌ وَ حَصِيدٌ. وَ ما ظَلَمْناهُمْ وَ لكِنْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ، فَما أَغْنَتْ عَنْهُمْ آلِهَتُهُمُ الَّتِي يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ لَمَّا جاءَ أَمْرُ رَبِّكَ وَ ما زادُوهُمْ غَيْرَ تَتْبِيبٍ وَ كَذلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذا أَخَذَ الْقُرى وَ هِيَ ظالِمَةٌ، إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ «۲».

المظهر الثانى: التنبيه إلى أن الدين السماوى الذى بعث به الأنبياء واحد، و أن رسالات الرسل و الأنبياء واحدة لا تعارض فيها و لا اختلاف.

و من أمثلة ذلك، ما تقرؤه فى سورة مريم من قصة عيسى عليه الصلاة و السلام و كيفية ولادته، فهو يقول فى آخرها: ذلِكَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ قَوْلَ الْحَقِّ الَّذِي فِيهِ يَمْتَرُونَ، ما كانَ لِلَّهِ أَنْ يَتَّخِذَ مِنْ وَلَدٍ سُبْحانَهُ إِذا قَضى أَمْراً فَإِنَّما يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ «۳».

---

(۱) القمر: ۵۳ و ۴۴.

(۲) هود: ۱۰۰ و ۱۰۱ و ۱۰۲.

(۳) مريم: ۳۴ و ۳۵.

من روائع القرآن، ص: ۱۹۴

و من ذلك ما تقرأه فى سورة الأعراف، من قصة عاد و ثمود و أهل مدين، فهو يبدأ قصة كلّ من هذه الأمم ببيان أنه سبحانه و تعالى أرسل إليها رسولا يخبرها بوجود اللّه تعالى و أنه واحد لا شريك له.

فهو يقول: وَ إِلى عادٍ أَخاهُمْ هُوداً قالَ يا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ ما لَكُمْ مِنْ إِلهٍ غَيْرُهُ أَ فَلا تَتَّقُونَ «۱».

ثم يقول: وَ إِلى ثَمُودَ أَخاهُمْ صالِحاً قالَ يا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ ما لَكُمْ مِنْ إِلهٍ غَيْرُهُ ....

و إنما ذلك، ليتبين أن بعثة هؤلاء الرسل إنما كانت لتأكيد حقيقة واحدة لا خلاف حولها؛ بل إنه لا يجوز اختلافهم حولها، ما دام جميعهم أنبياء و رسلا صادقين.

الأمر الثالث: تثبيت فؤاد الرسول صلّى اللّه عليه و سلّم فى مجال الدعوة

، و حمله على الصبر على ما قد يراه من أذى قومه له، و بيان أن اللّه عزّ و جلّ ينصر رسله مهما نزل بهم من العذاب و طاف حولهم من البلاء.

و لا شك أن فى ذكر أخبار الأنبياء من قبله و ما كابدوه من إيذاء قومهم، ثم نصر اللّه عزّ و جلّ لهم، ما يدعوه إلى التحمّل و الصبر و يبثّ فى قلبه روحا من الطمأنينة و النشاط.

تقرأ من الأمثلة على ذلك قوله تعالى: فَاصْبِرْ كَما صَبَرَ أُولُوا الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ وَ لا تَسْتَعْجِلْ لَهُمْ ... «۲».

و قوله تعالى: اصْبِرْ عَلى ما يَقُولُونَ وَ اذْكُرْ عَبْدَنا داوُدَ ذَا الْأَيْدِ، إِنَّهُ أَوَّابٌ «۳».

و ليس معنى هذا الذى ذكرناه من أغراض القصة القرآنية، أن هذه

---

(۱) الأعراف: من ۶۵ إلى ۹۳.

(۲) الأحقاف: ۳۵.

(۳) ص: ۱۷.

من روائع القرآن، ص: ۱۹۵

الأغراض موزّعة على النصوص القصصية فى القرآن بحيث ينفرد كل نص منها بغرض، بل المراد هو اجتماع هذه الأغراض، أو الحكم، التى ذكرناها معا فى مختلف النصوص القصصية فى كتاب اللّه تعالى.

فهذا القدر الذى ذكرناه، يكفى فى بيان أهداف القصة فى القرآن.

منهج القصة فى القرآن:

للقصة فى القرآن منهج فريد، لا يشبه أى أسلوب من الأساليب المعهودة للقصة.

و هى تتبع فى ذلك الأغراض التى سيقت من أجلها، مما عرضنا له آنفا باختصار، فقد تبين لك أن القصة فى القرآن ليست عملا فنيا مقصودا لذاته، و إنما هى مسوقة لغرض دينى مهما تنوعت أقسامه و تفرعت أشكاله.

غير أنك قد علمت أن القرآن يتخذ من الجمال الفنى أداة لتحقيق هذا الغرض، و ما الإعجاز فى مجموع مظاهره و أنواعه إلا أداة أيضا لتحقيق المقصد الدينى. فإن المتأمل إذا أدرك إعجازه آمن بأنه من عند اللّه، و إذا آمن بذلك اعتصم به و تمسك بما جاء فيه.

و هكذا، فإن المنهج الذى تسير عليه القصة فى القرآن أثر من آثار الغرض الذى سيقت من أجله؛ و هو منهج يقوم- فى الوقت نفسه- على أروع مظاهر الجمال الفنى و الإشراق البيانى.

و يمكن أن نلخصها فى المظاهر التالية:

المظهر الأول: التكرار. فأنت تجد أن القصة الواحدة قد تكررت فى القرآن مرات عديدة، كقصة موسى و فرعون، و كقصة نوح، و قصة خلق آدم.

غير أن هذا ليس تعبيرا دقيقا عن هذه الظاهرة. فالذى يحدث، عند تكرار القصة أكثر من مرة فى القرآن، ليس هو التكرار بمعناه المعروف. إنما الذى يحدث هو أن القرآن يتناول من القصة الواحدة فى كل مرة جانبا معينا

من روائع القرآن، ص: ۱۹۶

فيها، و هو الجانب الذى تستدعيه المناسبة. و قد يحدث أن يتكرر عرض القصة نفسها أو عرض الجانب الواحد منها، بحسب الظاهر؛ و لكن تلك القصة أو ذلك الجانب منها ينطوى على عبر و عظات متعددة، فيقتضى الغرض الدينى أن يعاد ذكرها عند ما تأتى مناسبة كل عبرة من عبرها، فتلبس القصة فى كل مرة من الأسلوب و الإخراج التصويرى ما يناسب المعنى الذى سيقت بصدده، حتى لكأنّك منها أمام قصة جديدة لم تتكرر على مسامعك و لم تعرض أحداثها على خاطرك من قبل. و إذا أردت أن تقف على مثال لهذا فاقرأ سورة هود و أمعن فيما تجد فيها من قصص الأنبياء و الأمم الغابرة ثم اقرأ سورة القمر، ففيها عود إلى تلك القصص نفسها، و لكنك تلاحظ من اختلاف الأسلوب و العرض و جرس الألفاظ ما يخيل إليك أنك أمام قصص و أخبار لم تكن تعلم بها، ثم إنك تجد فيها من المعانى و العظات ما لم تكن قد تنبهت إليه فى المرة الأولى.

المظهر الثانى: الاقتصار من حوادث القصة على ما يتعلق به الغرض.

و من أجل هذا فإنك قلّما تجد القرآن يسرد حوادث القصة سردا تاريخيا، تبعا لسلسلة الوقائع و الأحداث. لأن ذلك يبعد القصة عن مقصدها الذى أوضحناه.

و لنعرض أمثلة لذلك، قصّ علينا القرآن فى سورة (الكهف) قصة أصحاب الكهف، فبدأها بهذه الآيات.

نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ نَبَأَهُمْ بِالْحَقِّ، إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ آمَنُوا بِرَبِّهِمْ وَ زِدْناهُمْ هُدىً، وَ رَبَطْنا عَلى قُلُوبِهِمْ إِذْ قامُوا فَقالُوا رَبُّنا رَبُّ السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ لَنْ نَدْعُوَا مِنْ دُونِهِ إِلهاً لَقَدْ قُلْنا إِذاً شَطَطاً، هؤُلاءِ قَوْمُنَا اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ آلِهَةً، لَوْ لا يَأْتُونَ عَلَيْهِمْ بِسُلْطانٍ بَيِّنٍ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرى عَلَى اللَّهِ كَذِباً «۱».

فأنت ترى أنه بدأ فوصف أصحاب الكهف بأنهم فتية انفردوا عن أقوامهم بالإيمان باللّه عزّ و جلّ و وحدانيته مخالفين ما عليه سائرهم من الشرك

---

(۱) الكهف: ۱۳ و ۱۴ و ۱۵.

و الكفر، و أنهم من أجل ذلك عزموا على أن يعتزلوهم و يخرجوا من بينهم. ثم تمضى القصة على هذا المنوال.

فمن هم هؤلاء القوم؟ و فى أى بلدة كانوا يسكنون؟ و كم كان عدد هؤلاء الفتية؟ و ما هى أسماؤهم؟

هذه أسئلة كان من مقتضى السرد التاريخى أن تجيب القصة عنها، و لكنها لو أوضحت ذلك و سارت فى تتمتها على هذه الطريقة لما وفت بالغرض الدينى الذى تستهدفه، و لانصرف فكر القارئ إلى تتبع أحداث تاريخية يريد أن يعرفها، و لغفل بذلك عن العبرة و العظة التى سيقت القصة من أجلهما.

و عند ما يقصّ علينا القرآن قصة خلق آدم، و سكناه فى الجنة ثم نزوله إلى الأرض، لا يتحدث عن وصف نزوله إلى الأرض و حياته فيها بأكثر من قوله:

قالَ اهْبِطا مِنْها جَمِيعاً بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ، فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّى هُدىً فَمَنِ اتَّبَعَ هُداىَ فَلا يَضِلُّ وَ لا يَشْقى «۱».

ففى أى مكان من الأرض نزل؟ و كيف كانت معيشته و سكناه إذ ذاك؟

إن الاجابة على مثل هذه الاستيضاحات، و إن كانت مما يتشوف إليه الفكر، من شأنها أن تقصى القارئ عن الانتباه إلى المقصود من سرد القصة. فحسبه، لكى لا يشتّ ذهنه وراء الأحداث التاريخية، أن يعلم من القصة ما يحمله على الانصياع للمقصد الدينى الذى تنطوى عليه.

و لكن ربما اقتضى الغرض فى بعض الأحيان أن تسرد القصة من أولها إلى آخرها، و أن يسير البيان القرآنى فى عرضها بأسلوب يتتبع سلسلة الوقائع و الأحداث مع التعرّض لبيان كثير من جزئيات القصة التى لا تكاد تنطوى فى الظاهر على عبرة أو فائدة توجيهية. و ذلك عند ما يكون الغرض الرئيسى هو إثبات الوحى الإلهى و تأكيد نبوّة الرسول عليه الصلاة و السلام، أو عند ما يكون الغرض تصحيح قصة أو حادثة تاريخية وقع فيها خلط أو لغو.

فمن قبيل الأول، قصة يوسف عليه السلام، فقد عرضت عرضا

---

(۱) طه: ۱۲۳.

تفصيليا تضمن حياة يوسف و تاريخها منذ طفولته إلى وفاته، و إنك لتجد فى عرضها كثيرا من الصور الجزئية يتناولها القرآن

بالكشف عنها، مما لا تكاد تجده فى عرض القصص الأخرى. و المقصود من ذلك تنبيه الأذهان إلى الوحى الذى يؤيّد به الرسول صلّى اللّه عليه و سلّم، فيطلعه على ما لم يكن يعرف من قبل.

و من قبيل الثانى قصة مريم فى سورة آل عمران، و قصة ولادة عيسى عليه الصلاة و السلام فى سورة مريم. ففى كلّ من السورتين سرد تفصيلى للقصة و سير طبيعى مع مراحلها الواقعية، و كشف لمختلف الجوانب المتعلقة بها، إذ الغرض من عرض القصتين تصحيح ما ادّعاه بعض أهل الكتاب من بنوّة عيسى بن مريم للّه عزّ و جلّ، فاقتضى ذلك عرض حقيقة الواقعة عرضا مفصّلا شافيا يزيل الغموض و الإشكال و يكشف بطلان ما توهمه بعض الناس.

المظهر الثالث: إقحام النصائح و العظات فى ثنايا القصة، و هو مظهر عام يشمل شتى الموضوعات القرآنية كما أوضحنا فيما مضى.

فالقرآن لا يدع القارئ يندمج مع موضوع من مواضيعه و ينصرف إليه بكل تفكيره، دون أن يفصل بين أجزائه بفواصل من العظات تنبهه إلى المقصود من كل هذه المباحث، و تربط على قلبه برباط من الخشية و المراقبة الإلهية عند قراءتها و التأمّل فيها.

فمن أجل ذلك لم تكن فى القرآن فصول خاصة فى التشريع، و فصول خاصة فى سرد المغيبات من جنة و نار و ما يتعلق بهما. و قد أوضحنا هذا عند الحديث عن خصائص الأسلوب القرآنى فارجع إليه إن شئت.

و لنضع أمامك الآن بعض الأمثلة لدمج عبارات الموعظة و التذكير بخشية اللّه فى ثنايا القصة و خلال سردها.

يقول اللّه تعالى فى سورة طه، أثناء عرضه لقصة موسى مع فرعون:

قالَ فَمَنْ- رَبُّكُما يا مُوسى، قالَ رَبُّنَا الَّذِي أَعْطى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدى، قالَ فَما بالُ الْقُرُونِ الْأُولى، قالَ عِلْمُها عِنْدَ رَبِّي فِي كِتابٍ لا يَضِلُّ رَبِّي وَ لا يَنْسى، الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ مَهْداً وَ سَلَكَ لَكُمْ فِيها سُبُلًا وَ أَنْزَلَ مِنَ

السَّماءِ ماءً فَأَخْرَجْنا بِهِ أَزْواجاً مِنْ نَباتٍ شَتَّى، كُلُوا وَ ارْعَوْا أَنْعامَكُمْ إِنَّ فِي ذلِكَ لَآياتٍ لِأُولِي النُّهى، مِنْها خَلَقْناكُمْ وَ فِيها نُعِيدُكُمْ وَ مِنْها نُخْرِجُكُمْ تارَةً أُخْرى «۱».

فقد تحولت الآيات هنا عن القصة و سردها إلى التذكير بعظمة اللّه و مظاهر ألوهيته و دلائل وجوده؛ حتى إن ضمير الخطاب فيها تحول عن خطاب موسى لفرعون إلى خطاب اللّه للناس كلهم كما تجد فى سرد الآيات.

و فى سورة الكهف، تتابع الآيات عرض قصة أصحاب الكهف، و فى أثناء ذلك تلتفت عن القصة لتخاطب الرسول صلّى اللّه عليه و سلّم و المسلمين ببعض الأوامر و العظات:

يقول اللّه تعالى: سَيَقُولُونَ ثَلاثَةٌ رابِعُهُمْ كَلْبُهُمْ وَ يَقُولُونَ خَمْسَةٌ سادِسُهُمْ كَلْبُهُمْ رَجْماً بِالْغَيْبِ، وَ يَقُولُونَ سَبْعَةٌ وَ ثامِنُهُمْ كَلْبُهُمْ، قُلْ رَبِّي أَعْلَمُ بِعِدَّتِهِمْ ما يَعْلَمُهُمْ إِلَّا قَلِيلٌ، فَلا تُمارِ فِيهِمْ إِلَّا مِراءً ظاهِراً وَ لا تَسْتَفْتِ فِيهِمْ مِنْهُمْ أَحَداً، وَ لا تَقُولَنَّ لِشَيْءٍ إِنِّي فاعِلٌ ذلِكَ غَداً إِلَّا أَنْ يَشاءَ اللَّهُ، وَ اذْكُرْ رَبَّكَ إِذا نَسِيتَ وَ قُلْ عَسى أَنْ يَهْدِيَنِ رَبِّي لِأَقْرَبَ مِنْ هذا رَشَداً «۲».

فأنت ترى كيف هيّأت الآيات أثناء عرض القصة مناسبة لتوجيه هذه العظات إلى رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم ليسمعها المسلمون فيتعظوا و يتمسكوا بها، ثم ما هو إلا أن يعود السياق إلى تتميم القصة بعد ذلك.

المظهر الرابع: العرض التصويرى، فأسلوب القرآن عند ذكر قصة من القصص، لا يخبرك عنها إخبارا و لكنه يمرّ بشريط حيّ لها على مخيلتك و إحساسك، و قد تحدّثنا عن التصوير فى القرآن و عرضنا أمثلة له، فإذا كان ذلك جليّا فى عامة بحوث القرآن، فإنه ليزداد جلاء و قوة عند عرض قصة أو مشهد من خبر. و لا نطيل فى إيضاح هذا الأمر بعد الذى ذكرناه فى الفصل السابق، و لكن ما عليك إذا أردت أن تقف على التصوير القرآنى فى القصة إلا

---

(۱) طه: ۴۹- ۵۴.

(۲) الکهف: ۲۲ و ۲۳ و ۲۴.

من روائع القرآن، ص: ۲۰۰

أن تعود إلى ما كتبه المرحوم سيد قطب فى ذلك فى كتابه «التصوير الفنى فى القرآن».

المظهر الخامس: التنويع فى الاستهلال بالقصة و وضع المدخل إليها، و أنت تعلم أن أهم مظاهر التشويق فى القصة ينبغى أن يكون متجمعا و بارزا فى أولها، حتى يندفع القارئ بذلك إلى المضى فى استطلاعها و التأمل فى مختلف مراحلها.

فالقصة فى القرآن، تبدأ فى كثير من الأحيان، بأغرب مشهد يلفت النظر فيها، حتى إذا أثار ذلك انتباه القارئ، انطلق البيان القرآنى فى عرض سائر مشاهدها المتلاحقة، و قد يكون هذا المشهد الذى أقيم فى مدخل القصة، متأخرا من حيث سلسلة الوقائع و الأحداث المتلاحقة فيها، فيعمد البيان القرآنى العظيم إلى استدراك ما تركه من قبل، و يعرضه خلال القصة بمناسبة ما، و فى إطار يزيد من جمال العرض و روعته.

و لنقرأ- مثالا لذلك- قصة موسى و فرعون فى أول سورة طه. انظر إلى هذا المشهد الذى افتتح به مدخلا للقصة:

وَ هَلْ أَتاکَ حَدِيثُ مُوسى إِذْ رَأى ناراً فَقالَ لِأَهْلِهِ امْکُثُوا إِنِّی آنَسْتُ ناراً لَعَلِّی آتِيکُمْ مِنْها بِقَبَسٍ أَوْ أَجِدُ عَلَى النَّارِ هُدىً «۱».

لا- ريب أنه كما ترى، مشهد يلفت النظر و يبعث على الانتباه و التطلّع إلى ما وراءه. و لكن البداءة به فوّتت- كما ترى- على القارئ معرفة ما سبق ذلك من الأحداث؛ فيستدركها البيان القرآنى فى ثنايا العرض و يصوّرها للقارئ و كأنها قصة ضمن قصة.

و انظر كيف حانت المناسبة، و كيف عادت القصة إلى عرض الأحداث من أولها بمناسبة معينة. فعند ما ذهب موسى إلى حيث رأى النار المشتعلة، سمع هناك نداء اللّه عزّ و جلّ يكلّمه و يضعه أمام مسئولية الرسالة التى سيكلف بها،

---

(۱) طه: ۷.

من روائع القرآن، ص: ۲۰۱

فيقول موسى إنه وحده ضعيف عن تحمّل هذه المهمة الشاقة، فليكن أخوه هارون معينا له و مساعدا فى ذلك. فيجيبه اللّه إلى ذلك و يذكره ممتّنا بنعمه التى أسبغها عليه منذ ولادته إلى اليوم، و هكذا تأتى المناسبة و تعود القصة من أولها بهذا الشكل:

قالَ قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَکَ يا مُوسى. وَ لَقَدْ مَنَنَّا عَلَيْکَ مَرَّةً أُخْرى، إِذْ أَوْحَيْنا إِلى أُمِّکَ ما يُوحى. أَنِ اقْذِفِيهِ فِی التَّابُوتِ فَاقْذِفِيهِ فِی الْيَمِّ، فَلْيُلْقِهِ الْيَمُّ بِالسَّاحِلِ يَأْخُذْهُ عَدُوٌّ لِی وَ عَدُوٌّ لَهُ، وَ أَلْقَيْتُ عَلَيْکَ مَحَبَّةً مِنِّی وَ لِتُصْنَعَ عَلى عَيْنِی، إِذْ تَمْشِی أُخْتُکَ فَتَقُولُ هَلْ أَدُلُّکُمْ عَلى مَنْ يَکْفُلُهُ، فَرَجَعْناکَ إِلى أُمِّکَ کَیْ تَقَرَّ عَيْنُها وَ لا تَحْزَنَ وَ قَتَلْتَ نَفْساً فَنَجَّيْناکَ مِنَ الْغَمِّ وَ فَتَنَّاکَ فُتُوناً، فَلَبِثْتَ سِنِينَ فِی أَهْلِ مَدْيَنَ ثُمَّ جِئْتَ عَلى قَدَرٍ يا مُوسى «۱».

و لعلّه لا يخفى عليك أن هذا الأسلوب فى عرض القصة يعتبر من أحدث الأساليب الفنية فى إخراج الروايات و القصص كتابة و تمثيلا.

غير أن هذا الأسلوب لا- يعتبر الطريقة المفضلة دائما، فقد يكون العمل الفنى بالنسبة لبعض القصص يحتاج إلى طريقة أخرى فى الاستهلال و العرض.

فمن ذلك أن ينتزع أهم مظاهر العبرة من القصة، فتصاغ بشكل خلاصة لها، ثم يوضع تمهيدا و مدخلا إليها. و ذلك كالطريقة التى ابتدأت بها قصة أهل الكهف. فقد مهّد لها أولا بهذه الخلاصة عنها:

أَمْ حَسِبْتَ أَنَّ أَصْحابَ الْکَهْفِ وَ الرَّقِيمِ کانُوا مِنْ آياتِنا عَجَباً، إِذْ أَوَى الْفِتْيَةُ إِلَى الْکَهْفِ فَقالُوا رَبَّنا آتِنا مِنْ لَدُنْکَ رَحْمَةً وَ هَيِّئْ لَنا مِنْ أَمْرِنا رَشَداً فَضَرَبْنا عَلَى آذانِهِمْ فِی الْکَهْفِ سِنِينَ عَدَداً ثُمَّ بَعَثْناهُمْ لِنَعْلَمَ أَيُّ الْحِزْبَيْنِ أَحْصى لِما لَبِثُوا أَمَداً.

ثم بدأ يعرض تفصيلها قائلا: نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْکَ نَبَأَهُمْ بِالْحَقِّ إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ آمَنُوا بِرَبِّهِمْ وَ زِدْناهُمْ هُدىً ... «۲» الآيات.

(۱) طه: ۳۶- ۴.

(۲) الكهف: ۹- ۱۳.

من روائع القرآن، ص: ۲۰۲

و من ذلك أن يمهد لها بعبارات يكشف فيها عن حكمة أحداثها و سبب وقائعها، لتتجسد بذلك العبرة التى ينبغى أن تؤخذ منها، حتى إذا تنبه فكر القارئ إلى ذلك بدأ يسرد عليه القصة و هو متيقظ لمراميها و مكان الهداية منها و ذلك كالأسلوب الذى مهّد به لقصة موسى و فرعون فى أول سورة القصص.

فقد ذكر اللّه جلّ جلاله بين يدى القصة هذه الآيات الممهدة:

إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلا فِى الْأَرْضِ، وَ جَعَلَ أَهْلَها شِيَعاً يَسْتَضْعِفُ طائِفَةً مِنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْناءَهُمْ وَ يَسْتَحْيِى نِساءَهُمْ، إِنَّهُ كانَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ، وَ نُرِيدُ أَنْ نَمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِى الْأَرْضِ وَ نَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَ نَجْعَلَهُمُ الْوارِثِينَ وَ نُمَكِّنَ لَهُمْ فِى الْأَرْضِ وَ نُرِىَ فِرْعَوْنَ وَ هامانَ وَ جُنُودَهُما مِنْهُمْ ما كانُوا يَحْذَرُونَ «۱».

المظهر السادس: العرض التمثيلى الذى يعتمد على إبراز المشاهد جليّة مشرقة أمام الناظر أو المتخيل، و يطوى ما بينها من الروابط البدهية اعتمادا على سير المخيلة و تصورها.

و أنت تعلم أن القصة إذا ما أريد عرضها بأسلوب تمثيلى حىّ، فلا بدّ فيها من طىّ تلك الأحداث التى يقرضها الفكر و الخيال بالبداهة، بل إن القيمة الفنية للقصة و حيويتها تقلّ كثيرا إذا ما شغل فكر الناظر أو السامع بالحديث عن تلك الروابط و تبيانها.

و القصة القرآنية قائمة على هذه السمة و النهج دائما مهما كانت القصة أو كان موضوعها. انظر مثلا إلى قصة نوح التى وردت فى سورة هود، و انتبه إلى قوله عزّ و جلّ فيها: وَ أُوحِىَ إِلى نُوحٍ أَنَّهُ لَنْ يُؤْمِنَ مِنْ قَوْمِكَ إِلَّا مَنْ قَدْ آمَنَ، فَلا تَبْتَئِسْ بِما كانُوا يَفْعَلُونَ وَ اصْنَعِ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنا وَ وَحْيِنا وَ لا تُخاطِبْنِى فِى الَّذِينَ ظَلَمُوا إِنَّهُمْ مُغْرَقُونَ. وَ يَصْنَعُ الْفُلْكَ وَ كُلَّما مَرَّ عَلَيْهِ مَلَأٌ مِنْ قَوْمِهِ سَخِرُوا مِنْهُ ... «۲».

فأنت تجد نفسك فى أول هذه الآيات أمام الإخبار الإلهى الذى ينزل على

(۱) القصص: ۳ و ۴ و ۵.

(۲) هود: ۳۶- ۳۷- ۳۸.

من روائع القرآن، ص: ۲۰۳

نوح بشأن قومه و أمره إياه بأن ينصرف إلى إنشاء سفينة لينجو بها مع القلة من أصحابه المؤمنين فإن قومه مقدمون على هلاك بطوفان. ثم يسدل الستار على هذا المشهد ليبرز من ورائه مشهد آخر تبصر فيه نوحا عليه السلام و هو منهمك فى صنع سفينة. و لا ريب أن بين المشهدين أحداثا طوتها القصة و هى عزم نوح على القيام بهذا الأمر، و استحضار المواد و الوسائل لذلك؛ و لكنها أحداث جزئية يستقل بها الخيال فلا ينبغى أن يفسد بذكرها عرض القصة.

و انظر مثلا إلى قصة موسى و فرعون فى سورة طه، حينما يأمر اللّه موسى عليه الصلاة و السلام، و هو واقف فى المكان الذى آنس منه النار ليلا، بأن يذهب إلى فرعون فيبلغه أمر اللّه عزّ و جلّ: قالَ لا تَخافا إِنَّنِى مَعَكُما أَسْمَعُ وَ أَرى فَأْتِياهُ فَقُولا إِنَّا رَسُولا رَبِّكَ فَأَرْسِلْ مَعَنا بَنِى إِسْرائِيلَ وَ لا تُعَذِّبْهُمْ قَدْ جِئْناكَ بِآيَةٍ مِنْ رَبِّكَ وَ السَّلامُ عَلى مَنِ اتَّبَعَ الْهُدى إِنَّا قَدْ أُوحِىَ إِلَيْنا أَنَّ الْعَذابَ عَلى مَنْ كَذَّبَ وَ تَوَلَّى. قالَ فَمَنْ رَبُّكُما يا مُوسى، قالَ رَبُّنَا الَّذِى أَعْطى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدى «۱».

فأنت فى أول الآيات، أمام مناجاة بين موسى و ربه جلّ جلاله، يأمره اللّه فيها كما ترى بالذهاب مع أخيه هارون إلى فرعون لتذكيره و تبليغه أمر اللّه عزّ و جلّ، و يطمئنهما بأنه لن يصيبهما منه أى مكروه، ثم ينطوى هذا المشهد.

و يبرز عقبه تماما مشهد آخر تجد فيه كلّا من موسى و فرعون وجها لوجه فى مناقشة حول حقيقة اللّه عزّ و جلّ و دلائل وجوده؛ و هو المشهد الذى يبدأ بقوله جلّ جلاله: قالَ فَمَنْ رَبُّكُما يا مُوسى.

أمّا ما بين هذين المشهدين، من ذهاب موسى إلى مصر و وسائل ذلك ثم طريقة التوصل إلى فرعون، ثم عرض الدعوة إلى الإسلام عليه، فهو شىء معلوم يستقل بتصويره الحسّ و الخيال، و ليس من الدقة الفنية فى شىء الاهتمام بعرض ذلك و سرده على السامع أو الناظر.

و حسبنا هذا القدر من الحديث عن الخصائص الفنية للقصة فى كتاب اللّه

---

(۱) طه: ۴۶ و ۴۷ و ۴۸.

من روائع القرآن، ص: ۲۰۴

عزّ و جلّ، و إن كان الحديث فى ذلك يطول، و لكن كتابنا هذا مبنى كما قلنا على إعطاء فكرة موجزة عن كل ما يتعلق بالقرآن.

تلك هى المظاهر الفنية لمنهج القصة فى القرآن. و هى كما رأيت وليد الغرض أو الهدف التربوى الذى تدور القصة القرآنية على محوره.

أى فالعمل الفنى فى القرآن ليس هدفا ذاتيا، كما هى الصورة فى أذهان كثير ممّن يتحدثون عن الفن أو يمارسونه بشكل أو بآخر ... و إنما القيمة الفنية فى القرآن عموما و فى موضوع القصة خصوصا، خادم لتحقيق الهدف التربوى، و إدخال المضمون القرآنى من أيسر طريق إلى مقر اليقين من العقل و مكمن الوجدان من القلب.

*** القيمة التاريخية لقصص القرآن:

هل يحتاج هذا العنوان إلى بحث؟

إنك لو علمت أن النظر فى كل موضوع أو بحث، إنما يتم عن طريق المنطق و العقل المتجرد الحر، لأدركت أن هذا العنوان كلام غريب، و أن كتابة صحيفة أو صحيفتين تحته تضييع للوقت و معابثة للبديهيات.

و لكنك تعذرنى فى أن أكتب فى البدهيات، حينما تعلم أن كثيرا من البدهيات أصبحت فى عصرنا نظريات قابلة للجدل و البحث.

إن العقل البشرى لم يمرّ بمحنة كتلك التى يمرّ بها فى هذا العصر، و حسبك مظهرا من مظاهرها أن تقام فرضيّة ما طبق غرض معين أو شهوة نفسية أو حقد مستحكم، ثم يساق إليها العقل سوقا، فيراد على تأييد الفرضية و دعمها و لو بزيف من الأدلة و البراهين، ثم يراد على تفنيد ما يخالفها و لو بزيف من الأدلة و البراهين أيضا.

و كم من فرق بين أن ينطلق الإنسان من نقطة الصفر، ليسير من وراء ما يهديه إليه عقله المتجرد الحر، و بين أن يخطّ بغريزته السبيل التى يشتهيها ثم

من روائع القرآن، ص: ۲۰۵

يعمد فيقود عقله فيها، مكبّلا بالأغلال مسيّرا تحت لهيب السياط! ...

و مع هذا، فلم أكن أتصور أنى بحاجة إلى أن أبحث شيئا ما تحت عنوان: القيمة التاريخية لقصص القرآن، أو أن أنفق أىّ قدر من الوقت فى البدهيات، إلى أن اطّلعت على كلام فى منتهى الغرابة و العجب جاء فى كتاب:

الأدب العربى الحديث، من مقررات طلاب البكالوريا الأدبية «۱».

يقول الكاتب فى صفحة: ۳۰۲ تحت عنوان نماذج قصصية:

(إن مكتبتنا العربية تتدفق بعباب زاخر من قصص و أحاديث و محاورات و أسمار و خرافات يتجلّى بها وجه المجتمع العربى و تتوضح

فيها سماته، و تختلج روحه و حيويته. فالقرآن الكريم أشار إلى كثير من القصص إشارات خاطفة ليبيّن مواضع العبرة منها. و لا شك أن إشارات القرآن الكريم إلى هذه القصص دليل على أنها كانت من القصص الشعبى السائر الذى يتداوله الناس فى جزيرة العرب)!! ..

دعك من الطريقة المقصودة إلى إيهام أن منبع القصص القرآنى إنما هو ما كان يفيض به المجتمع العربى من خرافات و محاورات و أسمار. و لكنى أريد أن أعلم: فى أىّ مصدر تاريخى أو أدبى أو دينى أو جغرافى أو فلسفى، ثبت أو أشير إلى أن ما جاء به القرآن من قصص عاد و ثمود و نوح و فرعون و يوسف و أهل الكهف، إنما كان من القصص الشعبى السائر الذى كان الناس يتداولونه فى أسمارهم و نواديهم و محاوراتهم؟! .. بل حسبى أن أعلم اسم واحد فقط من العرب وقف أو جلس فى ناد من نوادى العرب يتحدث بكلمة واحدة من أىّ قصة جاء بها القرآن من بعد ... حسبى ذلك لألمح بارقة لرائحة دليل علمى، لكى أسرع فأقول إن بالإمكان أن يكون هذا صحيحا!!.

يا عجبا!! .. أ يكون القرآن كاذبا من حيث صدق الكاتب؟!.

القرآن يقول:

---

(۱) مما نحمد اللّه عليه أن هذا الكتاب ألغى أخيرا و استبدل به غيره، و اختفى منه هذا الغشاء، إلاـ أنه لاـ يزال مغروسا فى بعض الأذهان.

تِلْكَ مِنْ أَنْباءِ الْغَيْبِ نُوحِيها إِلَيْكَ، ما كُنْتَ تَعْلَمُها أَنْتَ وَ لا قَوْمُكَ مِنْ قَبْلِ هذا، فَاصْبِرْ إِنَّ الْعاقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ «۱».

أما الكاتب فيقول: لا شك أن إشارات القرآن إلى هذه القصص، دليل على أنها كانت من القصص الشعبى السائر الذى يتداوله الناس فى نواديهم «۲».

أ فكان فى العرب من يسكت على قوله تعالى: ... ما كُنْتَ تَعْلَمُها أَنْتَ وَ لا قَوْمُكَ ... لو أنها كانت حقّا من القصص الشعبى الذى يتداوله العرب فى أسمارهم؟

أو ما كانوا يتخذون من هذه الآية، إذا، راية يرفعونها و يتشبثون بها، ليعلنوا عن افتئات الرسول عليهم، و ليشوهوا بها سمعته عند كل من يعرفه من الناس؟.

فأين هم الذين أنكروا عليه هذه الآية؟. و أين هم الذين قالوا له: بل نحن نعرف هذه القصص قبل أن تحدّثنا عنها. و إنها من الأساطير التى تفيض بها مجالسنا و نوادينا؟.

أين الذى قال هذا الكلام للرسول صلّى اللّه عليه و سلّم؟ و ليكن واحدا فقط من جميع العرب، و ليكن من خصومه الألدّاء، بل و ليكن، إذا شاء هذا الكاتب، كاذبا مثله.

فنحن نكتفى بأى كلمة، من أى عربى عاش فى عصر النبى صلّى اللّه عليه و سلّم، تصلنا بأىّ سند صحيح أو ضعيف تكذّب النبى صلّى اللّه عليه و سلّم فى هذه الآية و تثبت عكسها من أن العرب كانوا يعلمون هذه القصص و أنها كانت من فكاهات أسمارهم و نواديهم.

---

(۱) هود: ۴۰.

(۲) محل إنكارنا على هؤلاء، دعواهم أن العرب كانوا على علم بتفاصيل هذه القصص كما جاء بها القرآن. فلو قالوا: إنهم كانوا قد سمعوا من قبل بعناوينها أو بأبرز أحداثها على وجه الإجمال، كسماعهم باسم الطوفان، و عاد، و ثمود، و الفراعنة، لما كان فى ذلك ما يستعظم و يدعونا إلى الإنكار.

من روائع القرآن، ص: ۲۰۷

و إلى أن يأتينا الكاتب بأىّ ثبت أو صورة ثبت من أى مصدر علمى يستر به سوأة كلمته العارية هذه، نقول له: لعلّك يا هذا نمت نومة ثقيلة صعد فيها إلى دماغك سحاب مركوم من أبخرة معدتك أو أحقاد نفسك، فحلمت أنك تسمر فى مجلس المتنبى مسيلمة الكذاب و عن يمينه النبيّة الأخرى سجاح. و أخذت تسمع القرآن كلّ منهما، حتى استفزك الطرب و تملكتك النشوة من جمال ما تسمع، فصحوت و قد انطبع قرآنهما الكريم فى خيالك! ... فعن ذلك القرآن جئت تقول هذا الذى تقول. و نعوذ باللّه من أبخرة تستقر من الرأس فى مكان العقل، فتجعل الرجل يفكر بالسمادير و الأوهام بدلا من أن يفكر بالمنطق المشرق الصافى.

*** و بعد، فما هى الوثائق التاريخية التى تعرف بها أحداث الجزيرة العربية و أوضاعها فى صدر الإسلام؟

يجمع كل الباحثين على أن القرآن هو أول وثيقة فى هذا الصدد. و ما من باحث يدرس أحوال الجزيرة العربية فى صدر الإسلام إلا و يضع القرآن أول مستند لدراسته و جمع معلوماته، مهما كانت عقيدة هذا الباحث فى مصدر القرآن و جوهره.

إذا ... كيف يجمّع الباحث المؤرّخ معلوماته عن الجزيرة على ضوء القرآن و أبحاثه و طابعه؛ حتى إذا وقف أمام أخباره عن الأمم الماضية و أحداثها ناقض نفسه قائلا: إن هذه الأخبار يعوزها السند التاريخى و الميزان العلمى الصحيح؟!.

سل جميع مؤرخى الشرق و الغرب عن أول مصدر يعتمدون عليه فى ما لهم من معلومات عن المسيح عليه الصلاة و السلام و عن موسى و خروجه من مصر و اجتيازه (تيه سيناء) إلى فلسطين، يجيبوك إنه: الكتب المقدسة.

أ فتكون هذه الكتب مصدرا تاريخيا علميا نزيها، ثم لا يكون القرآن واحدا من هذه المصادر على الأقل؟! ..

إن الأمر فى هذا يعود إلى واحدة من اثنتين:

من روائع القرآن، ص: ۲۰۸

إمّا أن تؤمن بأن القرآن ليس أكذوبة سجّلها محمد صلّى اللّه عليه و سلّم على ربّه عزّ و جلّ و إنما هو كلام اللّه و وحيه إليه، بلّغه إلى الناس بصدق و أمانة. و عندئذ فإن التاريخ هو الذى يستمدّ من حديث القرآن و أخباره، و ليس العكس، و ليس لك من سبيل إلى الشك بأى حرف منه.

و إما أنك لا تؤمن به كلاما من عند اللّه عزّ و جلّ، مهما قامت أمامك الأدلة و البراهين، و عندئذ نقول لك: لقد دلّ التاريخ بعمومه و دلّت السيرة النبوية بخصوصها، على أن ما جاء به القرآن من أخبار الأمم البائدة كان شيئا يجهله العرب جهلا تامّا، و إنما كان يعلم بعضا منه أهل الكتاب الذين درسوا التوراة و الإنجيل. و قد كان اليهود هم الذين يساكنون العرب فى جزيرتهم، و كانوا- كما هو معلوم- ضنينين بما عندهم من هذه المعلومات، و لم يكونوا يبوحون بها إلى غيرهم بأىّ شكل و لأى سبب.

و هذه الحقيقة التى لا ينكرها أىّ مثقف منصف، هى التى كوّنت معنى الإعجاز فى القصص القرآنى، فقد كان الرسول صلّى اللّه عليه و سلّم أميّا لم يقرأ كتابا و لا خطّه بيمينه و لم يدرس أو يتردد على واحد من أهل الكتاب، و كانوا كما قلت ضنينين بكل ما عندهم.

و قد تجلى هذا الإعجاز أول ما تجلّى لهؤلاء الكتابيين الذين عاصروا بعثة النبى صلّى اللّه عليه و سلّم، حيث رأوا فيه أبرز برهان على صدق نبوّته و رسالته.

روى محمد بن إسحاق عن ابن عباس قال: بعث قريش النضر بن الحارث و عقبة بن أبى معيط إلى أحبار اليهود بالمدينة ليسألوهم عن محمد، فخرجا حتى أتيا المدينة، فسألا أحبارها عن رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم و وصفا لهم أمره و بعض قوله. فقالوا لهما: سلوه عن ثلاث، فإن أخبركم بهنّ فهو نبى مرسل، و إلا فرجل متقوّل: سلوه عن فتية ذهبوا فى الدهر الأول ما كان من أمرهم فإنهم قد كان لهم حديث عجيب. و سلوه عن رجل طوّال بلغ مشارق الأرض و مغاربها ما كان نبؤه؟ و سلوه عن الروح ما هو؟ فرجعا إلى قريش و أخبراهم بقول الأحبار، فجاءوا يسألون رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم الأسئلة الثلاثة فقال لهم رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم: أخبركم غدا عمّا سألتم، و لم يقل: إن شاء اللّه. فتلبث الوحى

من روائع القرآن، ص: ۲۰۹

خمسة عشر يوما، و أحزن ذلك رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم، ثم جاءه جبريل بسورة الكهف، و فيها عتاب له على حزنه و فيها يقول اللّه عزّ و جلّ: وَ لا تَقُولَنَّ لِشَيْءٍ إِنِّي فاعِلٌ ذلِكَ غَداً إِلَّا أَنْ يَشاءَ اللَّهُ و فيها قصّ اللّه خبر أصحاب الكهف، و الرجل الطوّاف و هو ذو القرنين، و أنزل معها قوله: وَ يَسْئَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَ ما أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا «۱».

فهذا الخبر يدلك على أن ما تضمنه القرآن من قصص الأمم الغابرة، حقائق تاريخية تعتمد على وثائق و مستندات لا تقل أهمية عن تلك المستندات التى يعتمدها الكافرون بنبوّة محمد صلّى اللّه عليه و سلّم و أن المشركين لم يكونوا على علم بها.

فإن كنت تجحد بكل بحث تاريخى يعود إلى عصر الجاهلية و صدر الإسلام و تكذّب كل مرجع أو مستند فيه فلك شأنك و لنقاش ذلك مجال آخر، أما إن كنت تجحد بالقرآن وحده، من حيث تعتمد على روايات الشعر الجاهلى و فحواه و استنتاجاته، فإن من العبث العجيب و التناقض المضحك أن تعتمد على دلائل استنتاجية لا تقوم إلا على محض الخيال و الوهم، ثم تلوى الرأس متشككا فيما يحدّثك عنه القرآن و يخبرك به.

و لا ينبغى أن تلتبس عليك حقيقة القصة القرآنية بالأمثلة التى يضربها على سبيل التقريب و التشبيه. فلكلّ منهما أسلوبه المتميز، و ليس فى الناس من يجهل الفرق بين مثل يضرب به، و قصة تروى و تنقل. نقول هذا و نحن نعلم أن فى الناس من يتجاهلون الفرق و يغمضون أعينهم عمدا، ثم يذهبون يقررون أن القصة فى القرآن ليست أكثر من أمثلة تضرب.

و بدهى أن أىّ عاقل لا يمكن أن يصل به الغباء و اللّبس إلى درجة أن يتوهم أن قصة مريم و عيسى و هود و نوح و قصة موسى و فرعون، و أصحاب الكهف كلّ ذلك أمثلة تضرب. من روائع القرآن ۲۰۹ القيمة التاريخية لقصص القرآن: ..... ص : ۲۰۴

و الخلاصة، أن من آمن بأن القرآن وحى من عند اللّه، علم بذلك أن

---

(۱) انظر سيرة ابن هشام: ۱/ ۲۹۵، و تفسير ابن كثير و ابن جرير الطبرى فى أول سورة الكهف.

من روائع القرآن، ص: ۲۱۰

القصة القرآنية هى فى موضع القطع الذى لا يلحقه أىّ ريب. و من لم يؤمن بذلك، أدرك هذه الحقيقة نفسها إذا ما تأمل فى مصادر السيرة و التاريخ و علاقة القرآن بالكتب السماوية السابقة.

أما من اشتهى أن لا يدرك هذه الحقيقة، فليس أمامه إلى ذلك إلا سبيل واحد، هو أن يدّعى أن القرآن يكذب! ... و ذلك لأن القرآن يقول عن كل ما رواه من الأخبار و القصص:

ما كانَ حَدِيثاً يُفْتَرى، وَ لكِنْ تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَ تَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ وَ هُدىً وَ رَحْمَةً لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ (يوسف: ۱۱۱).

أما نحن فنقول: صدق ربّ العالمين.

من روائع القرآن، ص: ۲۱۱

المنهج التّربوىّ فى القرآن

مرة أخرى أكرّر ما قلته من أن القرآن إنما جاء ليتدبره الناس، فيصبحوا عبيدا للّه بالطوع و الاختيار، كما خلقهم عبيدا له بالفطرة و الإجبار.

و من أجل هذا، كان لا بدّ أن ينهج بالناس نهجا تربويا فى كل ما يأتيهم به من أخبار و آيات و عظات و أحكام. و من أجل هذا كان هذا الكتاب أعظم مصدر للتربية إلى جانب أنه أعظم كتاب يقدّم للإنسان حقائق الكون كله. فما هو منهجه التربوى، و ما هو أسلوبه فى ذلك! ..

إن الإجابة على هذا السؤال، تستدعى أن يفرد لذلك كتاب خاص، لا فصل مستقل من كتاب ... و لكنّا، وفاء بالمنهج الذى التزمناه، نسرع فنمر على بعض المظاهر التربوية فى القرآن، مكتفين بدراسة وجيزة لها.

المظهر الأول: أنه صبغ كل المواضيع التى طرقها و عالجها، بصبغة الهدى و الموعظة و الإرشاد. فلم ينسّق هذه المواضيع و الأبحاث على أساس وحدات منفصلة و مستقلة عن بعضها، كما هو شأن عامّة الكتب و المؤلفات المعهودة، إذ هى بذلك لا تؤدى عملها التربوى المقصود فى نفس الإنسان، و إنما بثّ فى جميعها شرايين التوجيه و النصح و الهداية، فصيّرها بذلك وحدة كاملة متضامّة تعمل عملا واحدا و تسير بالإنسان نحو غاية لا تختلف. و لا داعى إلى أن نأتى لك بالأمثلة على ذلك، فقد ذكرنا هذا البحث فيما مضى عند كلامنا عن خصائص الأسلوب القرآنى و عن القصة فى القرآن.

المظهر الثانى: ما ذكرناه من التدرّج فى الأحكام و كيفية أخذ الناس بها،

من روائع القرآن، ص: ۲۱۲

فالقرآن كما قد علمت لم يصبّ أحكامه و فرائضه فى حياة الناس دفعة واحدة، لكنه سعى بهم إليها على مراحل و فى خطوات رتّب بعضها على بعض و مهّدت السابقة منها للّاحقة. و ذلك كما قد علمت من دعوته الناس إلى العقيدة الصحيحة أولا، ثم إلى الإصلاح النفسى و الاجتماعى ثانيا، و كما قد علمت من تدرجه فى تحويل الناس عن عوائدهم و فواحشهم التى تعودوا عليها.

المظهر الثالث: السير بالناس، فى كل ما يلزم به من الأحكام، نحو السهولة و اليسر؛ و إقناعهم بأن كل ما قد يتصورونه قيودا، ليس إلا أسسا لا بدّ منها لسعادتهم و لصلاح معاشهم و معادهم، فهو يقول مثلا: ما يُرِيدُ اللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُمْ مِنْ حَرَجٍ، وَ لكِنْ يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ وَ لِيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ «۱» و يقول: يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَ لا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ «۲» و يلفت نظرهم إلى أن الشريعة الإسلامية إنما تحمل إليهم فى طيّها سرّ الحياة السعيدة للفرد و الجماعة فيقول: يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَ لِلرَّسُولِ إِذا دَعاكُمْ لِما يُحْيِيكُمْ «۳» و يقول: مَنْ عَمِلَ صالِحاً مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثى وَ هُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَياةً طَيِّبَةً وَ لَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ ما كانُوا يَعْمَلُونَ «۴».

المظهر الرابع: أنه يضع المتأمل فى آياته فى حالة وسطى بين الخوف من عذاب اللّه تعالى، و رجاء رحمته و عفوه؛ و ذلك كى لا يسيطر عليه من الرهبة و الخوف ما يجعله فى يأس من سعة عفوه، فيمضى بذلك فى الطريق التى يشتهيها لاعتقاده بعدم الجدوى من الحذر و الاستقامة، و لكى لا يفيض قلبه أملا بمعانى الرحمة و المغفرة وحدها، فلا يجد بذلك ما يصدّه عن ارتكاب أىّ منكر و الانحراف إلى أىّ زلل.

و القرآن يربى النفس البشرية هذه التربية باتباع أسلوبين:

الأول: أنه حينما يصف الكفرة و المشركين الذين استحقوا عذاب اللّه

---

(۱) المائدة: ۶.

(۲) البقرة: ۱۸۵.

(۳) الأنفال: ۳۴.

(۴) النحل: ۹۸.

من روائع القرآن، ص: ۲۱۳

و نكاله يصفهم بأسوإ أعمالهم و أحطّ ما انتهوا إليه من الخصال، حتى إذا تأملت فى حالهم رجعت إلى نفسك فقلت: أحمد اللّه على أنى لست منهم و لم أبلغ مبلغهم فى السوء و الانحراف. و حينما يصف المؤمنين الذين استحقوا ثواب اللّه و رضوانه، يصفهم أيضا باسمى خصالهم و أفضل أعمالهم حتى إذا تأملت فى حالهم، عدت إلى نفسك تقول فى تألم و أسف: أين عملى من أعمالهم و أين تقصيرى من سموّ درجاتهم. و بذلك تجد ذاتك فى حالة وسطى بين الرجاء فى عفو اللّه و الخوف من عذابه.

و لنضرب مثلا لتجلية هذا المظهر التربوى فى كتاب اللّه عزّ و جلّ. انظر إلى هذه الآيات و هى تصف الأسباب التى أدّت إلى شقاء صنف من الناس يوم القيامة: يَتَساءَلُونَ عَنِ الْمُجْرِمِينَ، ما سَلَكَكُمْ فِي سَقَرَ؟ قالُوا لَمْ نَكُ مِنَ الْمُصَلِّينَ، وَ لَمْ نَكُ نُطْعِمُ الْمِسْكِينَ، وَ كُنَّا نَخُوضُ مَعَ الْخائِضِينَ، وَ كُنَّا نُكَذِّبُ بِيَوْمِ الدِّينِ «۱» فأنت إذا سمعت هذه الأوصاف حمدت اللّه على أنك لست منهم مهما كنت مخطئا و مقصرا.

ثم انظر إلى هذه الآيات الأخرى و هى تصف الأسباب التى بها يسعد الناس فى حياة خالدة يوم القيامة: وَ عِبادُ الرَّحْمنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْناً وَ إِذا خاطَبَهُمُ الْجاهِلُونَ قالُوا سَلاماً، وَ الَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّداً وَ قِياماً وَ الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا اصْرِفْ عَنَّا عَذابَ جَهَنَّمَ إِنَّ عَذابَها كانَ غَراماً ... «۲» أو إلى هذه الآيات التى يقول فيها اللّه عزّ و جلّ: إِنَّما يُؤْمِنُ بِآياتِنَا الَّذِينَ إِذا ذُكِّرُوا بِها خَرُّوا سُجَّداً وَ سَبَّحُوا بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَ هُمْ لا يَسْتَكْبِرُونَ، تَتَجافى جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفاً وَ طَمَعاً وَ مِمَّا رَزَقْناهُمْ يُنْفِقُونَ، فَلا تَعْلَمُ نَفْسٌ ما أُخْفِيَ لَهُمْ مِنْ قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزاءً بِما كانُوا يَعْمَلُونَ «۳» فأنت إذا تأملت هذه الأوصاف، تضاءلت نفسك أمامك، و تبدّت لك منها مظاهر التخلّف و التقصير.

---

(۱) المدثر: ۱- ۴۶.

(۲) الفرقان: ۶۳ و ۶۴ و ۶۵.

(۳) السجدة: ۱۵ و ۱۶ و ۱۷.

من روائع القرآن، ص: ۲۱۴

و من هاتين النظرتين يتولد الخوف و الرجاء و يتمازجان فى حياة الإنسان؛ و يتولد منهما معنى يدفعه فى سبيل معتدل يجمع فيها بين الوفاء بحق نفسه و حق اللّه عزّ و جلّ.

الثانى: أنك لا تجد آية فى كتاب اللّه فيها الحديث عن الجنة و نعيمها و عن الصالحين و ما أعدّ اللّه لهم من المثوبة، إلا و تجد من بعدها آية فيها الحديث عن النار و هولها و عن الكافرين و ما أعدّ اللّه لهم من العقوبة. و لا تكاد تجد فى القرآن آية أو آيات قد انفردت بوصف الشدّة أو الرخاء دون أن يكون إلى جانبها آية أو آيات فيها وصف الطرف الآخر. و الحكمة من ذلك أن لا يرهب الإنسان رهبة تقذف به إلى اليأس، و لا يرغب رغبة تغريه بالعقود و الكسل.

و لنضرب بعض الأمثلة على هذا:

۱- يَوْمَ نَقُولُ لِجَهَنَّمَ هَلِ امْتَلَأْتِ وَ تَقُولُ هَلْ مِنْ مَزِيدٍ، وَ أُزْلِفَتِ الْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ غَيْرَ بَعِيدٍ، هذا ما تُوعَدُونَ لِكُلِّ أَوَّابٍ حَفِيظٍ «۱».

۲- إِنَّ أَصْحابَ الْجَنَّةِ الْيَوْمَ فِي شُغُلٍ فاكِهُونَ، هُمْ وَ أَزْواجُهُمْ فِي ظِلالٍ عَلَى الْأَرائِكِ مُتَّكِؤُنَ، لَهُمْ فِيها فاكِهَةٌ وَ لَهُمْ ما يَدَّعُونَ، سَلامٌ قَوْلًا مِنْ رَبٍّ رَحِيمٍ. وَ امْتازُوا الْيَوْمَ أَيُّهَا الْمُجْرِمُونَ، أَ لَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يا بَنِي آدَمَ أَنْ لا تَعْبُدُوا الشَّيْطانَ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ ... «۲».

۳- نَبِّئْ عِبادِي أَنِّي أَنَا الْغَفُورُ الرَّحِيمُ، وَ أَنَّ عَذابِي هُوَ الْعَذابُ الْأَلِيمُ «۳».

۴- قُلْ يا عِبادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلى أَنْفُسِهِمْ لا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعاً إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ، وَ أَنِيبُوا إِلى رَبِّكُمْ وَ أَسْلِمُوا لَهُ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَكُمُ الْعَذابُ ثُمَّ لا تُنْصَرُونَ «۴».

---

(۱) ق: ۳۰ و ۳۱.

(۲) يس: ۵۵ و ۵۶ و ۵۷ و ۵۸ و ۵۹ و ۶۰.

(۳) الحجر: ۴۹ و ۵۰.

(۴) الزمر: ۵۳ و ۵۴.

من روائع القرآن، ص: ۲۱۵

و قس على هذه الأمثلة كل ما فى القرآن من آيات الوعد و الوعيد و وصف الجنة و النار، لا بدّ أن تجد الحديث عن كلّ منهما معادلا و مقارنا للحديث عن الآخر، و لا يمكن أن تعثر على أىّ شذوذ فى ذلك.

و هذه الظاهرة، من أدق مظاهر المنهج التربوى و أهمها فى كتاب اللّه عزّ و جلّ إذ هى التى تضع الإنسان فى مستوى العبودية للّه عزّ و جلّ، حيث تشدّه إليه رغبة و رهبة بآن واحد؛ و هى النهاية التى ينبغى أن ينتهى إليها العبد بالنسبة لربه جلّ جلاله. و قد نبّه إليها أبو بكر الصديق رضى اللّه عنه، خلال وصيته العظيمة لعمر بن الخطاب أثناء مرض موته.

و لعلّ من المناسب أن نختم هذا الفصل بمقاطع منها:

... أ لم تر يا عمر أنما ثقلت موازين من ثقلت موازينهم يوم القيامة باتباعهم الحق و ثقله عليهم، و حق لميزان لا يوضع فيه غدا إلا حق أن يكون ثقيلا، أ لم تر يا عمر إنما خفّت موازين من خفّت موازينه يوم القيامة باتباعهم الباطل و خفته عليهم، و حق لميزان لا يوضع فيه غدا إلا باطل أن يكون خفيفا.

أ لم تر يا عمر إنما نزلت آية الرخاء مع آية الشدة، و نزلت آية الشدة مع آية الرخاء، ليكون المؤمن راغبا راهبا لا يرغب رغبة يتمنى فيها على اللّه ما ليس له، و لا يرهب رهبة يلقى فيها بيديه. أ لم تر يا عمر إنما ذكر اللّه أهل النار بأسوإ أعمالهم، فإذا ذكرتهم قلت إنى لأرجو أن لا أكون منهم، و إنما ذكر أهل الجنة بأحسن أعمالهم، لأنه تجاوز لهم عمّا كان من سيّئ، فإذا ذكرتهم قلت أين عملى من أعمالهم. فإن حفظت وصيتى فلا يكن غائب أحبّ إليك من الموت، و هو آتيك. و إن ضيعت وصيتى فلا يكن غائب أبغض إليك من الموت و لست بمعجز اللّه) «۱».

---

(۱) البيان و التبيين للحافظ ۲/ ۴۵ هذا و قد أفردنا الحديث عن المنهج التربوى فى القرآن برسالة مستقلة أدرجناها فى سلسلة أبحاث فى القمة، و عنوانها: (منهج تربوى فريد فى القرآن).

من روائع القرآن، ص: ۲۱۶

النّزعة الإنسانيّة فى القرآن

اشارة

القرآن كتاب عربى، نزل بلغة العرب، و صيغ بلهجة أوسط القبائل العربية: قريش.

و كتاب هذا شأنه، كان ينبغى- له أنه ظهر فى الأرض و لم ينزل من السماء- أن يتأثر تأثرا ما، من حيث مبادئه و أفكاره، بنزعة البيئة أو الإقليم أو القوم الذين ظهر بينهم و جاء بلغتهم، كما هو الشأن لعامّة الكتب و المؤلفات الأخرى.

و لكنك لا تبصر من ورائه إلا السمة الإنسانية المطلقة، فهو فى كل ما يصدر عنه من عقيدة و أخلاق و تشريع و عظات، إنما يقدم من ذلك كله ثوبا قد فصّل على قدر الحقيقة الإنسانية كلها أينما وجدت و كيفما تنوعت.

و مهما نظرت فى هذا الثوب، فلن تجد فيه أىّ مظهر لطابع البيئة أو القبيلة، سواء فى شكله أو جوهره.

و هذا ما نعنيه عند ما نصف القرآن بأنه: إنسانى النزعة فى كلّ من موضوعه و أسلوبه. فلنشرح هذا الوصف بالقدر الذى يفى بغرضنا من هذا الكتاب.

أولا- النزعة الإنسانية فى القرآن من حيث الموضوع:

تتجلى النزعة الإنسانية فى عامة موضوعات القرآن، فلنتلمسها فى كل موضوع على حدة:

من روائع القرآن، ص: ۲۱۷

أ- العقيدة: أوضح القرآن وحدانية اللّه جلّ جلاله و مالكيته للعالم كله، دون تمييز بين رقعة و أخرى منه، و دون أن يخصّ بخطابه فى هذا البيان فئة معينة.

فقال: الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعالَمِينَ و قال: فَلِلَّهِ الْحَمْدُ رَبِّ السَّماواتِ وَ رَبِّ الْأَرْضِ رَبِّ الْعالَمِينَ «۱».

و أوضح بعثة رسوله محمد عليه الصلاة و السلام إلى البشر كلهم، فى بقاع الأرض، و فى كل الأزمنة التالية، دون أى نظرة خاصة فى ذلك إلى الذين بعث من بينهم أو البيئة التى ظهر فيها فقال: قُلْ يا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّى رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعاً «۲» و قال: تَبارَكَ الَّذِى نَزَّلَ الْفُرْقانَ عَلى عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعالَمِينَ نَذِيراً «۳» و قال: وَ ما أَرْسَلْناكَ إِلَّا كَافَّةً لِلنَّاسِ بَشِيراً وَ نَذِيراً «۴».

و قرر عبودية الإنسان للّه عزّ و جلّ، لا فرق بين عرق و آخر أو بيئة و أخرى و لم يلحظ فى ذلك أىّ خصوصية أو امتياز بين العرب الذين كان الرسول منهم و بين أىّ جماعة أخرى من الناس. فقال: إِنْ كُلُّ مَنْ فِى السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ إِلَّا آتِى الرَّحْمنِ عَبْداً، لَقَدْ أَحْصاهُمْ وَ عَدَّهُمْ عَدًّا «۵» و قال: وَ هُوَ الْقاهِرُ فَوْقَ عِبادِهِ وَ هُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ «۶».

و لفت أنظار الناس إلى أدلة وجود اللّه و وحدانيته، فلم يقدم أى دليل يخصّ بيئة معينة، أو يوجد لدى قوم بخصوصهم، أو تفهمه طبقة دون سواها.

و إنما عرض من ذلك ما يفهمه و يألفه كل إنسان و فى كل زمان و مكان. و الآيات التى تتضمن الأدلة المختلفة على وجود اللّه و وحدانيته كثيرة و مشهورة، لا- داعى إلى الإطالة بذكرها. فتأملها تجدها متجهة إلى الفكر الإنسانى العام المتمثل فى سائر الفئات و الجماعات.

---

(۱) الجاثية: ۳۶.

(۲) الأعراف: ۱۰۸.

(۳) الفرقان: ۱.

(۴) سبأ: ۸۸.

(۵) مريم: ۹۳ و ۹۴.

(۶) الأنعام: ۱۸.

من روائع القرآن، ص: ۲۱۸

ب- التشريع: إذا أمعنت النظر، وجدت قانون كل أمة أو دولة أو جماعة من الناس، إنما يعكس طبيعتها و أعرافها و يتجاوب مع ظروفها فشريعة كل أمة إذا تعبير عن حاجتها و متطلباتها فقط دون أىّ نظر إلى ما وراء حدودها.

غير أن التشريع القرآنى لا تجد فيه أىّ منزع إلى عرق أو طائفة أو جماعة ... و إنما هو ينبثق عن أسس و مبادئ إنسانية مطلقة، بحيث تأتى عامّة فروعه متطابقة معها فى دقة و اطّراد.

و لنضرب أمثلة لإيضاح هذه الحقيقة:

سورة النساء، من السور التى تفيض بالأحكام التشريعية المتعلقة بتنظيم الأسرة و حقوق المرأة، و نظام الحكم، و تقويم العدالة و ضبط حقيقتها. فانظر كيف بدأت هذه السورة بوضع الركيزة الأساسية لتلك الأحكام كلها، و كيف لفتت أنظار الذين سينصتون إلى هذه الأحكام التالية، إلى أن المنطلق إلى تقريرها و وجوب الأخذ بها إنما هو النظر إلى مصلحة الأسرة الإنسانية المطلقة دون أى التفات إلى الظروف المتنوعة و المختلفة للبيئات و الجماعات. و هذه هى الركيزة الأساسية:

يـا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِى خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ واحِدَةٍ وَ خَلَقَ مِنْها زَوْجَها، وَ بَثَّ مِنْهُما رِجالًا كَثِيراً وَ نِساءً، وَ اتَّقُوا اللَّهَ الَّذِى تَساءَلُونَ بِهِ وَ الْأَرْحامَ إِنَّ اللَّهَ كانَ عَلَيْكُمْ رَقِيباً «۱».

فالمنطلق لتقرير كل الأحكام و التشريعات إنما هو الرحم الإنسانية العامة.

ففى سبيلها ستتلى الأحكام التالية، و على ضوئها ينبغى أن تفهم حقيقة المقررات التشريعية التى تفيض بها السورة.

و تمضـى فى قراءة السورة، فتجد سـلطان هذا المنطلق الأول ممتدا إلى سلسلة الأحكام و التنظيمات التالية كلها: حقوق اليتامى، حقوق النساء، فرائض الميراث، أحكام النكاح و مقوّمات الأسرة، نظام الحكم و سلطان

---

(۱) النساء: ۱.

من روائع القرآن، ص: ۲۱۹

الحـاكم، و العدالـة الاجتماعيـة و ميزانهـا. و ليس فى فرع من فروعهـا أو أىّ جـانب من جوانبهـا انعكاس ما لنظرة إقليميـة أو عرقيـة أو امتيازات طائفية، بحيث تضيق من النظرة الإنسانية الشاملة التى كانت المنطلق و الأساس.

و لنجسد هذه الحقيقة بمثال للميزان القرآنى الذى وضع لمعنى العدالة، أساسا للتشريع:

رجـل من أهـل المدينـة اسـمه: طعمـة بن أبيرق، سـرق درعـا من جار له، يقال له قتادة بن النعمان، و كانت الـدرع فى كيس فيه دقيق فحبأها عنـد رجل من اليهود يقال له زيـد بن السـمين، و كان الـدقيق ينتثر من الجراب فى الطريق فاتهم قتادة طعمة بالسـرقة، و التمس الـدرع عنـده فلم توجـد، و حلف لهم: و اللّه ما أخـذها و ما له بها من علم. ثم اتبعوا أثر الـدقيق حتى انتهوا إلى اليهودى فأخذوه فقال لهم: لقـد دفعها إلىّ طعمة بن أبيرق، فلم يصدقه أحد. و جاء بنو ظفر- و هم قوم طعمة- إلى رسول اللّه صـلّى اللّه عليه و سـلّم يسألونه أن يـدافع عن صاحبهم تجاه اتهام اليهودى له بالسـرقة و اتهامه بأنه هو الذى أعطاه الدرع. و كان قوم طعمة قد تواطئوا مع صاحبهم أن يسـتميلوا النبى صلّى اللّه عليه و سلّم إليهم، كى لا يجد اليهودى أذنا صاغية له. و اقتنع رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم معهم بذلك و همّ بأن يـدافع عنه و يحكم على اليهودى بالسـرقة. فنزلت هـذه الآيات المتتاليـة من سورة النساء، توضـح للنبى الحقيقة و تفضح ما بيّته المنافقون فيما بينهم، و تكشف للنبى صلّى اللّه عليه و سلّم سبيل الحكم العادل المتجرد.

إِنَّا أَنْزَلْنا إِلَيْكَ الْكِتابَ بِالْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ بِما أَراكَ اللَّهُ، وَ لا تَكُنْ لِلْخائِنِينَ خَصِيماً، وَ اسْتَغْفِرِ اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ كانَ غَفُوراً رَحِيماً، وَ لا تُجادِلْ عَنِ الَّذِينَ يَخْتانُونَ أَنْفُسَهُمْ إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ مَنْ كانَ خَوَّاناً أَثِيماً. يَسْتَخْفُونَ مِنَ النَّاسِ وَ لا يَسْتَخْفُونَ مِنَ اللَّهِ وَ هُوَ مَعَهُمْ، إِذْ يُبَيِّتُونَ مـا لا يَرْضـى مِنَ الْقَوْلِ، وَ كـانَ اللَّهُ بِمـا يَعْمَلُونَ مُحِيطاً. ها أَنْتُمْ هؤُلاءِ جادَلْتُمْ عَنْهُمْ فِى الْحَياةِ الـدُّنْيا فَمَنْ يُجادِلُ اللَّهَ عَنْهُمْ يَوْمَ الْقِيامَةِ أَمْ مَنْ يَكُونُ عَلَيْهِمْ وَكِيلًا. وَ مَنْ يَعْمَلْ سُوءاً أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ اللَّهَ يَجِدِ اللَّهَ غَفُوراً رَحِيماً. وَ مَنْ يَكْسِبْ إِثْماً فَإِنَّما يَكْسِبُهُ عَلى نَفْسِهِ، وَ كانَ اللَّهُ عَلِيماً حَكِيماً. وَ مَنْ يَكْسِبْ خَطِيئَةً أَوْ إِثْماً ثُمَّ يَرْمِ بِهِ بَرِيئاً فَقَدِ احْتَمَلَ بُهْتاناً وَ إِثْماً

من روائع القرآن، ص: ۲۲۰

مُبِيناً. وَ لَوْ لا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ وَ رَحْمَتُهُ لَهَمَّتْ طائِفَةٌ مِنْهُمْ أَنْ يُضِلُّوكَ وَ ما يُضِلُّونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ وَ ما يَضُرُّونَكَ مِنْ شَيْءٍ، وَ أَنْزَلَ اللَّهُ عَلَيْكَ الْكِتابَ وَ الْحِكْمَةَ وَ عَلَّمَكَ ما لَمْ تَكُنْ تَعْلَمُ وَ كانَ فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيماً «۱».

فقد ذاب فى ميزان العدالة فى التشريع الإسلامى، العرق و القرابة و الطائفية و التبعية، و لم يبق فيه إلا اعتبار واحد: هو الحقيقة الإنسانية المطلقة.

ج- الأخلاق و المبادئ: ليس الخلق النبيل فى القرآن، عبارة عن السلوك الذى ينسجم مع ما تواضعت عليه البيئة أو الجماعة المعينة من المعايير السلوكية و الخليقة المستحسنة، كما هى النظرة لدى عامة الذين بحثوا من عند أنفسهم فى مقوّمات الفضيلة و الأخلاق.

و إنمـا الأخلاق و الفضـيلة فى القرآن، مجموعـة الاعتبارات و المناهـج السـلوكية التى تتلاءم مع الفطرة الإنسانيـة الصافيـة من جانب و

تساعد فی إرساء قواعد السعادهٔ الإنسانیهٔ للفرد و الجماعهٔ من جانب آخر. و من ثم فأنت لا تجد فی هذه المناهج السلوکیهٔ قابلیهٔ للاختلاف و التغیّر ما بین بیئهٔ و أخری، لأنها لم تنشأ من أعراف بیئهٔ، و لکنها انبثقت عن الفطرهٔ الإنسانیهٔ الشاملهٔ.

فمن المبادئ الخلقیهٔ فی القرآن، اعتبار الناس کلهم، مهما اختلفت أعراقهم و أنسابهم و بیئاتهم، فی مستوی واحد من الکرامهٔ و الحریهٔ الإنسانیهٔ، و لا یتفاضلون بعد ذلک إلا بما یحرزه کلّ منهم من السبق بسعیه الخاص فی میدان الجهد الإنسانی المفید المشرف.

یا أَیُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْناکُمْ مِنْ ذَکَرٍ وَ أُنْثی وَ جَعَلْناکُمْ شُعُوباً وَ قَبائِلَ لِتَعارَفُوا إِنَّ أَکْرَمَکُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقاکُمْ «۲».

و من المبادئ الخلقیهٔ فی القرآن، إلزام الأبناء بحسن معاملهٔ الآباء و خفض جناح اللطف و الرحمهٔ لهم، مهما کان بین الطرفین من تباعد فی الرأی أو اختلاف فی المذهب. و هو مبدأ إنسانی غیر ناظر إلی طبیعهٔ خاصهٔ أو عرف معین، یقتضیه ضمان سلامهٔ الأسرهٔ الإنسانیهٔ التی تتدرج صعدا من الخلیهٔ

(۱) النساء: ۱۰۶– ۱۱۳.

(۲) الحجرات: ۱۳.

من روائع القرآن، ص: ۲۲۱

الأولی فی المجتمع و هی الأسرهٔ. یقول اللّه عزّ و جلّ: وَ وَصَّیْنَا الْإِنْسانَ بِوالِدَیْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُ وَهْناً عَلی وَهْنٍ وَ فِصالُهُ فِی عامَیْنِ أَنِ اشْکُرْ لِی وَ لِوالِدَیْکَ إِلَیَّ الْمَصِیرُ. وَ إِنْ جاهَداکَ عَلی أَنْ تُشْرِکَ بِی ما لَیْسَ لَکَ بِهِ عِلْمٌ فَلا تُطِعْهُما، وَ صاحِبْهُما فِی الدُّنْیا مَعْرُوفاً وَ اتَّبِعْ سَبِیلَ مَنْ أَنابَ إِلَیَّ ثُمَّ إِلَیَّ مَرْجِعُکُمْ فَأُنَبِّئُکُمْ بِما کُنْتُمْ تَعْمَلُونَ «۱».

و من المبادئ القرآنیهٔ العامهٔ ما أثبته القرآن من أن الإنسان لا یلاحق أو یؤاخذ إلا بما اجترحه بنفسه، و أنه لا یؤخذ بعمل غیره أو بشیء من مظاهر الطبیعهٔ و أحداثها فیقول: وَ کُلَّ إِنسانٍ أَلْزَمْناهُ طائِرَهُ فِی عُنُقِهِ وَ نُخْرِجُ لَهُ یَوْمَ الْقِیامَهِٔ کِتاباً یَلْقاهُ مَنْشُوراً «۲» و یقول: مَنِ اهْتَدی فَإِنَّما یَهْتَدِی لِنَفْسِهِ وَ مَنْ ضَلَّ فَإِنَّما یَضِلُّ عَلَیْها وَ لا تَزِرُ وازِرَهٌٔ وِزْرَ أُخْری وَ ما کُنَّا مُعَذِّبِینَ حَتَّی نَبْعَثَ رَسُولًا «۳». و تأمل فی کل ما وصّی به القرآن من المبادئ الأخلاقیهٔ، تجد المعنی الإنسانی وحده هو المتمثل فیها و هو الأساس فی الدعوهٔ إلیها و الأمر بها.

ثانیا– النزعهٔ الإنسانیهٔ فی القرآن من حیث الأسلوب:

یرکّز الأسلوب القرآنی، فیما یعبّر عنه من الموضوعات و المعانی، علی السمهٔ الإنسانیهٔ الشاملهٔ؛ و یحاذر أن یأتی فی خطابه للناس أو فی شیء من تعلیقاته علی الأحداث، بما یتبه فکر القارئ إلی خصوص بیئهٔ أو عرق أو إقلیم أو جماعهٔ معینهٔ من الناس.

فأنت تری الخطاب القرآنی یتجه إلی المخاطبین، مستعملا کلمهٔ:

الناس، أو بنی آدم أو المؤمنین. و لم ترد و لو مرهٔ کلمهٔ العرب أو قریش. أو أهل کذا، أو ما یشابه ذلک من صیغ الخطاب الخاصهٔ بفئهٔ معینهٔ من الناس. و إلیک نموذجا من النداءات القرآنیهٔ:

یا أَیُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّکُمْ إِنَّ زَلْزَلَهَٔ السَّاعَهِٔ شَیْءٌ عَظِیمٌ «۴».

(۱) لقمان: ۱۳ و ۱۵.

(۲) الإسراء: ۱۳.

(۳) الإسراء: ۱۵.

(۴) الحج: ۱.

من روائع القرآن، ص: ۲۲۲

يا بَنِي آدَمَ قَدْ أَنْزَلْنا عَلَيْكُمْ لِباساً يُوارِي سَوْآتِكُمْ وَ رِيشاً وَ لِباسُ التَّقْوى ذلِكَ خَيْرٌ «۱».

أَ لَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يا بَنِي آدَمَ أَنْ لا تَعْبُدُوا الشَّيْطانَ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ «۲».

قُلْ يا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعاً «۳».

ثم إن القرآن، رغم نزوله كما علمت، متدرجا، و مع مناسبات الوقائع و جوابا على الأسئلة و المشكلات، فإنه لم يربط أحكامه و بياناته بشيء من تلك الوقائع و المشكلات، و لم يسجل أيّ اسم من أسماء أولئك الذين نزلت فى حقهم آيات و أحكام، و إنما نزلت الآيات موضوعية عامة، دون أن تذكر اسم شخص أو تنزل إلى مستوى مشكلة بخصوصها. و ذلك كى يبقى القرآن فى كلّ من أسلوبه و موضوعه كتابا إنسانيا يضع المبادئ و المناهج للبشر كلهم، و يشرّع الأحكام و الأنظمة للإنسانية جمعاء.

و لقد مرّت بك فى أسباب النزول نماذج كثيرة من الآيات التى نزلت بمناسبات معينة ذمّا أو مدحا لأشخاص بأعيانهم؛ و لكنها جاءت بصيغ العموم و بأسلوب موضوعى دون ذكر اسم لأحد.

و من أجل هذا كان من القواعد الفقهية المتفق عليها قولهم: العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب.

أى إن خصوصية السبب لا تؤثر على عموم الصيغة و لا تضيق شيئا من عمومها لأن منهج القرآن أنه يبنى على الوقائع الخاصة أحكاما و مبادئ عامة.

***

(۱) الأعراف: ۲۶.

(۲) يس: ۶۰.

(۳) الأعراف: ۱۵۸.

من روائع القرآن، ص: ۲۲۳

فلسفة القرآن عن الكون و الإنسان و الحياة

اشارة

فى الوقت الذى يعتبر فيه القرآن معجزة اللغة العربية و بيانها، و كتابا فى التشريع و القانون، و معلّما للفضيلة و الأخلاق- فإنه يحمل إلى الناس أسس حضارة إنسانية شاملة، و ذلك عن طريق المفهوم الذى يقدمه عن كلّ من الكون و الإنسان و الحياة و وجه التفاعل و التناسق بينها.

و لن يتسع المجال فى هذا المقام لشرح التقرير الذى يضعه القرآن عن كلّ من هذه العناصر الثلاثة للحضارة فى كل زمان و مكان، فإن من شأن ذلك أن يبعدنا عن الغرض الذى نحن بصدده؛ و لكنا نتناول من هذا البحث القدر الذى يفى بحاجتنا للتعرّف على هذا الكتاب العظيم، و يكشف لنا أهم خصائصه و محتوياته.

نظرة القرآن إلى الكون:

القرآن يبصّر الإنسان بالكون الذى حوله على أنه جملة من المظاهر المخلوقة أبدعها اللّه عزّ و جلّ فى انتظام و تناسق لغرضين اثنين:

الأول: أن يتأمل الإنسان فيه و يتنبه إلى مدى دقته و تناسق نواحيه و أجزائه، ليتوصل من ذلك إلى الإيمان بالخالق جلّ جلاله، ثم إلى إدراك ألوهيته و ربوبيته المطلقة، ثم إلى إدراك أنه عبد لهذا الإله العظيم. و هو يقول فى بيان هذا الأمر الأول: إِنَّ فِي خَلْقِ السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ وَ اخْتِلافِ اللَّيْلِ وَ النَّهارِ وَ الْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِما يَنْفَعُ النَّاسَ، وَ ما أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّماءِ مِنْ ماءٍ فَأَحْيا بِهِ

الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِها وَ بَثَّ فِيها مِنْ كُلِّ دَابَّةٍ وَ تَصْرِيفِ الرِّياحِ

من روائع القرآن، ص: ۲۲۴

وَ السَّحابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّماءِ وَ الْأَرْضِ لَآياتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ «۱».

و يقول: إِنَّ فِي خَلْقِ السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ وَ اخْتِلافِ اللَّيْلِ وَ النَّهارِ لَآياتٍ لِأُولِي الْأَلْبابِ، الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِياماً وَ قُعُوداً وَ عَلى جُنُوبِهِمْ وَ يَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ، رَبَّنا ما خَلَقْتَ هذا باطِلًا سُبْحانَكَ فَقِنا عَذابَ النَّارِ «۲».

الثانى: أن تكون هذه المظاهر الكونية كلها مسخرة لخدمة الإنسان و مصلحته و حاجاته فوق هذه الأرض، و أن يجد فيها- بمقدار ما يتسع له إدراكه و علمه- دواء لمصائبه و حلّا لمشكلاته و فائدة لحياته. و من ثم فإن على الإنسان أن يقبل على الكون تفهما له و استفادة منه. و فى ذلك يقول اللّه عزّ و جلّ فى عبارة عامة شاملة: هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُمْ ما فِي الْأَرْضِ جَمِيعاً «۳».

ثم يقول فى بيان مفصّل: اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّماواتِ وَ الْأَرْضَ وَ أَنْزَلَ مِنَ السَّماءِ ماءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَراتِ رِزْقاً لَكُمْ وَ سَخَّرَ لَكُمُ الْفُلْكَ لِتَجْرِيَ فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ وَ سَخَّرَ لَكُمُ الْأَنْهارَ، وَ سَخَّرَ لَكُمُ الشَّمْسَ وَ الْقَمَرَ دائِبَيْنِ وَ سَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَ النَّهارَ «۴». و قال: وَ سَخَّرَ لَكُمْ ما فِي السَّماواتِ وَ ما فِي الْأَرْضِ جَمِيعاً مِنْهُ، إِنَّ فِي ذلِكَ لَآياتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ «۵». و من ثم فإن القرآن يحذّر الإنسان من أن ينظر إلى شىء من مظاهر الكون و فوائده المختلفة على أنه مما يجب الصدود عنه و عدم اشغال الذهن أو الحياة به، رهبة أو تزهدا أو تعبدا، و يقول: قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبادِهِ وَ الطَّيِّباتِ مِنَ الرِّزْقِ «۶».

و إذا، فجملة ما يقرره القرآن عن الكون أنه خادم أمين مسخّر للإنسان، يستفيد منه الإنسان بمقدار ما يتأمل فيه و يستبطن ظواهره. و كلمة «التسخير»

---

(۱) البقرة: ۱۶۴.

(۲) آل عمران: ۱۹۰، ۱۹۱.

(۳) البقرة: ۲۹.

(۴) إبراهيم: ۲۲ و ۲۳.

(۵) الجاثيه: ۱۲.

(۶) الأعراف: ۳۲.

من روائع القرآن، ص: ۲۲۵

من أقوى التعابير فى الدلالة على الخدمة المستقرة الدائبة؛ و على أن للإنسان أن يستفيد منه و يستخدمه لصالحه فى المعاش الدنيوى و المعاد الأخروى.

نظرة القرآن إلى الإنسان:

الإنسان فى القرآن مخلوق يحمل أخطر مميزات و صفات يحملها مخلوق على الإطلاق. هذه المميزات هى: جملة الصفات الإنسانية المركبة فيه، من العقل و ما يتفرع عنه من العلم و الإدراك و القدرة على تحليل الأشياء و سير أغوارها، و الأنانية و ما يتفرع عنها من النزوع إلى الأثرة و المنافسة و التملّك، و القوة و ما يتفرع عنها من حبّ العظمة و النزوع إلى السيطرة و الكبرياء. و نظرا لما لهذه الصفات من الخطورة و الأهمية و نظرا لكونها أسلحة ذات حدّين: إن استعمل أحدهما جاء بالتنظيم العظيم للكون و الخير الوفير للإنسان، و إن استعمل الآخر أو استعملا معا جاء بالشر الوبيل و الفوضى الهائلة للحياة- نظرا لذلك أطلق القرآن على هذه الصفات اسم الأمانة فقال: إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمانَةَ عَلَى السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ وَ الْجِبالِ، فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَها وَ أَشْفَقْنَ مِنْها وَ حَمَلَهَا الْإِنْسانُ إِنَّهُ كانَ ظَلُوماً

جَهُولًا «۱». و الذى اقتضاه حمل هذه الصفات كلها، أو حمل هذه الأمانة، أنه لم يكن يستطيع بغيرها تسخير شىء من مظاهر الكون.

و الإنسان فى القرآن، خليفة اللّه عزّ و جلّ فى الأرض، أى إنه جلّت قدرته شاء أن يكون الإنسان مظهرا لعدالته، و أن يكون هو لسان الكون الناطق بحمده و تسبيحه و الإيمان به، و ذلك عن طريق تنفيذ أوامره و تطبيق شرعه و الاهتداء إلى ألوهيته و وحدانيته. و فى بيان هذا يقول اللّه و هو يقصّ علينا بدء خلق الإنسان: وَ إِذْ قالَ رَبُّكَ لِلْمَلائِكَةِ إِنِّى جاعِلٌ فِى الْأَرْضِ خَلِيفَةً «۲».

و يقول مخاطبا الإنسان:

---

(۱) الأحزاب: ۸۲. هذا و يجدر بالقارئ أن يرجع إلى ما كتبته موسعا فى كتابى «كبرى اليقينيات الكونية» تحت عنوان: ما الذى أحوج الإنسان إلى الدين و العقيدة الصحيحة عن الكون و الإنسان و الحياة. ففيه تحليل واف بهذا الموضوع الهام الذى أجملته هنا بهذه الأسطر القليلة.

(۲) البقرة: ۲۰.

أَمَّنْ يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذا دَعاهُ وَ يَكْشِفُ السُّوءَ وَ يَجْعَلُكُمْ خُلَفاءَ الْأَرْضِ «۱». و هذه الآية الثانية و إن كانت تحتمل معنى آخر هو جعلناكم تتوارثون عمارة الأرض و سكناها، إلا أن كلا المعنيين صحيح و مراد كما قال المفسرون.

و الإنسان فى القرآن، بعد هذا موصوف بصفتين: واحدة منهما لبيان أصله و حقيقته، كى لا يطغيه شىء من صفاته التى تحدّثنا عنها، و لا يتجاوز بها حدود عبوديته للّه عزّ و جلّ، و الثانية لبيان مركزه من هذا الكون كله و مستواه بين الخليفة أجمع.

ففى صدد بيان الصفة الأولى، يقول اللّه عزّ و جلّ: فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسانُ مِمَّ خُلِقَ خُلِقَ مِنْ ماءٍ دافِقٍ يَخْرُجُ مِنْ بَيْنِ الصُّلْبِ وَ التَّرائِبِ «۲» و يقول: أَ وَ لَمْ يَرَ الْإِنْسانُ أَنَّا خَلَقْناهُ مِنْ نُطْفَةٍ فَإِذا هُوَ خَصِيمٌ مُبِينٌ «۳» و يقول: وَ اللَّهُ أَخْرَجَكُمْ مِنْ بُطُونِ أُمَّهاتِكُمْ لا تَعْلَمُونَ شَيْئاً وَ جَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَ الْأَبْصارَ وَ الْأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ «۴».

و فى صدد بيان الصفة الثانية يقول: وَ لَقَدْ كَرَّمْنا بَنِى آدَمَ وَ حَمَلْناهُمْ فِى الْبَرِّ وَ الْبَحْرِ وَ رَزَقْناهُمْ مِنَ الطَّيِّباتِ وَ فَضَّلْناهُمْ عَلى كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقْنا تَفْضِيلًا «۵».

و الإنسان فى القرآن، أخيرا، عبد اللّه، خلق ليكون مظهرا لإلهية اللّه عزّ و جلّ. و ما صفة الخلافة فيه و تكريمه على سائر المخلوقات و تسخير الكون له إلا وسيلة لأن يحقق عبوديته للّه تعالى بالكسب و الممارسة و الاختيار كما خلقه عبدا له بالجبر و الاضطرار. و فى بيان ذلك يقول: وَ ما خَلَقْتُ الْجِنَّ وَ الْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ما أُرِيدُ مِنْهُمْ مِنْ رِزْقٍ وَ ما أُرِيدُ أَنْ يُطْعِمُونِ «۶».

---

(۱) النمل: ۶۲.

(۲) الطارق: ۵ و ۷.

(۳) يس: ۷۷.

(۴) النحل: ۷۸.

(۵) الإسراء: ۷۰.

(۶) الذاريات: ۴۶ و ۴۷.

نظرة القرآن إلى الحياة:

القرآن يتحدث عن الحياة الدنيا من جانبين:

الجانب الأول من حيث قيمتها الحقيقة، و علاقتها بما وراءها، و مركزها من قصة الوجود بأسره و الحياة كلها.

الجانب الثانى من حيث ما يجب أن تكون عليه حالة الإنسان تجاهها، و مدى ما ينبغى أن يستفيده منها.

فالحياة الدنيا- من حيث قيمتها الحقيقة- حياة فانية، و ظلّ زائل و معبر إلى الحياة الباقية الأخرى. و القرآن يظل يلحّ على بيان هذه الحقيقة و تجسيدها و تنبيه الناس إليها. فيقول مثلا: اعْلَمُوا أَنَّمَا الْحَياةُ الدُّنْيا لَعِبٌ وَ لَهْوٌ وَ زِينَةٌ وَ تَفاخُرٌ بَيْنَكُمْ وَ تَكاثُرٌ فِي الْأَمْوالِ وَ الْأَوْلادِ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ الْكُفَّارَ نَباتُهُ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَراهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَكُونُ حُطاماً «۱» و يقول: وَ مَا الْحَياةُ الدُّنْيا إِلَّا مَتاعُ الْغُرُورِ «۲».

أما الحياة الدنيا- من حيث ما ينبغى أن تكون عليه علاقة الإنسان بها- فهى وسيلة إلى تقويم معاشه و معاده، و سبب لا بدّ من مباشرته لإصلاح أمره و إسعاد نفسه و بنى جنسه. و لذلك فالقرآن يأمر الإنسان بالاستفادة من الحياة، على أن لا تكون همّه الأول، و على أن يتخذ منها وسيلة للغاية الكبرى التى خلق من أجلها، و سببا يضمن لنفسه به السعادة الآخرة. فهو يقول فى هذا الصدد:

وَ ابْتَغِ فِيما آتاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ وَ لا تَنْسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيا «۳» و يقول محذرا من معارضة الفطرة الإنسانية بالانقطاع عن متعة الحياة الدنيا و طيباتها:

---

(۱) الحديد: ۲۰.

(۲) آل عمران: ۱۷۵.

(۳) القصص: ۷۷.

من روائع القرآن، ص: ۲۲۸

يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تُحَرِّمُوا طَيِّباتِ ما أَحَلَّ اللَّهُ لَكُمْ وَ لا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ وَ كُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ حَلالًا طَيِّباً وَ اتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي أَنْتُمْ بِهِ مُؤْمِنُونَ «۱» و يقول: لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُناحٌ أَنْ تَبْتَغُوا فَضْلًا مِنْ رَبِّكُمْ «۲».

و هكذا، يأمر القرآن الإنسان بالإقبال على الحياة الدنيا للتمتع بطيباتها و الاستفادة من نعيمها، على أن يقف قبل ذلك على حقيقة هويتها، و يصحو من الاغترار بمظهرها؛ و ذلك كى يكون هو المسيطر عليها و المسيّر لها إلى ما تقتضيه مصالحه و سعادته، و لكى لا تكون هى المسيطرة عليه أو المسكرة له فيغرق فى نعيمها و ينسى أىّ معنى للوجود من ورائها.

فإذا تأملت فى هذا التقويم القرآنى، لكلّ من الكون و الإنسان و الحياة، أدركت أن محور المخلوقات كلها فى الرتبة و الأهمية إنما هو الإنسان، و أن الغاية التى خلق من أجلها أن يكون مظهرا لحكمة اللّه تعالى و عظمته و عدالته فى الأرض بما يلتزمه من منهج العبودية له تعالى، و أن محور الوجود كله إنما هو الدار الآخرة فالدنيا بكل ما فيها و الحياة بكل صورها و أشكالها مقدّمة بين يدى تلك الحياة الأبدية الأخرى، تلك الحياة التى لا تكاد تجد صحيفة من القرآن خالية عن التذكير بها و التحذير من جحودها.

فتلك هى أسس الحضارة الإنسانية التى جاء بها القرآن، و التى أرادها للإنسانية دستورا و منهجا فى هذه الحياة «۳».

---

(۱) المائدة: ۸۷ و ۸۸.

(۲) البقرة: ۱۸۹.

(۳) و أخيرا وفّقنى اللّه تعالى لإخراج هذا الفصل الوجيز المكثف، فى كتاب شامل عنوانه (منهج الحضارة الإنسانية فى القرآن).

من روائع القرآن، ص: ۲۲۹

هل من الممكن ترجمة القرآن؟

تحدّث العلماء عن ترجمة القرآن من النواحى التالية:

أولا: هل فى المستطاع ترجمة القرآن إلى لغة أخرى؟

ثانيا: إذا كان ذلك مستطاعا فهل يجوز الإقدام على ترجمته شرعا؟

ثالثا: و إذا جازت شرعا فهل تقوم الترجمة مقام القرآن الأصلى، فى التعبّد بتلاوتها و فى صحة الصلاة بها؟

فأما الحديث عنها من الناحيتين؛ الثانية و الثالثة، فهو ما يهمّ الباحث فى الشريعة الإسلامية و أحكامها، و ليس كتابنا هذا- كما قد علمت- موضوعا لبيان الأحكام الشرعية المتعلقة بكتاب اللّه تعالى.

و لكن الذى يتعلق بغرضنا فى هذا الكتاب، هو التحقيق فى الناحية الأولى من هذه المسألة و هى: هل فى المستطاع أن يترجم القرآن إلى أىّ لغة أخرى؟

و لا ريب أن الإجابة على هذا السؤال إنما تعتمد على دراستنا السابقة للغة القرآن و أسلوبه و خصائصه التعبيرية و البلاغية.

غير أنه ينبغى لنا قبل أن ندخل فى الإجابة على هذا الموضوع، أن نعرّف الترجمة، و نوضح الفرق بينها و بين التفسير، فكثيرا ما يقع الوهم فى معالجة هذا البحث بسبب التباس هاتين الكلمتين على الباحث و تداخل مفهومهما عنده.

من روائع القرآن، ص: ۲۳۰

و الكلمتان- فى الاصطلاح الذى نحن بصدده- مختلفتان فى المفهوم و المدلول و بينهما فرق كبير فى المعنى، و إن وقع التوسّع و التسمّح فيهما عند إرادة المعنى اللغوى العام «۱».

فأما الترجمة: فهى نقل الكلام من لغة إلى أخرى عن طريق التدرّج عن الكلمات الجزئية إلى الجمل و المعانى الكلية. أى إن الوسيلة التى تتبع فى نقل المعنى العام عند الترجمة- هى نقل معنى كل كلمة على حدة، و التعبير عنه بكلمة مقابلة، ثم تركيب مجموع الكلمات و تأليفها حسب المعروف فى اللغة المترجم إليها.

أما التفسير: فهو نقل المعنى القريب أو البعيد المقصود من الألفاظ، إلى لغة أخرى مختلفة، أو إلى ألفاظ أخرى فى نفس اللغة، دون النظر إلى الألفاظ الجزئية التى تألّف منها المعنى و اتضح بها المقصود.

و بذلك تعلم أن الترجمة تختلف عن التفسير، فى نقطتين أساسيتين؛ أولاهما: الاهتمام بالكلمة و الأداة التعبيرية فى الترجمة دون التفسير.

و الثانية: أن الترجمة لا تكون إلا نقلا لمعنى الألفاظ من لغة إلى أخرى، فى حين أن التفسير يكون كذلك و يكون تعبيرا عن المعنى بألفاظ أخرى فى نفس اللغة. و هناك فروق ثانوية أخرى بين الكلمتين لا داعى إلى إطالة البحث بذكرها فى هذا المقام «۲».

*** بعد بيان الفرق بين الترجمة و التفسير نعود فنقول:

أ من الممكن أن يترجم القرآن إلى لغة أخرى؟

و الجواب: أن ذلك مستحيل، و إذا وقع ما يسمى ترجمة من حيث

---

(۱) انظر مناهل العرفان: ۲/ ۶ و ما بعدها.

(۲) انظر هذه الفروق فى كتاب مناهل العرفان.

من روائع القرآن، ص: ۲۳۱

الصورة، فهو فى الحقيقة ليس إلا تشويها لمعانى القرآن، و تلبيسا للمقصود بغيره و تمزيقا لأحكامه و حججه.

و إنما أسرعنا الحكم بهذا الشكل، لأنه نتيجة بدهية لدراستنا السابقة عن أسلوب القرآن و منهجه و خصائصه، و جدير بمن وقف على كل ما قد ذكرناه و أوضحناه أن يعلم بنفسه هذه النتيجة و يدركها.

فقد تبين لك فيما مضى أن القرآن يتبع منهجا فريدا فى التعبير عن المعانى، و هو منهج تجسيد المعانى و تصويرها أمام مخيلة القارئ، و هو كما قلنا منهج مطّرد فى القرآن يظهر فى كل بحوثه و مواضيعه.

كما تبين لك أنه يعبّر عن المعانى المتعددة المختلفة بلفظة واحدة، و هى ظاهرة تتجلى فى كثير من آيات القرآن و ألفاظه، و قد مرّت بك أمثلة كثيرة لذلك عند حديثنا عن أسلوب القرآن و إعجازه.

و بدهى أن منهجا تعبيريا بهذا الشكل، يستعصى على الترجمة. إذ الترجمة كما قلنا هى نقل المعنى العام من خلال نقل معانى الكلمات الجزئية، و الكلمات الجزئية التى تتألف منها الجمل القرآنية، إنما تصور المعنى المقصود- على الغالب- بأسلوبها و ليست تنقل المعنى المراد بدلالتها اللغوية الأصلية المجردة.

فإن ذهبت تنقل معانى الكلمات، مع ذلك، كما هى، تألف لك منها معنى آخر غير مقصود و لا صحيح إطلاقا.

و إن ذهبت تتجاهل الكلمات، و تهتم بالمعنى العام المقصود من ورائها عن طريق التجسيم و التخييل و ما إلى ذلك، فقد تحولت عن الترجمة إلى التفسير. و هو بحث آخر.

فالقرآن الكريم مثلا- يقول: وَ لا- تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلى عُنُقِكَ وَ لا تَبْسُطْها كُلَّ الْبَسْطِ، فَتَقْعُدَ مَلُوماً مَحْسُوراً «۱» و أنت ترى أن الألفاظ هنا، ليس شىء منها يدل على المعنى المقصود بطريق الدلالة اللغوية الأصلية، و إنما هى

---

(۱) الإسراء: ۲۹.

من روائع القرآن، ص: ۲۳۲

تكشف عن المعنى المراد بواسطة التصوير و التخييل، و الأداة المستعملة لذلك جملة من المجازات و التشبيهات و الاستعارات المختلفة. فكيف يمكنك أن تترجم هذه الآية ترجمة سليمة لا تفسد المعنى و لا يخرج عملك فيها من الترجمة إلى التفسير؟! ...

و القرآن يقول: نَحْنُ جَعَلْناها تَذْكِرَةً وَ مَتاعاً لِلْمُقْوِينَ «۱» و قد مرّ بك أن «مقوين» تحمل معنى: الجائعين، المقيمين فى البيداء، المستمتعين. و يقول:

أَمَّنْ جَعَلَ الْأَرْضَ قَراراً وَ جَعَلَ خِلالَها أَنْهاراً «۲» و قَراراً بيان لكل الأسباب التى بها أمكن أن يستقر الإنسان على الأرض، و يقول: وَ الْأَرْضَ بَعْدَ ذلِكَ دَحاها «۳» و دحى بمعنى: وسع، و بسط، و كوّر، و دوّر، كما قد مرّ بيانه فيما مضى. و قال عن وصف الخمرة فى الجنة: لا يُصَدَّعُونَ عَنْها وَ لا يُنْزِفُونَ «۴» و قد نفى بهاتين الكلمتين جميع عيوب الخمرة المعروفة من ذهاب بالعقل و إذهاب للمال، و نفاد للشراب، و تقزز من طعمه و حرقته.

فكيف تتأتى ترجمة هذه الألفاظ إلى ألفاظ أخرى تحمل نفس المرونة فى الدلالة، و تحمل نفس المعانى المختلفة المتنوعة التى لا بدّ من دلالة اللفظ عليها جميعها لتتم الترجمة، إذ إن هذه المعانى كلها مقصودة معا فى البيان القرآنى؛ مع العلم بأنك لو رحت تشرح دلالات كل لفظة فى شرح مطوّل من الألفاظ و البيان، فأنت حينئذ مفسّر و لست بمترجم و إليك ما يقوله فى بيان هذا المعنى ابن قتيبة رحمه اللّه:

«... و بكل هذه المذاهب نزل القرآن، و لذلك لا يقدر أحد من التراجم على أن ينقله إلى شىء من الألسنة كما نقل الإنجيل عن السريانية إلى الحبشية و الرومية، و ترجمت التوراة و الزبور، و سائر كتب اللّه تعالى بالعربية، لأن العجم لم تتسع فى المجاز اتساع العرب».

---

(۱) الواقعة: ۷۳.

(۲) النحل: ۶۱.

(۳) النازعات: ۲۰.

(۴) الواقعة: ۱۹.

من روائع القرآن، ص: ۲۳۳

«أ لا- ترى أنک لو أردت أن تنقل قوله تعالى: وَ إِمَّا تَخافَنَّ مِنْ قَوْمٍ خِيانَةً فَانْبِذْ إِلَيْهِمْ عَلى سَواءٍ «۱» لم تستطع أن تأتى بهذه الألفاظ مؤدية عين المعنى الذى أودعته حتى تبسط مجموعها و تصل مقطوعها و تظهر مستورها، فتقول: إن كان بينک و بين قوم هدنة و عهد فخفت منهم خيانة و نقضا، فأعلمهم أنک قد نقضت ما شرطت لهم، و آذنهم بالحرب، لتكون أنت و هم فى العلم بالنقض على استواء».

«و كذلک قوله تعالى: فَضَرَبْنا عَلى آذانِهِمْ فِي الْكَهْفِ سِنِينَ عَدَداً «۲» إن أردت أن تنقله بلفظه لم يفهمه المنقول إليه، فإن قلت أنمناهم سنين عددا، لكنت مترجما للمعنى دون اللفظ».

«و كذلک قوله تعالى: وَ الَّذِينَ إِذا ذُكِّرُوا بِآياتِ رَبِّهِمْ لَمْ يَخِرُّوا عَلَيْها صُمًّا وَ عُمْياناً «۳» إن ترجمته بمثل لفظه استغلق، و إن قلت: لم يتغافلوا، أدّيت المعنى بلفظ آخر» «۴».

فإذا أدركت أن ترجمة القرآن غير ممكنة بمعناها الصحيح، علمت الجواب عن الناحيتين الثانية و الثالثة لهذه المسألة أيضا. ذلک أن الشىء الذى لا يستطاع إنجازه يعتبر باطلا من حيث وجوده. و يعتبر محرّما من حيث ممارسته لما فيه من الفساد و الإفساد. و إذا كان الأمر فيه كذلک فلا شک أنه لا يصحّ التعبّد بالترجمة و لا تصحّ الصلاة بها، و لا داعى إلى أن نطيل فى ذلک من النواحى الشرعية؛ بعد أن عرفت فساد الأمر من الناحية اللغوية و من حيث الإمكان.

بعد هذا نقول: إن المتأمل ليعجب، عند ما يرى- مع وضوح هذا الذى ذكرناه- دعوة ملحّة، لا- تزال تنبع من هنا و هناک، تنادى بضرورة ترجمة القرآن

---

(۱) الأنفال: ۵۸.

(۲) الكهف: ۱۱.

(۳) الفرقان: ۷۳.

(۴) تأويل مشكل القرآن لابن قتيبة صفحة: ۱۶.

من روائع القرآن، ص: ۲۳۴

إلى اللغات المختلفة، و تحتجّ لذلک بالضرورة الداعية إلى اطّلاع الأمم المختلفة على حقائق القرآن و أحكامه و محتوياته. و هى دعوة بدأت تلحّ و تشتدّ و تجادل عن نفسها منذ أوائل عهد الاحتلال البريطانى لمصر «۱» بزعم حاجة العالم الإصلاحية إلى ذلک! فإن كان المقصود، اطلاع العالم على حقيقة القرآن و عظمته. فإن القرآن ليس قرآنا إلا من حيث أنه كتاب عربى مبين، و قد علمت فى أول هذا الكتاب أن القرآن هو: اللفظ المنزل على رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم، و اللفظ الأعجمى ليس هو الذى أنزل، فهو ليس بقرآن البتة. و أما عظمته و روعته، فإن شيئا من ذلک لا يبقى أو يظهر عند تقديمه مترجما إلى الناس، بل يظهر منه عند ذلک، معان سقيمة مشوهة و تعابير غريبة غير مفهومة. فلا القرآنية تبقى لدى الترجمة و لا عظمة القرآن تتجلى و تظهر بها.

و إن كان المقصود، أن تطّلع الأمم المختلفة على ما تضمنه القرآن من مبادئ و شرعة و أحكام، فإن ذلک يمكن أن يتم بأجلى مظهر و بأيسر طريق، إذا ما فسّر القرآن تفسيرا وافيا واضحا باللغة المطلوبة فالتفسير هو الذى يفى بهذا الغرض لا الترجمة المزعومة.

و هكذا، يتجلى للمتأمل ما تنطوى عليه هذا الدعوة العجيبة من الدخيلة و الريب. و حسبک دليلا على ذلک أن تعلم أن الحاجة إلى ما يسمى ب (ترجمة القرآن) لم تظهر عند أىّ فئة من الناس و لم يدع إليها أىّ مفكّر أو باحث، خلال القرون المنصرمة كلها إلى هذا

القرن الذی نحن فیه، مع أن الأسباب التی یتذرع بها الیوم کانت موجودة بأجلی المظاهر بالأمس.

---

(۱) یجدر بالقارئ أن یرجع إلی مجلة الأزهر «نور الإسلام» السنة الثامنة. العدد الثانی و ما بعده، ففیها إثارة لموضوع ترجمة القرآن، أثاره الشیخ مصطفی المراغی شیخ الأزهر إذ ذاک، و ناقشه فی ذلک جمهور کبیر من الکتّاب و الباحثین. و معلوم أن مصطفی المراغی نصّب شیخا للأزهر بعد «الإصلاح» الذی أدخل علیه بتخطیط من اللورد کرومر إذ ذاک. راجع کتاب الاتجاهات الوطنیة فی الأدب المعاصر للدکتور محمد محمد حسین، و مقدمة کتاب تجربة التربیة الإسلامیة فی میزان البحث لمؤلف هذا الکتاب.

من روائع القرآن، ص: ۲۳۵

القسم الثالث دراسات تطبیقیّة

اشارة

من روائع القرآن، ص: ۲۳۷

تمهید

الآن و قد انتهینا من عرض هذه البحوث النظریة المتعلقة بکلّ من تاریخ القرآن و علومه، و منهج القرآن و أسلوبه؛ نستعید صورة ذلک کله فی نماذج من النصوص القرآنیة، نأخذها من مختلف الموضوعات و السور، و نشرحها شرحا یجلی لنا حقیقة کل ما ذکرناه.

و عملنا الأخیر هذا، هو المقصود من کل ما أسلفنا الحدیث عنه، فلیس یکفی أن تعی الذاکرة مسائل شتی من بحوث علوم القرآن و آدابه، مع البعد عن فهم النصوص القرآنیة ذاتها، فضلا عن الترطن و التکسر فی قراءتها.

و من هنا تعلم أن الذی هو أهم من معرفة معانی النصوص القرآنیة، معرفة تلاوتها و إتقان أدائها. و لیس فی الأمور المستهجنة و المستقبحة شیء أهجن و أقبح من منظر إنسان یزعم أنه أدیب یعلم العربیة و آدابها، و مع ذلک فهو یدیر بین فکّیه لسانا أعجمیا لدی قراءة القرآن، لا یضبط أصله تلاوة و لا یتقن وصفه ترتیلا و أداء! ...

و ما رأیت شیئا أبعث للغثیان فی النفس من مظهر ذاک الذی یقف من وراء المذیاع فیصطنع الجلال و الضخامة العربیة فی صوته، فإذا ما أراد أن یقرأ آیة من القرآن، التوی علیه لسانه و راح یتعثر فی تلاوتها العثرات المضحکة المتوالیة! ...

إننی أهیب بإخوانی الذین یهتمون بدراسة العربیة و آدابها، أن یبذلوا أقصی ما لدیهم من جهود فی سبیل التخلّص و الانعتاق من الرطانة اللغویة

من روائع القرآن، ص: ۲۳۸

العالقة بالسنة کثیرین منهم، و هم أولئک الذین لم یتوفروا علی الإکثار من تلاوة القرآن فی عهد الصبا، حتی تصقل بذلک ألسنتهم و تنطبع بالطابع العربی نطقا و أداء. و إلا فإن کل جهودهم الأخری تظل مشوهة ناقصة معیبة.

و بعد فقد اخترنا خمسة نصوص من الکتاب المبین للدراسة التطبیقیة، و أردنا أن یکون کلّ منها نموذجا لموضوع معین من الموضوعات القرآنیة. فاخترنا نصّا فی (الإلهیات) و آخر فی (الوصف)، و ثالثا فی (المبادئ و الإنسانیات) و رابعا فی (القصص) و خامسا فی (الحجاج و النقاش) و علیک أن تعکف بعد ذلک علی مختلف کتب التفسیر القدیمة و الحدیثة لتواصل السیر و لتتم دراستک التطبیقیة لکتاب اللّه کله، و اللّه من وراء القصد و هو نعم المولی و نعم النصیر.

من روائع القرآن، ص: ۲۳۹

فى الإلهيّات (من سورة الرعد، من آية ۸: إلى آية ۱۴)

اشارة

قال اللّه عزّ و جلّ: اللَّهُ يَعْلَمُ ما تَحْمِلُ كُلُّ أُنْثى وَ ما تَغِيضُ الْأَرْحامُ وَ ما تَزْدادُ وَ كُلُّ شَيْءٍ عِنْدَهُ بِمِقْدارٍ. عالِمُ الْغَيْبِ وَ الشَّهادَةِ الْكَبِيرُ الْمُتَعالِ. سَواءٌ مِنْكُمْ مَنْ أَسَرَّ الْقَوْلَ وَ مَنْ جَهَرَ بِهِ وَ مَنْ هُوَ مُسْتَخْفٍ بِاللَّيْلِ وَ سارِبٌ بِالنَّهارِ. لَهُ مُعَقِّباتٌ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَ مِنْ خَلْفِهِ يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ لا يُغَيِّرُ ما بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا ما بِأَنْفُسِهِمْ وَ إِذا أَرادَ اللَّهُ بِقَوْمٍ سُوْءاً فَلا مَرَدَّ لَهُ وَ ما لَهُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ والٍ. هُوَ الَّذِي يُرِيكُمُ الْبَرْقَ خَوْفاً وَ طَمَعاً وَ يُنْشِئُ السَّحابَ الثِّقالَ. وَ يُسَبِّحُ الرَّعْدُ بِحَمْدِهِ وَ الْمَلائِكَةُ مِنْ خِيفَتِهِ وَ يُرْسِلُ الصَّواعِقَ فَيُصِيبُ بِها مَنْ يَشاءُ وَ هُمْ يُجادِلُونَ فِي اللَّهِ وَ هُوَ شَدِيدُ الْمِحالِ. لَهُ دَعْوَةُ الْحَقِّ وَ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ لا يَسْتَجِيبُونَ لَهُمْ بِشَيْءٍ إِلَّا كَباسِطِ كَفَّيْهِ إِلَى الْماءِ لِيَبْلُغَ فاهُ وَ ما هُوَ بِبالِغِهِ وَ ما دُعاءُ الْكافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلالٍ.

تعريف عام بالآيات:

هذه الآيات تأتى بعد قوله تعالى متحدّثا عن الكافرين: وَ إِنْ تَعْجَبْ فَعَجَبٌ قَوْلُهُمْ أَ إِذا كُنَّا تُراباً أَ إِنَّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ! فهى ردّ على تعجبهم من أن يبعثوا مرة أخرى إلى الحياة بعد أن تفتتت أجزاء جسومهم فى طوايا التراب؛ و الآيات تردّ على عجبهم و تستنكره من خلال عرض صفتين من أهم صفات الألوهية فى ذاته سبحانه و تعالى.

الصفة الأولى: إنه مطّلع على دقائق الأشياء كلها لا تخفى عليه منها خافية مهما صغرت و تضاءلت، و مهما اختفت من خلف الغياهب و الحجب،

من روائع القرآن، ص: ۲۴۰

و منها ذرّات جسوم الناس بعد ضياعها فى بطن الأرض أو فى جوف البحار.

الصفة الثانية: قدرته الباهرة و سطوته القاهرة، اللتان بهما دخل الكون كله تحت سلطانه، ففيم العجب من أن يعاد الناس إلى خلق جديد بعد موتهم، و قد أخبر بذلك من خلقهم أول مرة، و من يعلم أين تذهب كل ذرّة من جسومهم و من كان الكون كله داخلا تحت نطاق قدرته و سلطانه.

شرح الآيات:

* تبدأ الآية الأولى ببيان أن اللّه عزّ و جلّ لا تخفى عليه خافية، و أنه يرى و يعلم كل غيب مجهول و كل ضائع مستور. فيجسّد حقائق الغيب فى أبرز نموذج له لا يزال الإنسان يرى فيه أول مثال للمجهول الذى لا و لن يطوله علم الإنسان و اطّلاعه، و هو تخلق المولود فى رحم الأنثى بدءا من أول مرحلة فيه إلى آخرها؛ ثم يثبت البيان القرآنى أن اللّه وحده المطّلع على هذا الغيب بأمره و حقيقته. و ذلك كناية عن أن اللّه عزّ و جلّ مطّلع على كل غيب و خافية. إذ كان غيب ما فى الأرحام أبرز نموذج لهما.

و لك فى تقرير هذا المعنى أن تعتبر «ما» المتكررة فى الآية موصولة و مصدرية؛ و لا ريب أن المصدرية أبلغ فى الدلالة. و المهم أن تتأمل الشمول الذى يتجلى فى قوله: كُلُّ أُنْثى: شمول بواسطة الأداة، و شمول فى تنكير الأنثى، ثم أن تتأمل الصورة التى ترسمها فى الذهن جملة وَ ما تَغِيضُ الْأَرْحامُ وَ ما تَزْدادُ. و الغيض هو النقصان، يأتى فعله لازما و متعديا. تقول:

غاض ماء البئر و غضت من مائه، فاللّه يعلم كل ما ينقصه الرحم أو يزيده فى جثة المخلوق أو فى مدة حمله له. و هو معنى واسع دلّت عليه الآية كما ترى بجملة صغيرة ذات دلالة تصويرية معينة.

و لكن هل الأمر فى هذا بالنسبة للّه عزّ و جلّ مجرد علم و اطّلاع؟ يجيب آخر الآية على هذا السؤال الذى يثيره أولها بقوله عزّ و جلّ:

و كل شيء عنده بمقدار. فليس ما قد يتخلق فى الرحم من شتى المخلوقات، و ليس ما قد يعتريه من غيض أو فيض فى الجثة أو الزمان- ليس شيء من ذلك مظهرا لمصادفة أو اضطراب أو تحوّل ذاتى كما يتفق له؛ بل كل ذلك إنما يتم وفق نظام شامل دقيق

من روائع القرآن، ص: ۲۴۱

و طبق إرادة إلهية جازمة. و انظر كيف عبّر البيان القرآنى عن هذا بقانون إلهى شامل يعمّ شأن الخلق و الكون كله، لكى تفهم أن تقلب حال المخلوق فى الرحم ليس مردّه إلا إلى قانون تنظيمى للكون كله.

* ثم تأتى الآية الثانية لتضع القاعدة العامة: عالم الغيب و الشهادة الكبير المتعال.

غيب و شهادة: مبالغة عن غائب و مشاهد، فالأول منهما ما لا يقع تحت إدراك شيء من الحواس، و الثانى ما يخضع لحاسّة منها. و إليهما تنقسم موجودات الكون كله. فمن أنبأك بأنه لا يؤمن إلا بما يقع تحت حسّه فاعلم أنه لا يؤمن إلا بشطر من الموجودات.

غير أن الإنسان لانحباس كيانه ضمن سلطان حواس معينة محدودة لا يدرك مباشرة من الموجودات إلا ما تبصره به هذه الحواس. و اللّه وحده هو الذى يستوى فى علمه الغائب و المشاهد.

و أنت تبصر كيف أن الآية جاءت خبرا لمبتدإ محذوف، اقتضى حذفة التهويل و التعظيم، إذ الآية الأولى من شأنها أن تملأ فكر القارئ المتدبر بعظمة اللّه تعالى و مظهر ربوبيته، فالمبتدأ ماثل فى الذهن لم يغب عن الخاطر و البال، و تأتى الآية الثانية خبرا جديدا يؤكد ما استقر فى الذهن من عظمة الإله جلّ جلاله.

* أما الآية الثالثة، فتجسد كلّا من الغيب و الشهادة فى مثالين، و تكشف للمتأمل كيف أن المثالين و الحالين مستويان فى علم اللّه و اطّلاعه: سَواءٌ مِنْكُمْ مَنْ أَسَرَّ الْقَوْلَ وَ مَنْ جَهَرَ بِهِ، وَ مَنْ هُوَ مُسْتَخْفٍ بِاللَّيْلِ وَ سارِبٌ بِالنَّهارِ.

فالمثالان الأولان، ما تسرّه من القول فى نفسك و ما تجهر به بلسانك؛ إن الأمرين و الحالين سواء فى علم اللّه عزّ و جلّ، إنه يسمع خلجات نفسك كما يسمع صوت كلامك. و المثالات الآخران: ذاك الذى أخفى نفسه فى مكان مستور ضمن ستر آخر من ظلام الليل، و ذاك الذى يسير بارزا فى طريق مكشوف تحت وضح النهار، فليس بينهما من فرق إلا فى حساب المخلوقات أما اللّه عزّ و جلّ فكلاهما فى علمه سواء.

من روائع القرآن، ص: ۲۴۲

و تأمل فى الطريقة التصويرية الدقيقة التى تعبّر بها الآية! مستخف بالليل، أدخل الهمزة و السين على اسم الفاعل ليصوّر لك شدة الطلب و البحث عن وسائل الاختباء و الاختفاء المختلفة، فضلا عن أن الليل بطبيعته ساتر ثم:

سارب بالنهار، كلمة تصور لك الشيء إذ يسرب على وجه الأرض بارزا، فأنت تقول: سرب الماء، أى سرى فى سجيته على وجه الأرض متشعبا يبرق و يلمع.

و الكلمة، زيادة على ما فيها من جمال التعبير تصوّر لك شدة وضوح هذا الإنسان و ظهوره مقابل شدة اختفاء ذلك الآخر و استتاره، تقريرا لتساويهما فى إحاطة اللّه و علمه.

* أما الآية الرابعة فتأتى تأكيدا لما تضمنته الآية التى قبلها. فهى توضح أن اللّه عزّ و جلّ ليس مطّلعا فقط على الغيب و الشهادة، بل إن له ملائكة حفظة يتعاقبون على هذا المختبئ فى تلافيف الظلام و السارب فى وضح النهار، من قبل اللّه عزّ و جلّ و بأمره، يحيطون به رعاية و حفظا و يحصون أفعاله و أقواله كتابة و تسجيلا. فهذا هو معنى قوله عزّ و جلّ: لَهُ مُعَقِّباتٌ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَ مِنْ خَلْفِهِ يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ. فالضمير فى له عائد إلى اللّه عزّ و جلّ، و المعقبات صفة للملائكة المحذوفة و هو جمع معقبة، و معقبة جمع معقب، فالكلمة جمع الجمع، و الضمير فى يديه عائد إلى الإنسان المفهوم من الآية السابقة، و الجار و المجرور فى: من أمر اللّه متعلق بيحفظونه على أن من للسببية، أى يحفظونه بسبب أمر اللّه لهم بذلك.

و مع سياق الحديث عن رعاية اللّه للإنسان و حفظه له فى غدوّه و رواحه، تذكر الآية قاعدة جرت عليها سنّة اللّه فى الكون: إن اللّه لا

يغيّر ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم. أى إن اللّه عزّ و جلّ لا يغيّر ما تلبّس بقوم من النعمة و ما قد حفّ بهم من الرعاية التى وصفها، حتى يغيروا ما قد استقر فى نفوسهم من فطرة الاستقامة على الحق، التى فطر اللّه الناس عليها، فيجنحوا إلى نقائضها من الآثام و الشرور. و إذا تأملت فى صياغة هذه الجملة و دقة سبكها و وجيز ألفاظها مع شمول المعنى و اتساعه رأيت من ذلك عجبا لا ينتهى إلا عند ما تتذكر أنه بيان اللّه و كلامه المعجز.

من روائع القرآن، ص: ۲۴۳

و لما كانت هذه القاعدة تحمل فى طيّها الوعيد و الإنذار إلى جانب ما تحمله من الوعد و التبشير، أعقب ذلك بما يؤكد هذه الحقيقة من بيان مدى قدرة اللّه تعالى التى لا تغلب و لا تقهر، فقال: وَ إِذا أَرادَ اللَّهُ بِقَوْمٍ سُوْءاً فَلا مَرَدَّ لَهُ وَ ما لَهُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ والٍ. أى إنهم إذا غيّروا ما بأنفسهم من الخير و استبدلوا به الانحراف و الشر، فأراد اللّه عزّ و جلّ بهم سوءا من أجل ذلك، فلا رادّ لقضائه و حكمه و ليس لهم غيره من مفرّ و ملاذ. فليفرّوا إلى اللّه فى عبودية و ضراعة و ليصلحوا ما أفسدوه من نفوسهم إن أرادوا أن يكشف عنهم السوء و البلاء.

و مع إثبات هذه الحقيقة، تتهيأ المناسبة للانتقال من الحديث عن الصفة الأولى من صفتى الألوهية التى تعرضهما هذه الآيات، و هى صفة اطّلاعه على كل خافية و غيب إلى الحديث عن الصفة الثانية و هى عظيم قدرة اللّه تعالى و باهر سلطانه فتأتى الآيات التالية مشتملة على أمور فيها دلائل على قدرة اللّه تعالى و عظيم تدبيره، أمور فيها مظاهر من النعم و الإحسان إلى جانب ما فيها من مظاهر القهر و التخويف. و هى واقعة موقع التأكيد لما تضمنه قوله تعالى: إِنَّ اللَّهَ لا يُغَيِّرُ ما بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا ما بِأَنْفُسِهِمْ من الوعد و الإيعاد، و التخويف و الإطماع.

* و أول أمر من هذه الأمور الدّالة على قدرة اللّه تعالى، آيتان كونيتان لا تزالان تنبّهان إلى قدرة اللّه تعالى و باهر حكته، هما الرعد و البرق: هُوَ الَّذِى يُرِيكُمُ الْبَرْقَ خَوْفاً وَ طَمَعاً، وَ يُنْشِئُ السَّحابَ الثِّقالَ.

لم يعبّر بالاسم الظاهر، كى لا ينفصل الكلام عن سابقه، و لكى يستجمع الضمير: «هو» فى الذهن جميع الصفات التى سبق ذكرها فى الآيات الماضية، فيضيف إليها مظاهر أخرى من باهر القدرة و جليل التدبير. و قال:

يريكم البرق؛ هكذا: يريكم .. لتصور لك الجملة بل الكلمة لمعة البرق الخاطف أمام عينيك، حتى إذا قامت الصورة فى خيالك، أضافت الآية، منبّهة، أن ذلك إنما يكون تخويفا مما قد يعقبه من الصواعق المحرقة أو الأمطار المتلفة، و تطميعا لما قد يبشّر به من الغيث المفيد. فخوفا و طمعا منصوبان على أن كلّا منهما مفعول لأجله، إما على تقدير: إرادة الخوف و الطمع، أو على تقدير: تخويفا و تطميعا،

من روائع القرآن، ص: ۲۴۴

و لعلّ هذا أقرب ما قد يقال من وجوه الإعراب فى هاتين الكلمتين.

وَ يُنْشِئُ السَّحابَ الثِّقالَ: يخلقه من لا شىء، فينسحب فى الجوّ يتألف و يتراكم و قد أثقله ما يحمله إلى الأرض من المياه. و أنت تعلم أن ليس فى أصل السحاب ثقل و لا خفّة و إنما هو إخراج للمعنى الاعتبارى فى مظهر متخيل محسوس.

* أما الآية التى بعدها، فتتألف من عدة جمل، كلّ واحدة منها تحضر فى الذهن صورة محسوسة مجسمة لجانب من مظاهر ألوهية اللّه تعالى فى آفاق الكون:

وَ يُسَبِّحُ الرَّعْدُ بِحَمْدِهِ: جملة فعلية فعلها مضارع مصوغ للحال و الاستمرار، بيانا للدوام و استحضارا للصورة فى الذهن؛ و أسند التسبيح إلى الرعد، ليوضح أن زمجرة الرعد من خلال السحاب مهما ترجمت إلى لغة مفهومة فإنها إنما تعنى تنزيه اللّه عمّا يلغو به الجاحدون المبطلون، و تعلن عن وجود الخالق العظيم قهّار السماوات و الأرض.

وَ الْمَلائِكَةُ مِنْ خِيفَتِهِ: صوّر كيف أنه يتألف تسبيح الرعد المزمجر مع تسبيح الملائكة الخاشعين لعظمة اللّه و سلطانه، ليتجلّى فيما

بينهما غرور الإنسان الجاهل إذ يظلم نفسه فيمشى مكبّا على وجهه بين سمع هذا الكون و بصره غافلا عن كل هذا الذى يحيط به.

وَ يُرْسِلُ الصَّواعِقَ فَيُصِيبُ بِها مَنْ يَشاءُ: جملة فعلية ثالثة، أريد منها كما قلنا استحضار الصورة فى الذهن. و الصواعق جمع صاعقة، و هى تلك النار المحرقة التى تنقضّ فى وقع و صوت شديدين. فإذا ما أرسلها اللّه عزّ و جلّ إلى الأرض أهلك اللّه بها من يشاء. و إنها لمظهر مخيف لعظمة اللّه تعالى و قوة سطوته مهما جمّعت حول هذه الظاهرة من التعليلات الطبيعية و العلمية، فإن كل مظاهر البطش و الجبروت الأخرى خاضعة أيضا لسلسلة العلل و الأسباب الجعلية المخلوقة.

وَ هُمْ يُجادِلُونَ فِي اللَّهِ: جملة أخرى صدّرت بواو الحال، فهى حال من

من روائع القرآن، ص: ۲۴۵

الكفرة الذين تضمنهم الخطاب فى قوله: هو الذى يريكم ... و الجملة تصور لك عجيب أمر هؤلاء الذين يرون آيات اللّه كلها و يبصرون دلائل وجوده و وحدانيته، فيظلّون مع ذلك يجادلون فى شأن اللّه: وجوده و وحدانيته، و قضية البعث من بعد الموت!!.

و إنما التفت الخطاب عنهم فى هذه الجملة إلى الغيبة، بعد أن كان الكلام موجّها إليهم مع سائر الناس فى الجمل السابقة- إيذانا بإسقاطهم عن درجة الخطاب و إعراضا عن لغوهم و باطلهم الذى يخوضون فيه. و أسند جدالهم إلى الذات الإلهية مع أن الجدال لا يكون فى الشيء نفسه و إنما فى حكم متعلق به، ليشمل كل ما يجادلون فيه و ينكرونه مما تنزل فى البيان الإلهى المبين.

و جاءت الجملة الأخيرة: وَ هُوَ شَدِيدُ الْمِحالِ، على وزن التى قبلها، فهى أيضا حال .. و لكنها حال من اللّه عزّ و جلّ، نزّلت من التى قبلها منزلة المقابلة، لتكون بذلك أقوى تعبير عن الإنذار و الوعيد، لأولئك الذين لم تنفعهم الآيات و البراهين و الدلائل الكونية المختلفة الناطقة بوجود اللّه تعالى و وحدانيته، فظلوا مع ذلك يجادلون عن غيّهم و باطلهم؛ فلئن كان حالهم، و هم يرون هذه الأدلة كلها، هى الجدال فى اللّه، فإن حال اللّه عزّ و جلّ، مع كل ما بثّ فى الكون من هذه الأدلة، أنه شديد المحال؛ أى شديد القوة، و شديد الأخذ فى غفلة و على حين غرّة، و شديد القدرة على مكايدة الظالمين بإبطال كيدهم و أخذهم بباطلهم.

* و آخر ما تعرضه الآيات من الصفات الدالّة على عظيم قدرة اللّه تعالى و ألوهيته أنه وحده عزّ و جلّ، صاحب الدعوة الثابتة الواقعة فى محلها المجابة عند وقوعها، أى إنه وحده الذى إذا دعى سمع و أجاب الدعوة. فإضافة الدعوة إلى الحق من إضافة الشيء إلا صفته أو جنسه كقولك: كلمة الحق.

أما ما قد يدعى من دون اللّه عزّ و جلّ من سائر المخلوقات، أيّا كان، فإن دعاءهم باطل لا يتوقع من ورائه استجابة و لا فائدة. و لما كان الحكم على دعائهم بالبطلان و عدم الاستجابة معنى سلبيا اعتباريا لا يمكن أن تتجسد له صورة فى الذهن، قلب البيان القرآنى المعجز السلب إلى صورة إثبات مستعملا

من روائع القرآن، ص: ۲۴۶

لذلك أداة الاستثناء و صورته ليتجسد مظهر البطلان و عدم الاستجابة فى صورة محسوسة متخيلة تتجسد فيها بلاهة أولئك المغرورين و ضلالهم، فقال:

وَ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ لا يَسْتَجِيبُونَ لَهُمْ بِشَيْءٍ إِلَّا كَباسِطِ كَفَّيْهِ إِلَى الْماءِ لِيَبْلُغَ فاهُ وَ ما هُوَ بِبالِغِهِ فقد صوّر لك عدم استجابة الآلهة أو المخلوقات التى تدعى من دون اللّه مع استمرار أولئك المغرورين و المبطلين فى التعلّق بها، بحالة ظمئان راح يبسط كفّيه نحو ماء بعيد يلمع فى قاع بئر أو يبرق له فى وسط مغارة ليستجيب لدعاء كفّيه و يأتى فيبلغ فاه، و أنّى له أن يبلغ؟!. و بذلك تعلم أنه ليس فى الآية استثناء حقيقى و لكنه صورة متخيلة محسوسة يلمسها الشعور بل تكاد تراها العين.

و تختم الآيات بهذه الجملة الأخيرة: و ما دعاء الكافرين إلا فى ضلال و معناها العام واضح كما ترى، و لكن انظر إلى صياغة الجملة و ما أحدثه فيها حرف الجر: «فى» من الصورة التى تمتد بالخيال فى آفاق واسعة محسوسة. إنها تصوّر لك دعاءهم الباطل و كيف يذهب فى دروب ضائعة خاسرة، إنه كما يقولون: صيحة فى واد و نفخة فى رماد، و أين هذا المعنى التصويرى الرائع مما لو قال: و ما

دعاء الكافرين إلا ضلالا؟ ..

و اللّه سبحانه و تعالى أجلّ و أعلم.

***

من روائع القرآن، ص: ۲۴۷

فى الوصف (من سورة غافر. من آية: ۱۰ إلى آية: ۲۰)

اشارة

قال اللّه عزّ و جلّ:

إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يُنادَوْنَ لَمَقْتُ اللَّهِ أَكْبَرُ مِنْ مَقْتِكُمْ أَنْفُسَكُمْ إِذْ تُدْعَوْنَ إِلَى الْإِيمانِ فَتَكْفُرُونَ. قالُوا رَبَّنا أَمَتَّنَا اثْنَتَيْنِ وَ أَحْيَيْتَنَا اثْنَتَيْنِ فَاعْتَرَفْنا بِذُنُوبِنا فَهَلْ إِلى خُرُوجٍ مِنْ سَبِيلٍ، ذلِكُمْ بِأَنَّهُ إِذا دُعِيَ اللَّهُ وَحْدَهُ كَفَرْتُمْ وَ إِنْ يُشْرَكْ بِهِ تُؤْمِنُوا فَالْحُكْمُ لِلَّهِ الْعَلِيِّ الْكَبِيرِ. هُوَ الَّذِي يُرِيكُمْ آياتِهِ وَ يُنَزِّلُ لَكُمْ مِنَ السَّماءِ رِزْقاً وَ ما يَتَذَكَّرُ إِلَّا مَنْ يُنِيبُ. فَادْعُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ وَ لَوْ كَرِهَ الْكافِرُونَ، رَفِيعُ الدَّرَجاتِ ذُو الْعَرْشِ يُلْقِي الرُّوحَ مِنْ أَمْرِهِ عَلى مَنْ يَشاءُ مِنْ عِبادِهِ لِيُنْذِرَ يَوْمَ التَّلاقِ يَوْمَ هُمْ بارِزُونَ لا يَخْفى عَلَى اللَّهِ مِنْهُمْ شَيْءٌ. لِمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ، لِلَّهِ الْواحِدِ الْقَهَّارِ. الْيَوْمَ تُجْزى كُلُّ نَفْسٍ بِما كَسَبَتْ لا ظُلْمَ الْيَوْمَ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسابِ. وَ أَنْذِرْهُمْ يَوْمَ الْآزِفَةِ إِذِ الْقُلُوبُ لَدَى الْحَناجِرِ كاظِمِينَ ما لِلظَّالِمِينَ مِنْ حَمِيمٍ وَ لا شَفِيعٍ يُطاعُ. يَعْلَمُ خائِنَةَ الْأَعْيُنِ وَ ما تُخْفِي الصُّدُورُ. وَ اللَّهُ يَقْضِي بِالْحَقِّ وَ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ لا يَقْضُونَ بِشَيْءٍ إِنَّ اللَّهَ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ.

تعريف عام بالآيات:

فى الآيات التى قبل هذه حديث عن المؤمنين و عن أن حملة العرش من الملائكة يظلون يستغفرون لهم و يدعون اللّه لهم بالرحمة و أن يدخلهم جنات عدن التى وعدهم بها و من صلح من آبائهم و أزواجهم و ذرياتهم.

و من عادة الأسلوب القرآنى- كما بيّنا- أنه يضع آية الشدّة إلى جانب آية الرخاء. و يتبع الحديث عن إحدى طائفتى المؤمنين أو الكافرين بالحديث عن

من روائع القرآن، ص: ۲۴۸

الطائفة الأخرى، للأسباب التربوية التى ذكرناها فيما مضى. فناسب أن يردف الحديث عن المؤمنين و دعاء الملائكة لهم، بالحديث عن الكافرين و ما يقولون و يقال لهم يوم القيامة، و بعد أن تعرض الآيات لهذه الصورة من حال الكافرين يوم القيامة يتناول البيان القرآنى وصف يوم القيامة بصورة عامة و مخيفة يتضاءل أمر الكافرين و شأنهم من خلال هولها. و نجد أنه أدخل ضمن هذا البيان آيات يتجه فيها الخطاب إلى الناس بالموعظة و التذكير و إعداد العدّة لهذا اليوم قبل فوات الأوان، و ذلك حسب الطريقة القرآنية المتبعة من إقحام آيات الوعظ و الإرشاد و التوجيه خلال الموضوعات و الأبحاث الأخرى لأسباب ذكرناها فيما سبق.

شرح الآيات:

* تصف الآية الأولى، بأسلوب فريد، مدى كراهية اللّه للكافرين يوم القيامة، فتجعل المقياس الموضّح لذلك مدى كراهية الكافرين لأنفسهم إذ أودت بهم إلى هذا المصير الهائل الأليم، و إنها لكراهية شديدة إذ ذاك. إن مقت اللّه لهم فى ذلك اليوم أكبر و أشدّ من مقتهم الشديد لأنفسهم و من مقت بعضهم لبعض. و لئن كان سبب مقتهم أنفسهم أنها أودت بهم إلى هذا المصير، فإن سبب مقت

اللّه لهم أنهم طالما دعوا فى دنياهم إلى الإيمان و ظلوا يجحدون و يكفرون. فهذا معنى قوله: إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يُنادَوْنَ لَمَقْتُ اللَّهِ أَكْبَرُ مِنْ مَقْتِكُمْ أَنْفُسَكُمْ إِذْ تُدْعَوْنَ إِلَى الْإِيمانِ فَتَكْفُرُونَ. أى لمقت اللّه إياكم اليوم أشدّ من مقتكم أنفسكم، و إِذْ تُدْعَوْنَ .. علة لمقت اللّه عزّ و جلّ. و أنت خبير أن مقت اللّه إياهم ليس خاصّا بذلك اليوم بل هو موجود فى الدنيا أيضا، و لكن لما ظهر أثره يوم القيامة أسند إلى ذلك اليوم. على أنه يجوز عدم تخصيص المقت إياهم بذلك اليوم وحده، فتكون الآية بيانا لما استحقوه من المقت منذ أن كفروا فى دار الدنيا.

* و تصف الآية الثانية مدى ذلّهم و ضراعتهم فى ذلك الموقف حيث يقولون: رَبَّنا أَمَتَّنَا اثْنَتَيْنِ وَ أَحْيَيْتَنَا اثْنَتَيْنِ فَاعْتَرَفْنا بِذُنُوبِنا. أى أمتنا إماتتين اثنتين و أحييتنا إحياءتين اثنتين، و الإماتتان هما الإماتة السابقة على الوجود فى

من روائع القرآن، ص: ۲۴۹

الحياة الدنيا، و الإماتة السابقة على الحشر يوم القيامة. و الحياتان هما الحياة التى عاشوها فى الدنيا و التى بعثهم اللّه إليها يوم الحشر. و عبّر عن العدم الأول بالإماتة مع أنه عدم أصلى غير مسبوق بوجود ليصوّر لك أن ذلك إنما هو أيضا بجعل اللّه و تقديره، كما تقول: سبحان من صغر البعوض و عظم الفيل، مع أن البعوض صغير من أصله.

و يقولون بعد ذلك: فاعترفنا بذنوبنا، ليمسحوا بهذه الضراعة جحودهم السابق، و ليجعلوا من ذلك تمهيدا و توطئة لرجائهم الذى يتقدمون به: فهل إلى خروج من سبيل؟. و أنت إذا تأملت فى هذه الجملة وجدتها تصوّر أبلغ حالات الضراعة و الاسترحام و الذل: فقد عبّروا عن رجائهم بهل و هى- كما تعلم- استفهام عرض و رجاء، ثم عبّر عن الرجوع إلى دار الدنيا بمطلق الخروج من هذا الموقف، و نكّر الكلمة بيانا لتعلقهم الشديد بأى خروج من هذه الورطة، و نكر السبيل و زاد من تنكيرها و تعميمها بتسليط «من» عليها، ليصبح المعنى هل إلى أىّ خروج من هذا المأزق سبيل ما من الممكن تصوره؟ .. و هو كما ترى كلام من غلب عليه القنوط و اليأس و أسقط فى يديه، فراح يتعلق بحبال واهية من الرجاء و الضراعة و الذل.

* و الآية بعدها معرضة- كما ترى- عن الجواب على استرحامهم هذا، تنبيها إلى استحالة ما يؤملونه و إلى وضوح ذلك بحيث لا حاجة إلى التحدّث فيه و الإجابة عنه، و لكنها تكشف لهم عن علة هذه الاستحالة و سببها، إذ تقول: ذلكم الذى انتهيتم إليه من العذاب الذى لا مردّ له، إنما هو بسبب أنكم كنتم إذا دعيتم إلى اللّه فى دار الدنيا بادرتم إلى الجحود و الكفر، و إن لاحت لكم دعوة إلى باطل أو شرك سارعتم فيه و آمنتم به.

و تأمل فى دقة التعبير القرآنى عن هذا المعنى: ذلِكُمْ بِأَنَّهُ إِذا دُعِيَ اللَّهُ وَحْدَهُ كَفَرْتُمْ، وَ إِنْ يُشْرَكْ بِهِ تُؤْمِنُوا عبّر عن حال الدعوة إلى اللّه بإذا الدّالة على التحقق و التكرار، و عن حال ظهور الشرك أمامهم بأن الدّالة على المصادفة فى الوقوع و عدم التكرار، و نصّ على الدعوة فى الحالة الأولى و أهمل ذكرها فى الحالة الثانية، ليصوّر فى الذهن مدى ما انتهى إليه حالهم من السوء، فهم لا

من روائع القرآن، ص: ۲۵۰

ينصتون إلى شىء من الحق مهما ذكروا به و دعو إليه، فى حين أنهم يسرعون إلى الكفر و الجحود مهما لاحت لهم أى صورة منه على البعد.

فمن أجل ذلك، لا مردّ و لا رجوع؛ و الحكم للّه العلىّ الكبير وحده.

* و يلتفت السياق هنا، بعد أن تصور القارئ المتأمل رهبة الحشر و الحساب يوم القيامة، و تصور حالة الندم التى يستغرق فيها الكافرون إذ ذاك دون أى فائدة؛ ليتبّه الناس- و إن الوقت لم يفت بعد، و إن هذا الموقف لا يزال غيبا فى علم اللّه- إلى أن يتداركوا فيصلحوا أحوالهم و يؤمنوا بالحق القائم جليّا أمام بصائرهم. فيقول اللّه عزّ و جلّ مخاطبا عباده فى دار الدنيا: هُوَ الَّذِى يُرِيكُمْ آياتِهِ وَ يُنَزِّلُ لَكُمْ مِنَ السَّماءِ رِزْقاً وَ ما يَتَذَكَّرُ إِلَّا مَنْ يُنِيبُ. فأما الآيات، فهى تلك الدلائل الجليّة على وجود اللّه و وحدانيته و التى بها تستقر العقيدة الصحيحة فى القلب فتحقق مصلحة الدين للناس فى الحياة. و أما الرزق الذى ينزل من السماء فهو كناية عن سببه و هو المطر

الذى به تحيا الأرض و توجد الأرزاق، و الذى به تتحقق مصلحة الدنيا للناس فى الحياة، فالآية تبيّن أن اللّه عزّ و جلّ قد أقام لعباده فى الدنيا كلّا من أساسى مصلحة دينهم و مصلحة دنياهم.

و لكن رغم ذلك كله، فإنه لا يتذكر هذه الحقيقة الواضحة و يستيقظ إليها إلا من تخلّص من شوائب أهوائه و أغراضه و رجع إلى عقله المتجرد الحرّ يستمع إلى حكمه و يأخذ بهديه.

* فإذا كان الأمر كذلك، فاستقيموا أيّها المؤمنون على عبادة اللّه تعالى و أخلصوا الدين له، و لا تلتفتوا إلى ما يغيظ الكافرين من ذلك، فهم إنما يكرهون ذلك منكم و ينكرونه بسائق من شهواتهم و أهوائهم النفسية، لا بوحى من عقولهم الحرّة الطليقة.

و لما أمر اللّه المؤمنين بالاستقامة على عبادة اللّه، أتبع ذلك ببيان بعض ما يتصف به اللّه عز و جلّ من صفات الربوبية تأكيدا لما تضمنته الآية السابقة من الأمر بعبادة اللّه عزّ و جلّ فقال: رَفِيعُ الدَّرَجاتِ، ذُو الْعَرْشِ، يُلْقِى الرُّوحَ مِنْ أَمْرِهِ عَلى مَنْ يَشاءُ مِنْ عِبادِهِ لِيُنْذِرَ يَوْمَ التَّلاقِ.

من روائع القرآن، ص: ۲۵۱

فأما: رفيع الدرجات، فهى بمعنى مرتفع الصفات فلا يلحق به فيها غيره و لعلّ هذا خير من القول بأن رفيع بمعنى رافع و أن راجع و أن المعنى: رافع درجات من شاء من عباده، ذلك أن الأشبه برفيع أن تكون صفة مشبهة لا اسم فاعل.

و أما: ذو العرش، فمعناه مالكه و خالقه. و إنما أفرده بالذكر لأنه من أعظم مخلوقاته و أجلّها، و العرش من الغيب الذى أخبرنا اللّه عنه و لم يطلعنا عليه، فهو مما يجب الإيمان به غيبا. و الصفتان خبران لمبتدإ محذوف تقديره:

هو، حذف اكتفاء بما يدل عليه و توجيها للفكر كله إلى التأمل فى هذه الصفات.

و يُلْقِى الرُّوحَ مِنْ أَمْرِهِ ... خبر آخر، فهى صفة ثالثة، أى أنه يرسل الوحى الذى هو بمثابة الروح لحياة الإنسان، إذ إن مضمون الوحى الإلهى إنما هو روح للحياة الحقيقية التى يحتاجها الإنسان أشد من حاجته إلى الغذاء. و تأمل فى التعبير ب يُلْقِى و انظر إلى الكلمة كيف تصور انطلاق الوحى من اللّه عزّ و جلّ إلى من شاء من عباده فى إلقاء سريع، فلا يمكن أن يلحقه أى تبديل أو تحريف، و هو ما يؤكد مضمون قوله: من أمره، أى يلقى الروح ناشئا و منطلقا من أمره، فمن للابتداء، و الجار و المجرور متعلق بمحذوف منصوب على الحالية.

و فى قوله: عَلى مَنْ يَشاءُ مِنْ عِبادِهِ دلالة على أن النبوّة لا تأتى بالكسب و الترقى فى مدارج الصلاح و التقوى، و إنما هى اختيار إلهى محض.

أما الوظيفة التى يتضمنها الوحى و يكلف بها الرسول فهى أن ينذر يوم التلاق، أى يوم القيامة.

و لم يذكر المفعول الأول لينذر، ليكون الإنذار عامّا للناس كلهم فى مختلف الأعصار و الأمصار، و لم تزد الآية على أن أطلقت على يوم القيامة اسم: يوم التلاق، دون أن تعين المقصود بالتلاقى الذى يكون فيه، ليشمل كل تلاق يكون فى ذلك اليوم ... إذ فيه تتلاقى سلسلة أجيال البشر كلها على صعيد واحد بعد أن كانت مفرقة على عمر الدنيا كلها، و فيه يتلاقى الناس بالملائكة و أهل السموات بأهل الأرض، و فيه يتلاقى الناس مع ما قدّموه من أعمال ...

من روائع القرآن، ص: ۲۵۲

إنه حقيقة يوم التلاق ... التلاقى بمعناه الشامل العام و بكل ما فى الكلمة من معنى، و إنه لتلاق عجيب و رهيب!!.

و مع الحديث عن آخر هذه الصفات يعود السياق، كما ترى إلى أول البحث؛ و هو الحديث عن يوم القيامة و حال الكافرين فيه؛ فتصف الآيات التالية جوانب من مظاهر يوم التلاق:

* يَوْمَ هُمْ بارِزُونَ، لا يَخْفى عَلَى اللَّهِ مِنْهُمْ شَىْءٌ، لِمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ؟ لِلَّهِ الْواحِدِ الْقَهَّارِ: ثلاث صفات من أهم صفات يوم الحشر، تصورها هذه الجمل الثلاث تصويرا يسيطر على المشاعر و يأخذ بالقلب.

(يَوْمَ هُمْ بارِزُونَ): بدل من يوم التلاق، أى لينذروهم ذلك اليوم. يوم هم خارجون من قبورهم إلى ظاهر أرض مستوية لا يسترهم فيها شيء من جبل أو بناء أو واد أو أكمة. إذ هى كما قال عزّ و جلّ: (قاعاً صَفْصَفاً لا تَرى فِيها عِوَجاً وَ لا أَمْتاً).

(لا يَخْفى عَلَى اللَّهِ مِنْهُمْ شَيْءٌ): استئناف فيه مزيد من التقرير لبروزهم و وضوحهم فى ذلك الموقف، و فيه مزيد من نسخ ذلك الباطل الذى كان عالقا برءوس الكافرين منهم فى الدنيا من أن الأرض إذا التقمتهم و أصبحوا ترابا فهيهات أن يحشروا مرة أخرى، فها هم اليوم بارزون ظاهرون يموجون تحت سلطان اللّه و فى قبضته و أمام نظره.

(لِمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ لِلَّهِ الْواحِدِ الْقَهَّارِ): صفة ثالثة جاءت بهذا الأسلوب التصويرى المثير. فمن أجل ذلك حذف لفظ القول من جملتى السؤال و الجواب معا، لأن المقصود ليس إخبارا عن كلام سيحصل، و إنما المقصود تصوير ذلك المشهد الرهيب فى أخصّ مظاهره و أحواله.

فالسؤال منبعث من وحى المشهد: لقد برز الناس جميعا من قبورهم إلى هذا الملتقى، و لقد تقطعت أسباب دنياهم و علاقات ما بينهم و انسلخت عنهم مظاهر الملك و الجاه و السلطان، و جاءوا لا يسوقون معهم إلا جسومهم العارية.

فيرتسم السؤال من وحى الحالة و هول المشهد و من ذكرى الغرور الدنيوى الذى

من روائع القرآن، ص: ۲۵۳

(طوى عهده: لمن الملك اليوم؟) ليرتسم من ورائه الجواب الذى يملأ سمع الزمان و المكان و ينطبع فى كل أذن و فكر: (للّه الواحد القهّار).

* الْيَوْمَ تُجْزى كُلُّ نَفْسٍ بِما كَسَبَتْ، لا ظُلْمَ الْيَوْمَ، إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسابِ: ثلاث صفات أخرى ليوم القيامة توضح أهم خصائص ذلك اليوم، و هو الحساب الذى تلاقيه كل نفس على ما قدّمت.

اليوم تجزى كل نفس بما كسبت تعطى جزاء كل ما قد فعلته من خير و شر، و فى تقديم الْيَوْمَ و تصدير الجملة بها إيحاء بأن الناس طالما أمهلوا من قبل حتى ظن كثير منهم أنه لا جزاء و لا حساب! ..

(لا ظلم اليوم): سيبلغ اليوم كلّ حقّ مداه، و سينصف كل مظلوم و يقتصّ من كل ظالم، و لكن هل كان فى دار الدنيا ظلم حتى يكون نفيه خاصا بهذا اليوم؟ إن الجملة صيغت بهذا الشكل ردّاء و تبكيتا لأولئك الذين طالما تساءلوا فى دار الدنيا عن أسباب تفاوت الناس فى مظاهر السعادة و وجود مظاهر البؤس و الفقر إلى جانب مظاهر النعمة و الترف و نسبوا إلى اللّه من أجل ذلك الظلم و الجور، قصدا إلى الإلحاد فى ذاته و ادّعاء عدم وجوده؛ فالجملة تقول لهؤلاء الناس- على سبيل التبكيت و التأنيب-: تستطيعون أن تطمئنوا اليوم إلى أن مثقال ذرّة من العدالة لن يهدر و إلى أن أحدا من الناس لن يظلم؛ إن حياتكم التى مرّت لم تكن إلا فصلا صغيرا من قصة الوجود الإنسانى كله، و الحكم على القصة ما كان ينبغى أن يكون من خلال ما يتراءى من فصل واحد صغير فيها، و سترون من مجرى الحساب و الجزاء، اليوم، أن عين العدالة لم تغفل عن الإنسان لحظة واحدة فى دنياه التى خلت.

فلما كانت هذه الحقيقة إنما تتجلى و تتكشف للناس يوم القيامة، أسند نفى الظلم إلى ذلك اليوم تصويرا لهذه الحقيقة كلها.

(إن اللّه سريع الحساب): لن يعجزه شيء عن محاسبة هذه الخلائق المتجمعة كلها فى آن واحد، فهو تعالى لا يشغله شأن عن شأن. و لئن كان وقت الحساب يطول أمده على الناس، فإنما هو لعظم الهول الذى يحبط به، و ليس لعجز اللّه عن الإسراع فى محاسبتهم! ...

من روائع القرآن، ص: ۲۵۴

* وَ أَنْذِرْهُمْ يَوْمَ الْآزِفَةِ، إِذِ الْقُلُوبُ لَدَى الْحَناجِرِ، كاظِمِينَ، ما لِلظَّالِمِينَ مِنْ حَمِيمٍ وَ لا شَفِيعٍ يُطاعُ عود إلى وصف يوم القيامة بأسلوب مختلف و بأنواع أخرى من الصفات الهائلة المخيفة.

و الحديث هنا يتحول إلى مخاطبة رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم، قائلا: أنذر الناس يا محمد يوم القيامة، فيوم مفعول ثان لأنذر. و لقد سمى القيامة هنا بيوم الآزفة، بعد أن سمّاها فى الآيات السابقة: يوم التلاق. و كلا الاسمين وصف صادق و هائل ليوم

القيامة. و هى من أزف الأمر إذا دنا، و إضافة اليوم إليها من إضافة الشىء إلى صفته، أى اليوم الآزف و إنما سمّاه اللّه الْآزِفَةِ تنبيها إلى أن ذلك اليوم قريب و إن استبعد الناس مداه و استأخروا قدومه. و لقد وصف اللّه هذا اليوم بعكس ما هو متصور فى أذهان الناس كى ينتبهوا إلى خطأ تصورهم هذا، و لكى يعلموا أن كل ما هو كائن فهو قريب.

و لك أن تقول: ففيم أنّثت الآزفة، و هى كما تقول صفة لليوم؟ و الجواب- كما قال القفال و غيره- أن سائر أسماء القيامة جارية على التأنيث كالطامة و الحاقّة و نحوهما تضمينا لها معنى الداهية، أى فالتأنيث للتهويل.

(إذ القلوب لدى الحناجر): استحضار لصورة الكرب الشديد العالق بنفوس الناس إذ ذاك، و الكرب معنى اعتبارى مجرد، و لكن الآية تبرزه فى أروع صورة محسوسة مجسّمة، و صورة الكرب هنا هى تلك القلوب التى ارتفعت من أماكنها حتى التصقت بالحلوق، فلا هى تعود فيستروحوا و لا هى تخرج فيستريحوا. و انظر إلى الشمول الذى دلّت عليه «القلوب» و «الحناجر»! ... فهو لم يضف القلوب و الحناجر إلى أناس بأعيانهم، بل قطعهما عن الإضافة و التخصيص، و عبّر بصيغة الجمع و أدخل «ال» عليها، لتفهم أنها غاشية عامة من الضيق و الكرب تمتد إلى كل من يزدحم بهم ذلك الموقف المريع.

(كاظمين): حال من أصحاب تلك القلوب، و هم و إن لم يذكروا فى الآية و لكن صورتهم ماثلة فى المخيلة. و الكاظم هو المنحبس على حال من الغم و الغيظ امتلأت بهما نفسه، و هى صورة أخرى للكرب الشديد فى ذلك اليوم، ليس عنه أى متنفس و لا مهرب! ..

من روائع القرآن، ص: ۲۵۵

(ما للظالمين من حميم و لا شفيع يطاع): كشف للحالة التى قد يتساءل عنها الفكر و الذهن: أ ليس ثمة من ملجأ أو شافع أو معين؟ لا ... ليس للظالمين أى ملاذ، إنه الكرب الذى لا مفر منه و لا مخلّص، فليس ثمة قريب شفيق، و لا شفيع يطاع قوله أو ينظر فى شفاعته. و نفى وجود القريب الشفيق إنما هو تصوير لعدم اهتمام المرء إذ ذاك إلا بنفسه. فالأقارب لا يزالون أقارب لبعضهم إذ ذاك و لكن أحدا منهم لا يتعرف على الآخر، فكأن الأنساب قد قطعت مما بينهم حينئذ فلا وجود لها كما يقول اللّه عزّ و جلّ: فَإِذا نُفِخَ فِي الصُّورِ فَلا أَنْسابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَ لا يَتَساءَلُونَ.

* يَعْلَمُ خائِنَةَ الْأَعْيُنِ وَ ما تُخْفِي الصُّدُورُ أسلوب آخر فى التعبير عن مجازاة اللّه و محاسبته للناس إذ ذاك، و فى التعبير عن عدم تمكن الكافرين و الجاحدين يومئذ من المكر أو الكذب أو إخفاء الحقائق.

إن اللّه عزّ و جلّ مطّلع على كل ما قد يجترحه أو يكسبه الإنسان سواء كان ذلك بجوارحه الظاهرة أو بنفسه و وساوسه الخفية. و تأمل كيف عبّر البيان القرآنى عن النوع الأول ب: خائنة الأعين و عن الثانى ب: ما تخفى الصدور. لقد كنى عن أعمال الجوارح بأدق مثال لها، و هو النظرة المريبة بالعين و عبّر عنها بخائنة الأعين، أى الأعين الخائنة، على أن الخائنة اسم فاعل، أو بمعنى: خيانة الأعين على أنها مصدر كالعافية و العاقبة، كأن العين تخون صاحبها فتنم عمّا أضمر فى نفسه، أو تخون الحق و الأمانة إذ تغمز و تسترق النظرة المحرمة.

و كنى عن أعمال القلوب و وساوسها بما تخفى الصدور؛ و الصدور هى مستكنّ الأسرار و الخفيات.

فكيف يستطيع الظالمون مع ذلك إخفاء الحقائق؛ أو الكذب على الواقع؟! أم كيف يعجز الخالق جلّ جلاله عن محاسبتهم على كل ما اجترحوه من صغير و كبير؟!* و تختم هذه الآيات الوصفية المتضمنة لطرف من أهوال يوم القيامة بتقرير الحقيقة التى يريد اللّه عزّ و جلّ من عباده أن ينتبهوا إليها قبل فوات

من روائع القرآن، ص: ۲۵۶

الأوان، و هى أن اللّه وحده الذى يقضى بالحق الذى يشاء على مخلوقاته كلها فى الدنيا و الآخرة، فهو وحده المؤثّر فى خلق العالم و طبائع الأشياء، و هو الذى أعطى كل شىء خلقه ثم هدى، و إليه مردّ الناس كلهم ليقضى فيهم قضاءه المبرم الذى لا قضاء فوقه.

و هيهات أن يكون لشىء من المخلوقات الأخرى التى يؤلهها الكافرون و الجاحدون من الأصنام أو الناس أو طبائع الأشياء، أى صفة

من هذا القبيل:

وَ اللَّهُ يَقْضِي بِالْحَقِّ وَ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ لا يَقْضُونَ بِشَيْءٍ إِنَّ اللَّهَ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ.

و اللّه تعالى أعلم.

***

من روائع القرآن، ص: ۲۵۷

فى المبادئ و الإنسانيّات (من سورة الإسراء من آية: ۲۳ إلى آية ۲۹)

اشارة

قال اللّه تعالى:

وَ قَضى رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَ بِالْوالِدَيْنِ إِحْساناً، إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِنْدَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُما أَوْ كِلاهُما فَلا تَقُلْ لَهُما أُفٍّ وَ لا تَنْهَرْهُما، وَ قُلْ لَهُما قَوْلًا كَرِيماً، وَ اخْفِضْ لَهُما جَناحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ وَ قُلْ رَبِّ ارْحَمْهُما كَما رَبَّيانِي صَغِيراً. رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِما فِي نُفُوسِكُمْ إِنْ تَكُونُوا صالِحِينَ فَإِنَّهُ كانَ لِلْأَوَّابِينَ غَفُوراً. وَ آتِ ذَا الْقُرْبى حَقَّهُ وَ الْمِسْكِينَ وَ ابْنَ السَّبِيلِ وَ لا تُبَذِّرْ تَبْذِيراً. إِنَّ الْمُبَذِّرِينَ كانُوا إِخْوانَ الشَّياطِينِ وَ كانَ الشَّيْطانُ لِرَبِّهِ كَفُوراً. وَ إِمَّا تُعْرِضَنَّ عَنْهُمُ ابْتِغاءَ رَحْمَةٍ مِنْ رَبِّكَ تَرْجُوها فَقُلْ لَهُمْ قَوْلًا مَيْسُوراً. وَ لا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلى عُنُقِكَ وَ لا تَبْسُطْها كُلَّ الْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُوماً مَحْسُوراً. إِنَّ رَبَّكَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشاءُ وَ يَقْدِرُ إِنَّهُ كانَ بِعِبادِهِ خَبِيراً بَصِيراً. وَ لا تَقْتُلُوا أَوْلادَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلاقٍ نَحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَ إِيَّاكُمْ إِنَّ قَتْلَهُمْ كانَ خِطْأً كَبِيراً. وَ لا تَقْرَبُوا الزِّنى إِنَّهُ كانَ فاحِشَةً وَ ساءَ سَبِيلًا. وَ لا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَ مَنْ قُتِلَ مَظْلُوماً فَقَدْ جَعَلْنا لِوَلِيِّهِ سُلْطاناً فَلا يُسْرِفْ فِي الْقَتْلِ إِنَّهُ كانَ مَنْصُوراً. وَ لا تَقْرَبُوا مالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّى يَبْلُغَ أَشُدَّهُ وَ أَوْفُوا بِالْعَهْدِ إِنَّ الْعَهْدَ كانَ مَسْؤُلًا. وَ أَوْفُوا الْكَيْلَ إِذا كِلْتُمْ وَ زِنُوا بِالْقِسْطاسِ الْمُسْتَقِيمِ ذلِكَ خَيْرٌ وَ أَحْسَنُ تَأْوِيلًا. وَ لا تَقْفُ ما لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَ الْبَصَرَ وَ الْفُؤادَ كُلُّ أُولئِكَ كانَ عَنْهُ مَسْؤُلًا. وَ لا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحاً إِنَّكَ لَنْ تَخْرِقَ الْأَرْضَ وَ لَنْ تَبْلُغَ الْجِبالَ طُولًا. كُلُّ ذلِكَ كانَ سَيِّئُهُ عِنْدَ رَبِّكَ مَكْرُوهاً. ذلِكَ مِمَّا أَوْحى إِلَيْكَ رَبُّكَ مِنَ الْحِكْمَةِ وَ لا تَجْعَلْ مَعَ اللَّهِ إِلهاً آخَرَ فَتُلْقى فِي جَهَنَّمَ مَلُوماً مَدْحُوراً.

من روائع القرآن، ص: ۲۵۸

تعريف عام بالآيات:

تعرض هذه الآيات لبيان أحد عشر مبدأ من أهم المبادئ الإنسانية العامة. مبتدأة و مختتمة بمبدإ التوحيد و العبودية للّه عزّ و جلّ. و تأتى هذه الآيات بعد آيات سابقة تتحدث عن أهمية القرآن فى إصلاح حياة الإنسان و دلالته على النهج القويم، و عن حدود المسئوليات و نظامها و قيمة كلّ من الحياتين الدنيوية و الأخروية.

فهى تأتى بعد منبهات و حوافز تهيئ كلّا من النفس و الذهن لقبول ما تتضمنه هذه الآيات من مبادئ الإنسانية بقبول حسن.

شرح الآيات:

* و قضى ربك ألّا تعبدوا إلا إياه. أى أمر ربك ألّا تعبدوا إلا إيّاه، و قد استهلّ الخطاب بجملة إخبارية للرسول صلّى اللّه عليه و سلّم، و هى: و قضى ربك. ثم التفت بالخطاب إلى الناس حينما تحول من الإخبار إلى الإنشاء، فقال: ألّا تعبدوا إلا إياه. و ذلك لأن الجملة الأولى حكاية فناسب أن يتجه الخطاب فيها إلى النبى عليه الصلاة و السلام، و أما الثانية فأمر و توجيه، فناسب أن يتجه الخطاب فيها

إلى عامّة الذين يتجه هذا الأمر إليهم.

فهذا أول مبدأ من المبادئ الأحد عشر، و هو أخطرها و أهمها.

ثم أتبعه بالمبدإ الثانى قائلا: و بالوالدين إحسانا، أى و أن تحسنوا بالوالدين إحسانا، تقول. أحسنت به و أحسنت إليه. و إنما جعل رتبة برّ الوالدين إثر رتبة توحيد اللّه و عبادته، لأن اللّه هو المسبّب الحقيقى لوجود الإنسان و عيشه و ارتزاقه، و الوالدان هم السبب الجعلى و الظاهرى لكلّ من الوجود و العيش، فلئن كان المقتضى لعبادة اللّه أنه الخالق و المنعم الحقيقى، فإن المقتضى لبرّ الوالدين ما قضت به حكمة اللّه من أن يكون وجود الإنسان بهما و نشأته عن طريق رعايتهما.

ثم شرح المقصود بالإحسان فقال: إمّا يبلغنّ عندك الكبر أحدهما أو كلاهما فلا تقل لهما أفّ و لا تنهرهما و قل لهما قولا كريما. و أصل الجملة: إن يبلغ

من روائع القرآن، ص: ۲۵۹

عندك الكبر ... فركبت إن مع ما التى يسمّونها زائدة لتصوير المبالغة فى استقصاء الظروف و الأحوال، و أدخل نون التوكيد على الفعل لنفس الغرض أيضا، فأصبحت الجملة تقول لك بكلّ من جرسها و مضمونها: مهما وجدت الشيخوخة قد دبّت إلى أحد من أبويك فليكن موقفك منهما فى كل الظروف و الأحوال موقف الراحم الشفوق و الخادم المحب.

و كان من الممكن لسلامة أصل هذا المعنى أن تستغنى الآية عن كلمة «عندك» بأن تقول: إما يبلغنّ الكبر أحدهما أو كلاهما ... لو لا أن «عندك» هذه تثبت فى إحساس المخاطب معنى هائلا يثير فيه النزوع إلى الشفقة و الرقة و العطف. فالآية تصور بهذه الكلمة كيف أن الكبر و الضعف قد وضع كلّا من الوالدين فى كنف الابن و تحت رعايته بعد أن كان الابن هو الضعيف الذى يعيش فى كنفهما و تحت رعايتهما.

و القصد إلى تصوير هذا المعنى هو الذى اقتضى تقديم لفظ «الكبر»، و هو مفعول، على لفظ: أحدهما و هو فاعل، و لو اختلف نسق هذه الألفاظ و ترتيبها اختلافا ما، لاختفت الصورة و بطل أن يكون فى الآية شىء من هذا الإيحاء.

ثم انظر كيف نهتك الآية عن أن تضيق ذرعا بهما فى شعورك و نفسك كما نهتك عن إيذائهما فى شىء من عملك و معاملتك، ثم كنّت عن الأول بأقل مظهر له و هو التأفف، و كنّت عن الثانى بأدنى مظهر من مظاهره و هو القسوة أو الانتهار فى القول، فنهت عن ذلك بدلالة النص، إذ النهى عن أدنى إفراد الشىء أبلغ نصّ فى الدلالة على عموم النهى عن الجنس كله.

* ثم زاد الأمر بالإحسان إلى الوالدين تأكيدا، فصوّر لك ما ينبغى أن تكون عليه حال الولد من والديه دائما، و أخرج معنى الرحمة بهما و الإحسان إليهما و التواضع لهما فى مظهر شىء متخيل محسوس مبالغة فى الإلزام به و الدعوة إليه، فقال: وَ اخْفِضْ لَهُما جَناحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ. فقد صوّر الذلّ المأمور به بطائر خرّ هاويا إلى الأرض ثم صوّر مبالغة وضوح الذلّ و التواضع بنشر هذا الطائر مع ذلك جناحيه يخفضهما نحو الأرض.

من روائع القرآن، ص: ۲۶۰

بيد أنه استدرك، كى لا تحسب أنه ذلّ الحطّة و الصغار، و هو ما ينهى عنه الإسلام و لا يمكن أن يأمر به، فقال: من الرحمة، أى بسبب و بعامل الرحمة بهما، و هو شرف لك و ليس بصغار عليك.

و مع ذلك، فلا تقتصر على أن تعاملهما برحمة من عندك، بل ادع اللّه لهما أيضا على أن يشملهما برحمة من عنده. و قل ربّ ارحمهما كما ربيانى صغيرا أى رحمة كرحمتهما بى إذ كنت صغيرا، أو فى مقابل رحمتهما بى إذ ذاك.

* و لما بالغ هذه المبالغة فى الأمر ببرّ الوالدين، حتى إنه لم يرخص فى أدنى كلمة قد تفلت من المتضجر، أعقب ذلك ببيان رفع الحرج عمّن أساء ثم أسرع فتاب، و لم يكن قلبه منطويا إلا؟؟ على الخير و البرّ و التزام أمر اللّه عزّ و جلّ، و تأمل فى الأسلوب الذى أخرج به هذا المعنى إذ قال: ربكم أعلم بما فى نفوسكم إن تكونوا صالحين فإنه كان للأوّابين غفورا. و فيه تقرير بأن التوبة الكاذبة

باللسان لا تخدع اللّه عزّ و جلّ لاطّلاعه على ما استقرّ فى النفوس، و فيه تأكيد بأن اللّه يقبل توبة الآئب إليه؟؟ النادم على ما قد كان منه.

* و ينتقل البيان القرآنى إلى المبدأ الثالث، و هو الوفاء بحق القرابة و الرحم خاصة و بحق عموم الفقراء و المساكين عامة؛ و هو مبدأ وثيق الصلة و المناسبة بالذى قبله و هو برّ الوالدين؟؟: و ليس الأمر هنا بالإحسان و؟؟ الرفق، و لكنه أمر بإعطائهم الحق الذى لهم؟؟؟ عليه، حتى لا تتصور أن لك بذلك عليهم منّة و أنك تمنحهم من حقك الذى؟؟؟ هو لك ... و عن هذا المعنى تعبّر صياغة الآية: و آت ذا القربى حقه و المسكين و ابن السبيل. أما الأمر بالإحسان إلى الوالدين، فليس فيه مثار لهذا التصور، و ذلك لأن الولد مهما بالغ فى الإحسان إلى والديه فإنه لن يفى لهما بجزء من حقهما السابق عليه.

و لما كان الوفاء للأقارب و المعوزين بحقوقهم يقتضى حجز المال عن تبديده فى الجهات الباطلة نهى اللّه عن ذلك بقوله: و لا تبذر تبذيرا. و المفعول المطلق لبيان النهى عن التبذير الذى لا مسوغ؟؟ له إلا التبذير المجرد، و ذلك لإخراج صور من الإنفاق قد تظهر فى مظهر التبذير و لكنها ليست فى الحقيقة كذلك إذ يقتضيها مصالح و أسباب مشروعة معينة.

من روائع القرآن، ص: ۲۶۱

و بالغ فى النهى عن هذه العادة بقوله مخبرا: إن المبذرين كانوا إخوان الشياطين و كان الشيطان لربه كفورا. أى كانوا قرناء للشياطين، و فيه إلماح إلى أن عادة تبذير المال و تبديده إنما تتمكن بتغلب الوساوس الشيطانية لا أكثر، إذ ليس من ورائه أى غاية أن مصلحة يحتاجها الإنسان.

* و لكن أ رأيت لو لم يكن الإنسان موسرا بالمال الذى يعطى منه حق القرابة و المحتاجين فأعرض عنهم عجزا عن العون لا استكبارا عن أداء الحق؟ ... لقد عالج البيان الإلهى العظيم هذه الحالة بأسلوب بالغ الروعة إذ قال: وَ إِمَّا تُعْرِضَنَّ عَنْهُمُ ابْتِغاءَ رَحْمَةٍ مِنْ رَبِّكَ تَرْجُوها، فَقُلْ لَهُمْ قَوْلًا مَيْسُوراً: أى مهما اضطررت إلى الإعراض عنهم بسبب الفقر و العوز اللذين تتأمل بهما فرج اللّه و رحمته، فقل لهم فى مكان ذلك كلاما سهلا ليّنا وعدهم وعدا جميلا، فالميسور هنا مفعول بمعنى الفاعل، أى يسر ضرّهم عليهم بكلامك الجميل لهم.

و لما أمر اللّه عزّ و جلّ فى الآيات التى ذكرناها بالوفاء بحق الأقارب و المحتاجين و نهى عن تبديد المال فيما لا حاجة إليه، حتى لا يفوت بذلك أداء هذا الحق و القيام به، ناسب أن ينتقل الحديث إلى تقرير مبدأ جديد يتعلق بتنظيم الإنفاق و يضع قانونا عادلا له. و المبدأ الإلهى الذى يخاطب به كافة العباد فى ذلك، هو أن يكون الإنفاق قائما على العدل بين التقتير و البخل المعيب من جانب، و الإسراف و التبذير المقيت من جانب آخر. و لكن الأسلوب القرآنى لا يعبّر عن هذا المعنى بهذه الطريقة المألوفة، و إنما يخرجه فى صورة محسوسة متخيلة فيقول: و لا تجعل يدك مغلولة إلى عنقك و لا تبسطها كل البسط فتقعد ملوما محسورا. فقد صوّر البخل فى مظهر اليد المربوطة إلى العنق فهى لا تكاد تنفك عنه، و معلوم أن اليد أبعد ما تكون عن الآخرين حينما تكون مقيدة بهذا الشكل الغريب، و صوّر الإسراف بتلك اليد التى تظل ممتدة و مبسوطة لا تكاد ترجع إلى صاحبها أو تنقبض على شىء، ثم هدد من يلتزم بذلك التفريط أو هذا الإفراط بأن سيأتيه يوم يعود من دأبه هذا ليقعد منقطعا عن أسباب العيش و الرزق، يتلقى اللوم من اللّه و الناس على ما أفرط أو فرّط.

من روائع القرآن، ص: ۲۶۲

* و تأتى الآية التى بعدها، واقعة موقع التعليل مما قبلها و هى: إِنَّ رَبَّكَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشاءُ وَ يَقْدِرُ. إِنَّهُ كانَ بِعِبادِهِ خَبِيراً بَصِيراً. أى فإذا كان مصدر رزقك هو اللّه عزّ و جلّ يبسطه إذا شاء و يضيقه عند ما يريد، فالتزم وصيته فى آداب الإنفاق و كيفيته، إذ لا البخل هو الذى يحفظ مالك و يربّيه و لا التبذير و الإسراف يمنعانك من أن يعاقبك اللّه بذلك فيقدر عليك رزقك الذى تتقلب و تمرح فيه. ثم يقول: إنه كان بعباده خبيرا بصيرا، إشعارا بأنه يراقبهم بصدد ما يأمرهم به من هذه المبادئ، هل ينفذونها أم يعرضون عنها؟.

* و تتهيأ المناسبة- مع الحديث عن آداب الإنفاق و تقرير أن الرزاق للعباد هو اللّه وحده- لعرض مبدأ خامس، وثيق الصلة بكل ما قد مرّ. فيقول اللّه عزّ و جلّ: وَ لا تَقْتُلُوا أَوْلادَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلاقٍ نَحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَ إِيَّاكُمْ إِنَّ قَتْلَهُمْ كانَ خِطْأً كَبِيراً أى لا تقتلوهم مخافة فقر تتوهمونه، و أصل أملق بمعنى التصق بالملقات، و هى حجارة رقاق ملساء فكنّى به بعد ذلك عن الفقر و الحاجة. ثم علّل النهى بتأكيد ما قد ذكره فى الآية السابقة فقال: نحن نرزقهم و إياكم، أى لستم أنتم الذين ترزقون أولادكم حتى تحاروا فى أمرهم فتندفعوا بذلك إلى قتلهم؛ بل نحن الذين نرزقهم و إيّاكم جميعا، و بالغ فى إظهار هذا المعنى مع شىء من التأديب حينما قدّم ضمير الأطفال فى الرزق على الآباء، إذ أشعرهم بذلك بأن رزق أطفالهم مقدّر مهيّأ لهم من قبل رزقهم هم، فلا يتوهموا أن لهم أىّ تأثير فى رزقهم حتى و لا التأثير الشكلى الذى يتجلّى فى مظهر كونهم وسطاء لهم فى الرزق و الرعاية.

و حينما نهى اللّه فى سورة الأنعام عن قتلهم أولادهم من أجل وقوع الفقر بهم فعلا قائلا: لا تقتلوا أولادكم من إملاق- لم يقدّم ضمير الأطفال كما فعل هنا، ذلك لأن خوف الآباء هناك إنما هو على أنفسهم و أولادهم معا، أو هو على أنفسهم قبل أولادهم فلا داعى إلى إشعارهم بهذا المعنى على ذلك التقدير.

و من أجل وضوح كل ذلك، فقد كان قتلهم خطئا كبيرا. و خطء بكسر الخاء مصدر خطئ يخطأ كأثم يأثم وزنا و معنى، فهو أبلغ و أشد من الخطأ بفتح الخاء و الطاء، إذ هو الإتيان بما لا ينبغى من غير قصد.

من روائع القرآن، ص: ۲۶۳

* و يجرّ الحديث عن الأولاد و حرمة قتلهم إلى الحديث عن أهم و أخطر مبدأ من المبادئ المتعلقة بالأسرة، و هو المبدأ السادس فى سلسلة هذه المبادئ الإنسانية فيقول اللّه عزّ و جلّ: وَ لا تَقْرَبُوا الزِّنى إِنَّهُ كانَ فاحِشَةً وَ ساءَ سَبِيلًا و المنهى عنه فى الآية إنما هو الزنى، و لكن الآية لا تنهى عن مباشرة ارتكابه فقط كما فى الآيات السابقة، و إنما هى تنهى هنا- كما ترى- عن مجرد قربه و الدنو إليه؛ ففى الآية تقرير واضح للنهى عن مباشرة أسبابه و ذرائعه و مقدماته، كاختلاط و خلوة و تبرج و نحوه، ذلك لأن القرب ليس إلا كناية عن ممارسة هذه الدوافع و الأسباب. و فى الآية أيضا تقرير لخطورة هذه الفاحشة و أن عدم مفارقتها لا يكون إلا بالتباعد عن أسبابها و ذرائعها القريبة و البعيدة، أما بعد اقتحام الأسباب و الذرائع فإن الدوافع البشرية تجمح بصاحبها نحو الشر الذى تعرّض له و هيهات أن يقوى عندئذ على كبحها و التغلّب عليها.

و «فاحشة» فى الآية صفة لمحذوف أى كان فعلة فاحشة، و ساء سبيلا، أى بئس طريقا طريقه، لما فيه من الخطر على الأسرة و المجتمع و لما فيه من مختلف الشرور الأخرى.

* و مع النهى عن الزنى، تحين المناسبة للنهى عن القتل، فهما جريمتان متقاربتان و متشابهتان فى الخطورة و الضرر على المجتمع، و كلّ منهما يشبه الآخر من بعض النواحى، و هو المبدأ السابع فيما توصى به هذه الآيات: وَ لا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِى حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِ و لا تقتلوا النفس أىّ نفس كانت، ما دامت أنها نفس أى روح ... إلا أن يكون ذلك لحق يستوجبه و يقتضيه. و هكذا تلك صياغة الآية على أن الأصل فى كل روح أن تكون مصونة عن الإزهاق، و ما يخالف هذا الأصل إنما يأتى لعارض.

وَ مَنْ قُتِلَ مَظْلُوماً فَقَدْ جَعَلْنا لِوَلِيِّهِ سُلْطاناً من قتل بدون مسوغ من الحق المذكور فقد جعلنا لمستحق دمه تسلّطا على القاتل فى الإرادة و الحكم، فإن شاء طالب بالقصاص و إن شاء بالدّية و إن شاء عفا.

فَلا يُسْرِفْ فِى الْقَتْلِ، إِنَّهُ كانَ مَنْصُوراً عبّر بهذا النهى عن كل ما قد يقوم به ولىّ المقتول من مظاهر الانتقام المختلفة، بأن يقتل فى مكان الواحد

من روائع القرآن، ص: ۲۶۴

اثنين أو ثلاثة كما كانوا يفعلون، أو بأن يمثل بالقاتل أو يزيد إلى القتل سلبا و نهبا، أو بأن يقتل غير قاتله، أو غير ذلك مما يدخل فى باب التشفّى و يتجاوز القصاص و الحق. عبّر عن النهى عن كل ذلك بهذه الصيغة الجامعة: فلا يسرف فى القتل.

و الآيـة لا تنهى وليّ المقتول عن هذا الإسـراف إلا و هى تطمئنه إلى أنه واصل إلى حقه، و عبّرت عن ذلك بصـيغة الماضـى مصدّرة بإن المؤكدة: إِنَّهُ كانَ مَنْصُوراً تأكيدا للوقوع و مزيدا من التطمين لخاطر صاحب النفس الملتاعة المتأثرة.

* و تنتقل الآيات إلى مبـدأ ثامن، هو الرأفـة باليتيم، و النظر فى ماله بالحفظ و الصـيانة. و هو مبـدأ يهتم به القرآن اهتماما كبيرا، لما له من آثار خطيرة فى المجتمع سلبا و إيجابا، إذ التفريط من أسوأ مظاهر الظلم و الخيانة.

و فى ذلـك يقول اللّه عزّ و جـلّ: وَ لا تَقْرَبُوا مـالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِى هِىَ أَحْسَنُ حَتَّى يَبْلُغَ أَشُدَّهُ. و إنمـا اقتضت المبالغـة فى النهى هـذا الأسـلوب، لأن أكـل مـال اليتيم له هو الآخر، كالزنا، أسباب و ذرائع، إذا تهاون وليّ اليتيم بالوقوع فيها يوشك أن يقع من ورائها فى أصل المنهى عنه.

و اسـتثنى من عموم النهى أن يعالج له ماله بالحفظ و الاسـتثمار و التجارة التى لا مغامرة فيها، و عبّر عن مثل هذه المعالجات المحمودة بقوله: إلا بالتى هى أحسن من الابتعاد و الترك.

و ختم هـذا الأمر، بتـذكير وليّ اليتيم بالعهـد الـذى قام بينه و بين والـده، و بأن عليه الوفاء بالعهـد الـذى أخـذه على نفسه. و يقول بعد ذلك: إن العهد كان مسئولا، أى إن العهد سيسأل عمّا قد فعل به من حفظ أو ضياع له.

أخرج العهـد فى صورة إنسان تجسـدت فيه الأمانـة و كلمـة الشـرف ليوجّه إليه الخطاب و السؤال، و ذلك تأكيـدا للعدالة الإلهية التى تراقب أعمال الناس و معاملاتهم لبعض، و تحسـيدا لدقة محاسـبة كلّ على ما قد فعل. و أسلوب الآية فى هذا جار على غرار قوله عزّ و جلّ: وَ إِذَا الْمَوْؤُدَةُ سُئِلَتْ بِأَىِّ ذَنْبٍ قُتِلَتْ.

من روائع القرآن، ص: ۲۶۵

* و مع الحـديث عن الأمانـة و ضـرورة الوفاء بالعهـد يوصـى اللّه عزّ و جلّ بمبـدإ تاسع، هو من أهم ما يتعلق بالأمانة و العهد فيقول: وَ أَوْفُوا الْكَيْلَ إِذا كِلْتُمْ وَ زِنُوا بِالْقِسْطاسِ الْمُسْتَقِيمِ ذلِكَ خَيْرٌ وَ أَحْسَنُ تَأْوِيلًا أى أتموا الكيل و لا تخسروه، حينما تريـدون أن تكيلوا للمشترين، فالخطاب هنا للبائعين، إذ هم الذين يكيلون، أما المشترى فإنما هو يكتال، أى يطلب أن يكال له.

و من أجل ذلك قيّد الأمر بالوفاء عنـد إرادة الكيل، إذ الكائل هو الـذى تراوده نفسه بخسـران الكيل. ثم أمر بنحو ذلك عنـد التعامل بالوزن، و لما كانت طريقة الوزن مختلفة عن طريقة الكيل خالف فى التعبير عن الوفاء بكلّ منهما.

و علّل هـذا الأمر بأنه أفضل للبائع، و بأنه أحسن عاقبة. و إنما قال ذلك ليزيل الوهم العالق بأذهان البعض من أن الظاهر المحسوس أن التلاعب بالكيل و الوزن خير للبائع إذ هو يزيد فى دخله و ربحه. فكأنه يقول: إنه و إن خيّل إليكم ذلك فى أول الأمر فإن العاقبة تأتى بعكس ما تتخيلون، إذ كل ذلك سرعان ما يتبدد و ينمحق، عند ما يعلم شأن هذا المحتال و عادته بين الناس.

* و يـأتى المبـدأ العاشـر نهيـا و تحـذيرا عن اتّبـاع أو تبنّى مـا لم تعلم حقيقته من الأمـور. و هـو مبـدأ ذو علاقـة كـبرى بتربيـة الفرد و المجتمع، و إليه يعود الأمر فى معالجة معظم المشاكل و القضايا التى يشكو منها الباحثون و المفكرون فى كل عهد و ظرف.

و لكن انظر إلى الأسـلوب الـذى أخرج به البيـان الإلـهى هـذا المعنى: وَ لا تَقْفُ ما لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ. إِنَّ السَّمْعَ وَ الْبَصَرَ وَ الْفُؤادَ كُلُّ أُولئِكَ كانَ عَنْهُ مَسْؤُلًا و تقف بمعنى تتبع من قفا أثره أى اتّبعه. فهو يقول: (لا تكن فى اتباعك لما لا تعلم حقيقته من عقيـدة أو قول أو فعل مثل من يتبع سبيلا مجهولا لا يـدرى إلى م سيوصـله. فهو يشـبّه المجهول الذى يسارع فيه الإنسان دون علم حقيقى به، بالطريق التائهة التى لا يدرى نهايتها إذ يقتحمها السالك ظانّا بمجرد وهمه أنه سيصل منه إلى بعض ما يبتغيه.

ثم يعلّـل هـذا النهى الخطير، بـأن كلّا من السـمع و البصـر و العقل إنما هو أمانـة اسـتودعتها أيّها الإنسان لتسـتعملها فى درك الأمور و التحقّق منها قبل

من روائع القرآن، ص: ۲۶۶

الخوض فيها، و لا جرم أنك ستسأل عن هذه الأمانة و ستحاسب على تضييعها و عدم استرشادك بها.

ثم إن الجملة فى دلالتها على هذا المعنى تحتمل أحد تأويلين:

الأول: أن السمع و البصر و الفؤاد كلّ أولئك كان مسئولا عن نفسه يوم القيامة، فاسم كان ضمير عائد إلى كلّ من السمع و البصر و الفؤاد. و الآية على هذا التأويل جارية على غرار ما قلناه فى: إِنَّ الْعَهْدَ كانَ مَسْؤُلًا و إِذَا الْمَوْؤُدَةُ سُئِلَتْ و قد علمت المعنى البلاغى فيه.

الثانى: أن السمع و البصر و الفؤاد كل أولئك كان عنه مسئولا فاسم كان على هذا ضمير عائد على الإنسان، و المعنى فيه واضح.

و قد نزّل اللّه عزّ و جلّ هذه الأعضاء الثلاثة منزلة العقلاء، بسبب أن قوام عقل الإنسان و فكره بها، فمن أجل ذلك أشار إليها بما يشار به إلى العاقل و هو: أولئك.

* و المبدأ الأخير مبدأ أخلاقى ذو اتصال مباشر بالذى قبله، بل بينهما تلازم فى السلب و الإيجاب، و هو تحذير الإنسان من أن يسلم نفسه للغرور الذى ينسيه حقيقة ذاته فيتعاظم و يتكبر ... و كلّ ما حوله من الناس و المخلوقات مما لا موجب للتعاظم عليه. و انظر ما يقول الخطاب الإلهى فى ذلك: وَ لا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحاً إِنَّكَ لَنْ تَخْرِقَ الْأَرْضَ وَ لَنْ تَبْلُغَ الْجِبالَ طُولًا و الآية كما ترى تفيض بالصور المختلفة التى تسخر من هذا الذى يمشى متكبرا على الأرض.

فمن ذلك أنه قيد المشى بالأرض، و هو شىء معلوم، إشعارا بأن هذا الذى يمشى على الأرض لا يليق بحاله أن يتكبر من فوقها.

و من ذلك أنه أخبر بما هو معلوم، و هو قوله: إنك لن تخرق الأرض.

تنزيلا- للمتكبّر المتجبّر منزلة من غابت عنه هذه الحقيقة الواضحة، فهو يحتاج إلى من ينبهه إليها! و من ذلك هذه الصورة الساخرة التى تتركها الجملة فى الذهن: إنك لن

من روائع القرآن، ص: ۲۶۷

تخرق الأرض و لن تبلغ الجبال طولا- إنها تصوّر لك ما يفعله المتعاظم فى سيره إذ يضرب بقدمه الأرض كأنه يفاخرها و يشعرها بشأنه، و يرفع رأسه متطاولا كأنما يريد أن يطاول بهامته ذرى الجبال مع أنه هو هو، ذلك المخلوق الضعيف الذى لن يخرق أرضا و لن يطاول جبلا.

و بعد أن انتهى الحديث عن تفصيل هذه المبادئ الهامة فى حياة الإنسان، عاد الخطاب الإلهى إلى رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم مشيرا إلى كل هذه المبادئ قائلا: ذلك ما أوحى إليك ربك من الحكمة، أى من معرفة الحق؛ فالحكمة، هى اكتشاف الحق الذى قد يخفى على غير ذى البصيرة. و كان الخطاب من قبل ذلك متجها إلى الإنسان عموما، فمرة يخاطبه بصيغة الجماعة كما فى قوله: وَ لا تَقْرَبُوا مالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ، و مرة يخاطب فيه الفرد المتكرر كما فى قوله: وَ لا تَقْفُ ما لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ ..

ثم يختم هذه المبادئ بما قد بدأ به، و هو مبدأ الإيمان باللّه عزّ و جلّ و وحدانيته قائلا: و لا تجعل مع اللّه إلها آخر فتلقى فى جهنم ملوما مدحورا، إشعارا بأن ملاك هذه المبادئ كلها و ضمان تطبيقها الوحيد هو الإيمان باللّه عزّ و جلّ إيمانا صادقا. فما لم يوجد الإيمان به فإن هذه المبادئ لن تنفذ كما ينبغى مهما آمن الناس بأنها حق لا مرية فيه. إذ إن مجرد الإيمان بالفضيلة لا يكفى دافعا إلى التمسك بها و كم فى الناس من يؤمن بأن الحق حق و مع ذلك فهو لا- يقوى على تنفيذه، و يؤمن بأن الباطل باطل و مع ذلك لا يستطيع التخلّص من ظلّه:

و اللّه سبحانه أعلم.

***

من روائع القرآن، ص: ۲۶۸

فى القصص (من سورة هود، من آية: ۳۵ إلى آية: ۴۹)

Point

قال اللّه تعالى:

وَ أُوحِيَ إِلى نُوحٍ أَنَّهُ لَنْ يُؤْمِنَ مِنْ قَوْمِكَ إِلَّا مَنْ قَدْ آمَنَ فَلا تَبْتَئِسْ بِما كانُوا يَفْعَلُونَ. وَ اصْنَعِ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنا وَ وَحْيِنا وَ لا تُخاطِبْنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا إِنَّهُمْ مُغْرَقُونَ. وَ يَصْنَعُ الْفُلْكَ وَ كُلَّما مَرَّ عَلَيْهِ مَلَأٌ مِنْ قَوْمِهِ سَخِرُوا مِنْهُ قالَ إِنْ تَسْخَرُوا مِنَّا فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنْكُمْ كَما تَسْخَرُونَ، فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَنْ يَأْتِيهِ عَذابٌ يُخْزِيهِ وَ يَحِلُّ عَلَيْهِ عَذابٌ مُقِيمٌ. حَتَّى إِذا جاءَ أَمْرُنا وَ فارَ التَّنُّورُ قُلْنَا احْمِلْ فِيها مِنْ كُلٍّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ وَ أَهْلَكَ إِلَّا مَنْ سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ وَ مَنْ آمَنَ وَ ما آمَنَ مَعَهُ إِلَّا قَلِيلٌ. وَ قالَ ارْكَبُوا فِيها بِسْمِ اللَّهِ مَجْراها وَ مُرْساها إِنَّ رَبِّي لَغَفُورٌ رَحِيمٌ. وَ هِيَ تَجْرِي بِهِمْ فِي مَوْجٍ كَالْجِبالِ وَ نادى نُوحٌ ابْنَهُ وَ كانَ فِي مَعْزِلٍ يا بُنَيَّ ارْكَبْ مَعَنا وَ لا تَكُنْ مَعَ الْكافِرِينَ. قالَ سَآوِي إِلى جَبَلٍ يَعْصِمُنِي مِنَ الْماءِ قالَ لا عاصِمَ الْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ إِلَّا مَنْ رَحِمَ وَ حالَ بَيْنَهُمَا الْمَوْجُ فَكانَ مِنَ الْمُغْرَقِينَ. وَ قِيلَ يا أَرْضُ ابْلَعِي ماءَكِ وَ يا سَماءُ أَقْلِعِي وَ غِيضَ الْماءُ وَ قُضِيَ الْأَمْرُ وَ اسْتَوَتْ عَلَى الْجُودِيِّ وَ قِيلَ بُعْداً لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ. وَ نادى نُوحٌ رَبَّهُ فَقالَ رَبِّ إِنَّ ابْنِي مِنْ أَهْلِي وَ إِنَّ وَعْدَكَ الْحَقُّ وَ أَنْتَ أَحْكَمُ الْحاكِمِينَ. قالَ يا نُوحُ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صالِحٍ فَلا تَسْئَلْنِ ما لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنِّي أَعِظُكَ أَنْ تَكُونَ مِنَ الْجاهِلِينَ. قالَ رَبِّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَسْئَلَكَ ما لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ وَ إِلَّا تَغْفِرْ لِي وَ تَرْحَمْنِي أَكُنْ مِنَ الْخاسِرِينَ. قِيلَ يا نُوحُ اهْبِطْ بِسَلامٍ مِنَّا وَ بَرَكاتٍ عَلَيْكَ وَ عَلى أُمَمٍ مِمَّنْ مَعَكَ وَ أُمَمٌ سَنُمَتِّعُهُمْ ثُمَّ يَمَسُّهُمْ مِنَّا عَذابٌ أَلِيمٌ. تِلْكَ مِنْ أَنْباءِ الْغَيْبِ

من روائع القرآن، ص: ۲۶۹

نُوحِيها إِلَيْكَ ما كُنْتَ تَعْلَمُها أَنْتَ وَ لا قَوْمُكَ مِنْ قَبْلِ هذا فَاصْبِرْ إِنَّ الْعاقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ.

*** تعريف عام بالآيات:

هذه الآيات تمثل مشاهد من قصة نوح عليه السلام مع قومه، و إنما تركنا المشهد الأول منها فقط، و هو الذى يصوّر فيه البيان القرآنى الحوار الذى كان بين نوح و قومه و أسلوبه فى دعوتهم إلى اللّه عزّ و جلّ. و إذا تأملت هذه الآيات التى نقلناها لك وجدتها تتألف من خمسة مشاهد- و القصة القرآنية كما قد علمت تضع أمامك مشاهد من صورها، أكثر من أن تخبرك بمعان من أحداثها.

تجد فى المشهد الأول مظهر الغضب الإلهى على قوم نوح بعد أن طالت دعوتهم إلى الإيمان باللّه دون جدوى كما تجد فيه أمر نوح بأن ينصرف إلى إعداد سفينة.

و تجد فى المشهد الثانى صورة من سخرية قومه به و هو عاكف على صنع السفينة.

و تجد فى المشهد الثالث صورة من أحداث الطوفان و كيف أخذت السفينة تمخر بالمؤمنين من عباد اللّه جبالا من الأمواج.

و تبصر فى المشهد الرابع سكون الغضب و اختفاء الماء و هدوء الدنيا و عودة كل شىء إلى ما كان.

أما المشهد الخامس و الأخير فتبصر فيه مناجاة نوح لربه بشأن ابنه ثم هبوط الناس إلى دنيا أعمالهم و عيشهم مرة أخرى.

هذا تعريف سريع بالآيات و محتواها و موقعها مما قبلها. أما تفصيل ذلك ففيما يلى:

من روائع القرآن، ص: ۲۷۰

شرح الآيات:

* تضعنا الآيتان الأوليان أمام أول مشهد من الأحداث العظيمة فى هذه القصة، و ذلك بعد أن مرّ دهر طويل على نوح و هو يدعو قومه إلى اللّه و يناشدهم الانصياع إلى منطق العقل و وحى الضمير، دون جدوى: وَ أُوحِيَ إِلى نُوحٍ أَنَّهُ لَنْ يُؤْمِنَ مِنْ قَوْمِكَ إِلَّا مَنْ قَدْ آمَنَ فَلا تَبْتَئِسْ بِما كانُوا يَفْعَلُونَ فقد أخبر اللّه إذا أنه لا مطمع فى إسلام أحد من قومه بعد اليوم، فلينفض يده من الاهتمام بشأنهم، و لا يحزن عليهم بما يظلمون عاكفين عليه من غواية و ضلال.

و ليس هذا فقط، بل إن عليه أن ينصرف عن دعوتهم بعد اليوم، و عليه أن يشرع فى صنع سفينة! ...

و لكن كيف يصنع السفينة و هو لم يمارس هذا العمل من قبل، و كيف يتأتى أن يفعل ذلك باطمئنان و فى سلام، و إن قومه الذين لم ينفكوا يؤذونه سيفسدون عليه عمله؟!.

و الجواب تراه فى قوله عزّ و جلّ: وَ اصْنَعِ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنا وَ وَحْيِنا أى اصنعه و لا تبال بسخرية قومك، فإنما ستصنعه متلبسا برعايتنا و حفظنا؛ و لا تؤرق الفكر فى مشكلة جهلك بصنعه، فإنما ستصنعه من وراء وحينا و إلهامنا.

و يختم الوحى الإلهى خطابه لنوح بقوله عزّ و جلّ: وَ لا تُخاطِبْنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا إِنَّهُمْ مُغْرَقُونَ لا تكلمنى فى شأنهم باسترحام و دعاء بعد اليوم.

فقد قضى الأمر بإغراقهم و سينفذ قضاء اللّه فيهم وشيكا. و لبيان ضرورة نفاذ هذا القضاء عبّر بصيغة الماضى: إنهم مغرقون.

* و ينطوى هذا المشهد، ليظهر من ورائه مشهد آخر، تبصر فيه نوحا عليه السلام و هو منهمك فى صنع الفلك و إعدادها. و انظر كيف يصوّر البيان القرآنى هذه الصورة فى قوله عزّ و جلّ: وَ يَصْنَعُ الْفُلْكَ ... هكذا، بصيغة المضارع الحاضر، إحياء للصورة فى الذهن و تحضيرا للمشهد أمام المخيلة.

ثم نبصر فى هذا المشهد قوم نوح و هم يمرون، جماعة إثر أخرى،

من روائع القرآن، ص: ۲۷۱

يضجّون سخرية به و بعمله الجديد هذا. و لك أن تتصور ما شئت من مظاهر السخرية و أقاويلها، فالقرآن ترك تصوّر ذلك لخيالك، و تأمل فى ذلك قوله عزّ و جلّ: وَ كُلَّما مَرَّ عَلَيْهِ مَلَأٌ مِنْ قَوْمِهِ سَخِرُوا مِنْهُ جملة حالية تصور لك الأمر مستمرا متكررا؛ ذلك أنهم رأوه فى عمله هذا مادة جديدة هائلة للسخرية، خصوصا و إنه يقوم بهذا العمل فى مكان لا حاجة و لا محل فيه للسفن إذ كانت القصة ما بين بلاد الشام و العراق؛ فهم كلما مرّوا به وقفوا عنده يسخرون منه. و لكنه لم يكن يزيد فى جوابه لهم على أن يقول- و هو منكبّ على عمله-.

إن تسخروا منّا فإنّا نسخر منكم كما تسخرون، أى سوف تجدون عاقبة سخريتكم هذه بلاء يتلبس بكم.

ثم يقول: مؤكدا المعنى المقصود بقوله، فإنّا نسخر منكم: فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَنْ يَأْتِيهِ عَذابٌ يُخْزِيهِ وَ يَحِلُّ عَلَيْهِ عَذابٌ مُقِيمٌ أى فسوف ينكشف لكم الحجاب عن الفريق الذى يفجؤه عذاب يخزيه فى الدنيا ثم ينزل به عذاب لا ينفك عنه فى الآخرة. و لك أن تعتبر «من» فى الجملة موصولة فى محل نصب مفعولا- لتعلمون، و لك أن تعتبرها استفهاما سدّت مع خبرها الذى بعدها مسدّ مفعول تعلمون.

* و يطوى هذا المشهد أيضا، و تمرّ أحداث لا تتكلم عنها الآيات و لا تعرّج عليها، اعتمادا على سير المخيلة و الفكر؛ فقد انتهى صنع السفينة و فرغ نوح منها و لبث ينتظر الميعاد الذى لن يتخلف لحظة واحدة عن أجله المحتوم، حيث يظهر المشهد الرابع مع قوله تعالى: حَتَّى إِذا جاءَ أَمْرُنا وَ فارَ التَّنُّورُ قُلْنَا احْمِلْ فِيها مِنْ كُلٍّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ ... الآية.

ف حَتَّى هذه، تشير كما ترى إلى الأحداث المطوية بين المشهدين، أى و ظل نوح عاكفا على صنع السفينة و مرّ زمان على ذلك، حتى جاء الميقات المحدد فى علم اللّه، و فار التنور.

و التنور معروف، و الماء لم ينبع من التنور وحده بل فاض من أنحاء الأرض كلها، و لكنه إنما اكتفى بالنص عليه وحده، إشعارا بالغاية و دلالة على

من روائع القرآن، ص: ۲۷۲

الماء إذا كان قد فار من منبع النار، و هو التنور فلأن يفور و يفيض من عامة الأماكن الأخرى أحرى و أجدر.

فعند ما تفجرت الأرض بالمياه أوحى اللّه إلى نوح أن يحمل فى السفينة من كل صنف من أصناف الحيوانات زوجين اثنين، أى ذكرا و أنثى، و العرب تسمى كل واحد من اثنين لا يستغنيان عن بعض زوجا يقولون: زوجا نعل و زوجا حمام.

كما أوحى إليه أن يحمل فيها أفراد أهله، إلا من سبق فى علم اللّه استمراره على الضلال منهم، و هو ابنه و امرأته، و أن يحمل فيها عامّة المؤمنين به، و يلتفت البيان القرآنى هنا، عن سياق القصة ليخبر قائلا- و ما آمن معه إلا قليل، و فى هذا الالتفات دلالة مؤثرة دقيقة يشعر بها الحسّ و تتأثر لها النفس و يحزن لها القلب! ...

و أقبل نوح إلى أهله و المؤمنين من قومه يقول لهم: اركبوا فيها متّكلين على اللّه الذى آمنتم به، و لا يهمّنكم كيفية سوقها الذى ليس فيكم من يتقنه و لا سبيل اتجاهها و رسّوها الذى لا تعرفونه، فإن السائق و الموجّه هو اللّه، بأمره تجرى و بأمره سترسو.

فاركبوا فيها، جملة مستقلة؛ و باسم اللّه مجريها، جملة مستقلة أخرى من مبتدأ متأخر و خبر مقدم.

و لا- شأن للبيان القرآنى بوصف كيفية الركوب أو كيفية تلافى الحيوانات المختلفة، فمجرى القصة القرآنية كما يريده القرآن لا غرض له بشىء من ذلك. و على كلّ فقد تمّ ما أراده اللّه. و ركب المؤمنون فى السفينة و تلاقى فيها من كل صنف من الحيوانات المختلفة زوجان اثنان، و جرى الفلك يمخر عباب بحر لا عهد للبشرية به.

و يصف البيان الإلهى هذا المشهد بقوله: وَ هِيَ تَجْرِي بِهِمْ فِي مَوْجٍ كَالْجِبالِ و تأمل كيف صوّر تلك الأمواج التى هى من العلو و الضخامة كالجبال، فى صورة طريق تجرى فيه السفينة. و فى هذا بيان لمدى طغيان الماء

من روائع القرآن، ص: ۲۷۳

على الأرض و بيان لمدى تغلّب السفينة بحفظ اللّه من ذلك الطغيان الهائل!.

و لنتأمل الآن فى هذا المشهد المؤثر: نوح على ظهر السفينة، و ابنه فى خارجها بعيدا عنه، و قد اعتلجت رحمة الأبوّة فى قلب الوالد الذى يريد لابنه الخير و النجاة، فناداه من بعيد: يا بنى اركب معنا و لا تكن مع الكافرين.

و يجيبه الابن من معزله البعيد غير مبال بتأثر الوالد و شفقته: سآوى إلى جبل يعصمنى من الماء أى سأعتصم من الطبيعة بالطبيعة، و مهما كان من طغيان الماء فإن فى طبيعة الجبال أعظم معتصم منها! ... و ذلك هو منطق الإلحاد، لا يبصّر صاحبه مما هو أمامه إلا وراء أرنبة أنفه.

و يصور القرآن ردّ الوالد عليه فى جملة فيها الأسى و الحزن، و فيها منطق الإيمان يردّ على غرور الجحود و الإلحاد: لا عاصم اليوم من أمر اللّه إلا من رحم. لم يقل لا عاصم اليوم من الماء؛ على نحو ما قاله ابنه، إشعارا بأن المشكلة ليست مشكلة ماء. إنها مشكلة أمر اللّه عزّ و جلّ خالق كل شىء و المسيّر لكل شىء، فهيهات أن تجد معتصما من أمر اللّه فى جبل أو أرض أو سماء، اللهمّ إلا من رحمه اللّه بهدايته، فمعتصمه هو رحمة اللّه فقط، فإلّا فى قوله:

إِلَّا مَنْ رَحِمَ بمعنى لكن، أى لكن من رحمه اللّه فهو معصوم برحمته.

و يسدل البيان الإلهى ستارا على هذا الحوار بين منطق الإيمان و غرور الإلحاد، إذ يقول بعد ذلك: و حال بينهما الموج فكان من المغرقين.

و لكأنى أرى فى هذه الجملة الرهيبة صواعق من مظهر الغضب الإلهى و هى تنقض على الجهل المتعالم و الغرور المتطاول تسحقه فإذا هو أثر بعد عين.

إن الجملة لتقول بأبين دلالة: ما كاد هذا المسكين يتم النطق بكلامه المغرور و ما كاد يطرف ببصره بحثا عن الجبل الذى سيعتصم فيه، حتى أسرعت إليه موجة فالتقمته، و كأن لم يكن!.

* و فى غمرة هذه الأحداث التى تصورها الآيات، و بين صخب الأمواج التى تنحسر و تمتد فى بحر هى الأرض كلها- ينطوى هذا المشهد فجأة، لترى من ورائه مباشرة عودة الهدوء إلى الدنيا و رجوع كل شىء إلى نظامه السابق؛

من روائع القرآن، ص: ۲۷۴

فقد هدأت الزمجرة، و سكنت العاصفة و ولدت الدنيا كما كانت من جديد.

و تعال فلنتأمل فى اللوحة الإلهية التى رسمت هذا المشهد: وَ قِيلَ يا أَرْضُ ابْلَعِي ماءَكِ وَ يا سَماءُ أَقْلِعِي؛ وَ غِيضَ الْماءُ، وَ قُضِيَ الْأَمْرُ، وَ اسْتَوَتْ عَلَى الْجُودِيِّ، وَ قِيلَ بُعْداً لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ.

إن هذه الجمل القرآنية العجيبة، تصور لك هذا الكون الهائل الفسيح من سماء و أرض و بحار و جبال فى صورة أنموذج من القطع المركبة إلى بعضها مما يوضع بين يدى الأطفال، جاءت يد إنسان فنثرتها و فصلت أجزاءها، ثم ما هو إلا أن عاد فركّبها إلى بعضها كما كانت فى أسرع وقت.

و هى تصوّر لك معنى الإرادة الإلهية و سلطانها الرهيب المنبسط على الكون كله بل القابض عليه كله، و تتصرف به كما تشاء ليس فى حسابها أى معنى لكبير و صغير أو لعظيم و حقير. أ لا ترى كيف علّقت الآية رجوع كل شىء إلى ما كان عليه بعد أن التقت مياه السماء و الأرض على طوفان هائل مخيف- على كلمة صغيرة هى: وَ قِيلَ لتصوّر لك سهولة الأمر و أنه لا يحتاج إلا لهذا الأمر الإلهى الذى به قيام الدنيا و زوالها.

ثم انظر إلى دقائق التعبير المصوّر:

وَ قِيلَ يا أَرْضُ ابْلَعِي ماءَكِ أ رأيت أنه لم يقل: جففى ماءك، مثلا، مع أنه هو التعبير المتفق مع طبيعة الأرض و شأنها، و إنما قال: ابلعى ماءك، ليصوّر لك بأن الأرض لما اتجهت إليها إرادة العزيز الخبير انقلبت مسامها و شقوقها إلى أفواه فاغرة تبتلع بها المياه ابتلاعا! فهى لم تنفّذ الأمر بالطبيعة المألوفة لها و إنما بالانقياد لأمر خالقها جلّ جلاله.

وَ يا سَماءُ أَقْلِعِي و أنت إذا تأملت فى كلمة اقلعى- و هى بمعنى كفّى و أمسكى- تصورت كم كانت منفتحة على مياه تنصبّ إلى الأرض و حسبك أن تتأمل الآية الأخرى فى وصف ذلك: و فتحنا أبواب السماء بماء منهمر، لتتصور هول تلك المياه المنهمرة من أبواب السماء.

ثم انظر كيف أسند الخطاب إلى كلّ من السماء و الأرض مع أنهما مخلوقان

من روائع القرآن، ص: ۲۷۵

جامدان، ليصور لك سرعة استجابتهما لأمر اللّه عزّ و جلّ حتى كأنهما منقادتان بسماع الأمر و فهم الخطاب.

وَ غِيضَ الْماءُ، وَ قُضِيَ الْأَمْرُ، وَ اسْتَوَتْ عَلَى الْجُودِيِ. ثلاث جمل فيها مظهر الاستجابة السريعة لأمر اللّه، فقد غيض الماض أى فلم يبق إلا ما كان على وجهه من قبل. و قضى الأمر فهلك أولئك الكافرون و الجاحدون و نفذ فيهم حكم اللّه عزّ و جلّ، و ها هى السفينة قد رست على جبل الجودى «۱».

وَ قِيلَ بُعْداً لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ. و هو قيل ينطق به حال الكون كله بعد انقشاع الغمّة و زوال المصيبة، فقد فتح الكون عينه ليرى كيف ذهب أولئك الظالمون فى تلافيفها و مضوا مع مضيّها، فقال بلسان الحال: بعدا لقوم الظالمين، أى ليزدادوا ابتعادا و هلاكا، و ما ظلمهم أحد و لكنهم كانوا هم الظالمين.

* و التقط المؤمنون أنفاسهم بعد انقشاع البلاء، و أخذوا- و قد استقرت السفينة بهم هادئة فوق الجودى- يتأملون معتبرين، و تذكّر نوح ابنه، و تمنى لو كان فيمن سلمهم اللّه من هذه الطامّة، و تذكّر وعد اللّه إيّاه بإنجاء أهله فرفع رأسه يقول فى ضراعة و أدب:

رَبِّ إِنَّ ابْنِي مِنْ أَهْلِي وَ إِنَّ وَعْدَكَ الْحَقُّ وَ أَنْتَ أَحْكَمُ الْحاكِمِينَ.

أسلوب فى غاية الأدب، إنه يسأل و لكن سؤالا مطويا ضمن ما يقرره من وصف العدالة و الحكمة الباهرة للّه جلّ جلاله، أى فلما ذا لم يكن من الناجين و قد وعدتنى- و وعدك الحق- بأن يكون أهلى فى المرحومين من ذلك البلاء؟

و جاءه الجواب وحيا من اللّه عزّ و جلّ: يا نوح إنه ليس من أهلك، إنه عمل غير صالح.

أى إنه ليس داخلا فى أهلك أصلا، لأن مدار إكرام قرابتك إنما هو على الإيمان الذى هو الأصل و السبب فى إكرامهم، فإذا انتفى الإيمان الذى هو

(۱) هو جبل فى شمالى العراق داخل فى الحدود التركية.

من روائع القرآن، ص: ۲۷۶

الأصل لم يبق أثر للأهل الذى هو الفرع.

أو يكون المعنى: إنه ليس داخلا فى أهله الذين وعد اللّه بنجاتهم، إذ هو خارج عنهم باستثناء إلا من سبق عليه القول.

ثم علّل نفى الأهلية عنه بجملة استئنافية ليكون فيها معنى التعليل و الإخبار معا فقال: إنه عمل غير صالح، أى إنه ذو عمل غير صالح، و إنما أخبر عنه بالعمل نفسه، مبالغة فى إلصاق السوء به و لبيان أن العمل السيئ لم يكن يفارقه.

و إذ قد وقفت على جليّة الأمر فلا تسألن سؤال طلب ما ليس لك به علم، أى لا تطلب منى شيئا لا تعلم أن الحكمة متفقة معه أم لا، فليس كل ما يظهر لك هو وحده الحقيقة.

إنى أعظك أن تكون من الجاهلين، أى أنهاك عن مثل هذا و أحذرك لئلا تكون من الجاهلين، أو كراهية أن تكون من الجاهلين.

و أمام جواب اللّه لنوح عليه السلام وقف متذللا لحكمه و قضائه ملتزما حدود العبودية و الرضى قائلا: ربّ إنى أعوذ بك أن أسألك ما ليس لى به علم، و إلا تغفر لى و ترحمنى أكن من الجاهلين. و أنت ترى كأنه ذنب عظيم ذاك الذى فعله نوح بسؤاله فهو يستغفر و يتوب منه، و ما هو بذنب فى الحقيقة و لكنه رتبة المقرّبين تقتضيهم مزيدا من الرهبة و الإجلال و هذا هو شأنهما فى النفس.

و الآن ... و قد هيّئت الأرض مرة أخرى للعيش فوقها و عادت أسباب الرزق و الكدح من فوقها كما كانت من قبل، فليهبط نوح و من معه من الشاهق الذى أرستهم السفينة عليه إلى الأرض سالمين مطمئنين ينعمون بخيراتها و ثمارها، يشترك فى ذلك الصالح و الطالح إلى أن يأتيهم ميقات يوم معلوم، ففيه يلاقى كلّ جزاءه و أجره. و انظر إلى البيان القرآنى كيف يقرر هذا المعنى:

قِيلَ يا نُوحُ اهْبِطْ بِسَلامٍ مِنَّا وَ بَرَكاتٍ عَلَيْكَ وَ عَلى أُمَمٍ مِمَّنْ مَعَكَ وَ أُمَمٌ سَنُمَتِّعُهُمْ ثُمَّ يَمَسُّهُمْ مِنَّا عَذابٌ أَلِيمٌ.

و إنما قال: و على أممٍ ممّن معك و لم يقل: و على من معك، لأن الحديث

من روائع القرآن، ص: ۲۷۷

ليس عن الذين كانوا مع نوح وحدهم، و إنما الحديث عنهم و عن الذين سيتكاثرون من ذريّاتهم، و إن فيهم المؤمن و غيره، فخصّ السلام و البركة بالبعض و هم المؤمنون. و ليس الذى يلقاه الكافرون أيضا من أسباب العيش و الخير سلاما و بركة فى الاصطلاح الإلهى، و إنما هو «تمتيع» أى ترك و إمهال مؤقت، حيث ستطوى الحياة عمّا قريب و يقبل الكل إلى الرحمن عبادا صاغرين، فهنالك يقام الحساب و الميزان للجميع.

***

من روائع القرآن، ص: ۲۷۸

فى الحجاج و النّقاش (من سورة النمل من آية: ۵۹ إلى آية: ۶۶)

اشارة

قال اللّه تعالى:

قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ وَ سَلامٌ عَلى عِبادِهِ الَّذِينَ اصْطَفى، آللَّهُ خَيْرٌ أَمَّا يُشْرِكُونَ* أَمَّنْ خَلَقَ السَّماواتِ وَ الْأَرْضَ وَ أَنْزَلَ لَكُمْ مِنَ السَّماءِ ماءً فَأَنْبَتْنا بِهِ حَدائِقَ ذاتَ بَهْجَةٍ ما كانَ لَكُمْ أَنْ تُنْبِتُوا شَجَرَها أَ إِلهٌ مَعَ اللَّهِ بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ* أَمَّنْ جَعَلَ الْأَرْضَ قَراراً وَ جَعَلَ خِلالَها أَنْهاراً وَ جَعَلَ لَها رَواسِيَ وَ جَعَلَ بَيْنَ الْبَحْرَيْنِ حاجِزاً أَ إِلهٌ مَعَ اللَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لا يَعْلَمُونَ* أَمَّنْ يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذا دَعاهُ وَ يَكْشِفُ السُّوءَ وَ

يَجْعَلُكُمْ خُلَفاءَ الْأَرْضِ، أَ إِلهٌ مَعَ اللَّهِ، قَلِيلًا ما تَذَكَّرُونَ* أَمَّنْ يَهْدِيكُمْ فِي ظُلُماتِ الْبَرِّ وَ الْبَحْرِ وَ مَنْ يُرْسِلُ الرِّياحَ بُشْراً بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ أَ إِلهٌ مَعَ اللَّهِ، تَعالَى اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ* أَمَّنْ يَبْدَؤُا الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّماءِ وَ الْأَرْضِ، أَ إِلهٌ مَعَ اللَّهِ، قُلْ هاتُوا بُرْهانَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صادِقِينَ. قُلْ لا يَعْلَمُ مَنْ فِي السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ الْغَيْبَ إِلَّا اللَّهُ وَ ما يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ. بَلِ ادَّارَكَ عِلْمُهُمْ فِي الْآخِرَةِ بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ مِنْها، بَلْ هُمْ مِنْها عَمُونَ.

تعريف عام بالآيات:

تأتى هذه الآيات بعد عرض مفصّل لقصص بعض الأمم السابقة مع أنبيائهم الذين بعثوا إليهم و كيفية إهلاك اللّه لتلك الأمم بسبب عتوّهم و طغيانهم فى الأرض.

و لما كان فى هذه القصص عبرة لأمة محمد صلّى اللّه عليه و سلّم و فيها الدليل على

من روائع القرآن، ص: ۲۷۹

وحدانية اللّه تعالى و وجوده و الرد على الباطل الذى يتمسك به الكافرون و الجاحدون- عقب اللّه عليها بالالتفات إلى هؤلاء الكافرين يستنهض عقولهم للعبرة و التأمل، و يناقشهم فى باطلهم الذى يحتضنونه، بمختلف البراهين و الأدلة القاطعة التى يرونها من حولهم.

و الآيات تعرض أربعة أصناف من الأدلة تناقش الكافرين على أساسها:

الصنف الأول: أدلة تتعلق بمجموع الكون بما فيه من سماوات و أرض.

الثانى: أدلة تتعلق بكثير من خصائص الأرض و سماتها التى يبصرونها بأعينهم أو عقولهم.

الثالث: أدلة هامة تتعلق بذواتهم و أنفسهم و النعم الحاصلة لهم.

الرابع: دليل النشأة الأولى، و ما يستلزمه من دليل الإعادة بعد الموت.

و كما ترى، فإن أسلوب النقاش و الاحتجاج على الكافرين بهذه الأدلة، قائم على أساس الاستفهام المتكرر و ما يليه من أجوبة عنهم عليها، لما فيها من تقريع و تأنيب و دفع إلى التأمل.

شرح الآيات:

- تأتى الآية الأولى فى هذا النص، فاصلة بين قصص الأنبياء السابقين التى ظلّت الآيات السابقة تعرضها من أول السورة، و ما يليها من مواجهة الكافرين بالمناقشة و المحاجّة.

و الخطاب فى هذه الآية الفاصلة موجّه إلى النبى عليه الصلاة و السلام، يأمره فيها- و قد سمع ما أخبر به عن قصص تلك الأمم التى حاق بها الهلاك و الدمار و أولئك الأنبياء الذى لاقوا من أقوامهم صنوف الإيذاء- أن يحمد اللّه عزّ و جلّ على أن خصّ أمته هذه بالرحمة و اللطف فقضى أن لا يهلكها بمثل ما أهلك به أولئك الآخرين، رغم تشابه الإعراض و الإيذاء فى كثير من الحالات، و أن يسلّم على أولئك الذين اصطفاهم اللّه لتبليغ رسالته فعذبوا و اضطهدوا و لم يمنعهم ذلك من القيام بأمر اللّه عزّ و جلّ.

من روائع القرآن، ص: ۲۸۰

ثم يأمره بعد هذا أن يتوجه إلى المشركين الذين من حوله سائلا: هل الإيمان بالإله الحقّ الذى فعل كل ما قد ذكر بالأمم السابقة أفضل أم الإيمان بما تؤلهونه من المخلوقات أيّا كانت؟ و هذا الاستفهام جار على قصد التقريع للمشركين و تسفيه آرائهم السقيمة، و إلا- فمن الواضح أنه لا- يوجد أىّ تلاق فى جنس الخيرية بين الأوثان التى يؤمنون بها و الإله الواحد جلّ جلاله، حتى يتصور معنى التفاضل و السؤال عن الأفضل منهما، فهو كما تقول لمن سلك مسالك الغواية و الشقاء: ويحك هل الشقاء خير أم السعادة؟! و لما

كانت هذه الخيرية، رغم وضوحها، خفية عن أذهان الكافرين، أو كالخفية بسبب تكبرهم و عنادهم فى الباطل الذى لا يريدون التحوّل عنه، عقّب اللّه هـذا الاستفهام بآيات تكشف عن مظاهر ألوهية اللّه عزّ و جلّ و تفرّده فى الخلق و الإبداع و التحكّم فى مقاليد الكون، ليّتضـح للمشـركين أيّهمـا خير: اللّه عزّ و جـلّ أم مـا يؤلهونه من المخلوقات أيّا كانت؛- أمّن خلق السـموات و الأرض و أنزل لكم من السماء ماء فأنبتنا به حدائق ذات بهجة ما كان لكم أن تنبتوا شجرها، أ إله مع اللّه، بل هم قوم يعدلون.

هذه أول آية من هذه الآيات التى سـيقت مساق الكشف عن بعض مظاهر ألوهية اللّه جلّ جلاله، تأتى بأسـلوب الاسـتفهام ليكون فيها معنى الاحتجاج و المناقشة و الدفع إلى التأمل و إعمال الفكر.

و أم التى فى أولها، أم المنقطعة، بمعنى بل، و هى للإضراب الانتقالى عن الكلام السابق إلى سؤال آخر: أَمَّنْ خَلَقَ السَّماواتِ وَ الْأَرْضَ وَ أَنْزَلَ لَكُمْ ... الآية.

و السـماوات هنا كل هذه الأجرام العلوية بما فيها من كواكب و غيرها، و السماء فى قوله: وَ أَنْزَلَ لَكُمْ مِنَ السَّماءِ ماءً هو جهة العلو، إذ كل ما علاك فأظلّك فهو فى اللغة سماء.

و كان من مقتضى نسق الآية أن يقول: فأنبت به حدائق، فلما ذا وقع الالتفات عن ضمير الغائب إلى ضمير المتكلم؟

من روائع القرآن، ص: ۲۸۱

إن الـذى اقتضـى ذلـك هو أن أحـدا لا- ينسب إلى نفسه خلق السـماوات و إنزال الأمطار، فحسب السؤال عن خالقهـا و منزّلها، بهـذا الأسـلوب، منبهـا إليه جـلّ جلالـه. أمـا إنبات الزرع و الأشـجار فكثيرا ما ينسـبه صاحب البـذر و السـقى إلى نفسه فيقول: أنبت الزرع و البسـتان، فناسب الالتفات به إلى ضـمير المتكلم تأكيـدا لاختصاص الإنبات بـذاته تعالى و إشـعارا بأن ظهور النبات يشق باطن الأرض بألوانه الزاهيـة و طعومه المختلفة و خصائصه المتنوعة إنما هو من فعل الخالق جلّ جلاله، و من أجل المزيد من تقرير هذه الحقيقة قال بعد ذلك:

ما كان لكم أن تنبتوا شجرها.

و جواب الاستفهام محذوف، دلّ عليه حكم العقل و الكون، على أن الذين ينتظر منه الجواب هم المخاطبون. و لقد رتّب اللّه على هذا الجواب المعلوم استفهاما آخر متفرعا عنه و مرتبطا به: أ ءله مع اللّه، أى أ ءله آخر مع اللّه جلّ جلاله.

و يتلفت الخطاب عنهم بعد ذلك، مضـربا عن حديثه معهم و سؤاله إيّاهم، ليحكى صفتهم و حالهم العجيبة للآخرين قائلا: بل هم قوم يعدلون أى كأنه يقول ملتفتا: و لكن ما الجدوى من نقاشـهم و البحث معهم؟ إنهم قوم يعدلون عن الحقّ، أو هم يعدلون باللّه غيره من الأوثان و المخلوقات!.

* أمّن جعل الأرض قرارا و جعل خلالها أنهارا و جعل لها رواسى و جعل بين البحرين حاجزا، أ إله مع اللّه، بل أكثرهم لا يعلمون.

إضـراب آخر، أريـد به الانتقال إلى دليل كونى آخر متعلق بكثير من خصائص الأرض و سـماتها الواضـحة من حولهم و أمام أعينهم. أى لنترك أمر السـماوات و حـديث المطر و الإنبات إلى حقيقـة أخرى. من هـذا الـذى جعل لكم الأرض قرارا؟ و كلمـة «قرارا» هـذه تعنى كـل مـا قـد أودع اللّه الأـرض من الخصـائص التى تجعلهـا قارّة بنفسـها و تجعل الناس متمكنين من القرار عليها، سواء فيما يتعلق بلينها و صـلابتها و طبيعة الإنبات المودعة فيها و ضـبط ثقلها و خفّتها و مدى بعد الشـمس عنها، و نظام الجاذبية التى فيها، و غير ذلك مما

من روائع القرآن، ص: ۲۸۲

لا يزال العلم يكتشفه و ينتبه إليه، كلّ ذلك عبّر عنه البيان الإلهى بالكلمة الجامعة: قرارا.

و من جعل على وجه الأرض أنهارا تتخللها كتخلّل الشرايين فى الجسد إذ تمدّه بالقوة و الحياة؟

و من أقام عليها جبالا ثوابت ثقالا تمنعها أن تميد بأهلها، و تتكون فى باطنها كنوز المعادن و تحتفظ فى جوفها بالينابيع الثرة من المياه،

و عبّر عن الجبال بكل ما فيها من الصفات، بالرواسى و هى جمع راسية، أى مستقرة و ثابتة، و أنت لا تطلق هذه الكلمة على كل ما يستقر إلا إذا كان ثقيلا جسيما، فلا تقول أرسيت الكأس مثلا، و إنما تقول أرسيت الصخرة أو البناء أو نحو ذلك.

و من جعل بين البحرين حاجزا؟ و تثنية البحرين من التغليب، أى البحار و الأنهار، و معلوم أن الحكمة الإلهية اقتضت أن تكون البحار أخفض من مستوى الأنهار حتى لا تنصبّ فيها مياه البحار فيفسد طعمها، و حينما تنصبّ مياه الأنهار فى البحر فإنها تتخذ لنفسها فى عرضه طريقا مستقلا يمتد أشواطا كثيرة دون أن يمتزج كلّ من الماءين بالآخر. و الذى اقتضى ذلك اختلاف طبيعة الماءين التى قدّرت بخلق اللّه و حكمته حتى تؤدى كلّ من البحار و الأنهار خدمات نوعية مستقلة لهذا الإنسان.

و تقف الآية هنا أيضا عن الإجابة على هذا السؤال انتظارا لإجابة المخاطبين، و إتاحة للفكر المتأمل أن ينصت خاشعا إلى الجواب ينبعث من فم الكون كله: إنه اللّه وحده.

و يأتى السؤال مرة أخرى مرتبا على هذا الجواب المعروف: أ إله مع اللّه؟! أبعد هذا كله يوجد أى إله آخر إلى جانب اللّه جلّ جلاله؟

و يلتفت الخطاب عنهم مرة أخرى ليحكى حالهم العجيبة للآخرين: بل أكثرهم لا يعلمون؛ و لما كانت المسائل المستفهم عنها يتوقف الفهم و التقدير التام لها على العلم، قال فى حكاية حالهم المسبّبة لغرورهم و جحودهم: بل أكثرهم لا يعلمون. و فيه ما لا يخفى من حمل الناس على التأمل فى دقائق الكون

من روائع القرآن، ص: ۲۸۳

و معرفة ما يقوم عليه من النظام و دقة الخلق و الصنع.

* أَمَّنْ يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذا دَعاهُ وَ يَكْشِفُ السُّوءَ وَ يَجْعَلُكُمْ خُلَفاءَ الْأَرْضِ، أَ إِلهٌ مَعَ اللَّهِ، قَلِيلًا ما تَذَكَّرُونَ.

و ينتقل الحديث بإضراب ثالث إلى أدلة من نوع آخر، قائمة فى كيانهم و مستقرة فى نفوسهم.

إنّ من خصائص الإنسان أنه إذا نزلت به شدة من الشدائد و حز به أمر من بلاء أو مصيبة، و التفت من حوله فافتقد الوسيلة المنقذة و الصديق المساعد و ضاق عليه الخناق، أخذ يرمق السماء بطرفه يسأل اللّه عزّ و جلّ فى ضراعة و ذل، و لعلّه كان لا يعرف اللّه فى أوقات الصفو و الرخاء.

و هذه الطبيعة الكامنة فى الإنسان من أعظم الأدلة على أنه مفطور فى حقيقته على العبودية للّه عزّ و جلّ و الإيمان به، و أن كل انحرافاته التى تبعده عن هذه الفطرة إنما تأتى بسبب غاشية من الغفلة أو سكرة من الكبرياء الكاذب أو الشهوات المتأججة، و سرعان ما يرتدّ إلى فطرته الأصيلة إذ يهتز كيانه بسبب بلاء خانق أو كرب مطبق فيتساقط عنه كل ما قد تعلق به من غواشى الغفلة و مسكرات الشهوات و الأهواء.

فمن الذى يستجيب لهذا المضطر إذا دعاه متضرعا له آئبا إليه؟

و السؤال، فيه تذكير كما ترى بهذه الفطرة الإنسانية، و فيه بيان أن الإنسان إذا أصابه ضرّ شديد ضلّ عنه كل من يدعوه و يعتمد عليه إلا اللّه جلّ جلاله، و «أل» فى المضطر للجنس لا للاستغراق، فلا يلزم أن تكون الاستجابة من اللّه عامّة لكل الداعين من المضطرين.

و من الذى يكشف السوء عنكم بكل أصنافه و مظاهره؟

و من الذى يجعلكم خلفاء الأرض؟ أى تتوارثون سكناها و التصرّف فيها جيلا بعد جيل و قرنا بعد قرن؛ و كم فى هذه المظاهر من دلائل العظمة الإلهية فى تنظيم حياة هذه الخليقة على وجه الأرض!. دفعة من بنى الإنسان تأتى إثر أخرى، هذه تأتى من باب الولادة، و تمضى الأخرى من باب الموت. و لو

من روائع القرآن، ص: ۲۸۴

تجمعت هذه الدفعات البشرية مع بعضها لضاقت بها الأرض و فسد نظام الحياة، و تخلّفت الحكمة الكبرى من الإيجاد و الخلق. و انظر،

فإن فی هـذه الجملـة المختصـرة المثيرة للفكر: و يجعلكم خلفاء الأرض، تعبيرا عن هـذه الحقيقـة كلها، فما أعجب البيان القرآنی و ما أروع! ...

و تقف هـذه الآيـة أيضا عن الجواب الـذی تنطق به الفطرة الإنسانية فی أوضح بيان ... ليكرر السؤال المترتب على الجواب المعرف: أ إله مع اللّه؟ و هنـا أيضـا يحكی حـالتهم التی تصـدّهم عن الإيمان بالبـدهيات، و لكنه لا يقول هـذه المرة: بل أكثرهم لا يعلمون، كما ذكر فی الآيـة السابقـة، ذلك لأن هـذه الـدلائل القائمـة فی فطرة الإنسان و كيانه، لا تحتاج إلى علم مجهول، و إنما تحتاج إلى تـذكّر شیء معلوم متلبس بالإنسان نفسه، و لـذلك قال: قليلا ما تـذكّرون، أی تذكرا قليلا ما تذكّرون: و هو تعبير خاص أريد به عدم التذكّر مطلقا.

* أَمَّنْ يَهْدِيكُمْ فِی ظُلُماتِ الْبَرِّ وَ الْبَحْرِ وَ مَنْ يُرْسِلُ الرِّياحَ بُشْراً بَيْنَ يَدَیْ رَحْمَتِهِ أَ إِلهٌ مَعَ اللَّهِ، تَعالَى اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ.

إضراب انتقالی إلى نوع آخر من الأدلة يحاجج بها الجاحدين و يناقشهم.

من المعلوم أن الإنسان يتعرض لتيه من الضـلال تتضاءل عنـده حيلـة الإنسان و يظهر فيه ضـعفه فی حالتين اثنتين: عند ما يغشـيه الظلام المطبق بليـل فی فلاـة، و عنـد مـا يتيه فی زرقـة لاـ حـدود لهـا من زرقـة البحر و السـماء، و مـا رؤی الإنسان أقرب إلى التعرّف لحقيقة الضعيفة و عبوديته للّه عزّ و جلّ، منه فی إحدی هاتين الحالتين. فمن الذی يهدی الإنسان فی كلّ من هاتين الظلمتين.

و لـك أن تفهم من الظلمـات معناهـا الحقيقی و ذلـك إذ يلتقی تيه كـلّ من الفلاة و البحر بظلمـة الليل البهيم، و أن تفهم منها معناها المجازی، إذ جعل مفاوز البرّ التائهة و لجج البحار الهائلة كأنها ظلمات مطبقة يضلّ فيها الإنسان و لا يقع على علم يتعلق به أو يهديه.

و من يرسل الرياح بشرا، أی مقدمة تبشّر بالخير، بين يدی رحمة الأمطار إذ يبعثها اللّه على الأرض لتخرج ما فی بطنها و لتقدّم خيراتها لمن على ظهرها؟

من روائع القرآن، ص: ۲۸۵

و الريـاح تطلق على مـا يأتی بالخير من المطر و غيره، فإذا قلت: ريـح فهی ما يحمل فی طواياه الشـر على اختلاف درجاته و أشـكاله و لقد كان من شأن النبی صلّى اللّه عليه و سلّم كلما رأی هبوب الهواء أن يقول: اللهمّ اجعلها رياحا و لا تجعلها ريحا.

و يعيـد البيـان الإلـهی نفس السـؤال السـابق: أ إلـه مـع اللّـه؟ و يلتفت عن الخطـاب لهم مرة أخرى، ليقرر تنزيه الـذات الإلهيـة عن لغو الجاحدين و ضلالهم قائلا: تعالى اللّه عمّا يشركون: من روائع القرآن ۲۸۵ شرح الآيات: ..... ص : ۲۷۹

* أَمَّنْ يَبْدَؤُا الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّماءِ وَ الْأَرْضِ أَ إِلهٌ مَعَ اللَّهِ قُلْ هاتُوا بُرْهانَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صادِقِينَ.

نوع آخر من الاسـتدلال و التنبيه، تنطوی فيه قصـة هذه الخليقة فی بدئها و مسـتقرها، و فيه- مع اختتام ألوان الحجاج و النقاش- إلماح بالإنذار و التهديد و تأكيد ليوم البعث و الحساب.

و السؤال هنا عن ذاك الذی بدأ الخلق من العدم، و الذی يعيده مرة أخرى إلى الوجود.

فأمـا الشـطر الأـول من السؤال فواضـح، و الشـأن فيه أن يكون معلومـا لكـل عاقـل أنه اللّه عزّ و جـلّ، أما الشـطر الثانی، فيردّ عليه- فی الظاهر- أن الجاحدين لا يؤمنون بالإعادة فكيف يتجه السؤال إليهم عن ذلك؟ غير أن التعبير القرآنی يريد أن يوضح للأذهان المتأملة أن الإيمان بالخلق الأول يستلزم الإيمان بالإعادة، ذلك لأن الإعادة أهون من البدء فيما يقرره العقل، و لأن قصة هذه الحياة الدنيا تظل ناقصـة، و تظل- بأحداثها و وقائعها- فصـلا واحدا من قصة طويلة. إذ فی هذه الحياة طغاة لم يجدوا القصاص العادل فی حقهم، و فيها مستضـعفون مظلومون لم يصـلوا إلى ما ينصـفهم من ظالميهم. و لا ريب أن الـذی أبـدع هـذه الخليقة و تركها تتصـرف كما تشاء فی حرية و إرادة، سوف يعيدها إلى حياة أخرى يسود فيها الحق و يستقر فيها العدل.

فمن أجل ذلك أظهرت الآية الرابطة المتمكنة بين الخلق الأول و الإعادة الثانية.

من روائع القرآن، ص: ۲۸۶

ثم تسأل الآيـة: و من يرزقكم من السـماء و الأرض، أى بأسـباب سـماوية و أرضـية مرتبـة على بعضـها، و أنت تعلم أن إليهما مردّ كل الأرزاق التى يعيش بها الإنسان.

أ إله مع اللّه بعد كل ذلك؟ و يأتى الالتفات عنهم هنا ليختم هذه الحجاج و البراهين السابقة كلها بقوله مخاطبا الرسول صلّى اللّه عليه و سلّم: قُلْ هـاتُوا بُرْهـانَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صادِقِينَ ... أى هـذه هى براهين وجود اللّه و وحـدانيته و ألوهيته يقرّها العقل و يـدركها المنطق، فقدموا بدوركم براهينكم التى تعتمدونها فى جحودكم و إنكاركم لهذه الحقائق.

هـذا، و لك أن تـذهب فى إعراب «أمّن» التى صـدّرت بها الآيات السابقـة، مـذهبا آخر، فتعتبر من موصولـة على الابتداء و تقدّر خبره على ضوء الجملـة الأولى فى أول الآيات: آللَّهُ خَيْرٌ أَمَّا يُشْـرِكُونَ فيكون المعنى: بل أألـذى جعل الأرض قرارا و جعل خلالها أنهارا ... خير أم ما يشركون. و تحلّل سائر الآيات الأخرى على هذا التقدير. و قد ذهب معظم المفسرين هذا المذهب فى إعراب الكلمة.

غير أن الـذى ألحظه من سـياق الآيـات، و أشـعر به من ذوق المعنى و مقتضاه أن الطريقـة التى اعتمـدناها فى إعراب الآيات من اعتبار «من» اسـتفهاميـة، أقوى دلالـة و أقرب اسـتساغة و أبعـد عن التكلّف. و إذا دارت الجملة بين التقدير و عدمه فعدم التقدير أولى، و مثله فى القرآن قوله عزّ و جلّ فى سورة الملك:

أَمَّنْ هذَا الَّذِى هُوَ جُنْدٌ لَكُمْ يَنْصُرُكُمْ مِنْ دُونِ الرَّحْمنِ إِنِ الْكافِرُونَ إِلَّا فِى غُرُورٍ.

* و لما ختم الحـديث عن البراهين على وجود اللّه و وحـدانيته بالحـديث عن عود الناس إلى الحياة من بعـد الموت، و كان فى هذا ما ينهض الجاحدين إلى اسـتبعاد الحشر و المطالبة ببيان الأدلة و العلامات التى توضح ميقات ذلك اليوم و أجله- قال جلّ جلاله مخاطبا نبيّه عليه الصـلاة و السـلام: قُـلْ لا يَعْلَمُ مَنْ فِى السَّمـاواتِ وَ الْأَرْضِ الْغَيْبَ إِلَّا اللَّهُ وَ ما يَشْـعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ أى ليس لأحـد مطمع فى الاطّلاع على ما استأثر اللّه بعلمه من المغيبات، و من أهمها الميقات

من روائع القرآن، ص: ۲۸۷

المحدد فى علم اللّه لقيام الساعة، و ليس الإيمان بها متوقفا عقلا على معرفة زمانها و ميقاتها.

* ثم تختم الآيات بهذه الآية الأخيرة التى فيها التحليل و الوصف الدقيق للاضـطراب الفكرى الذى يطوف فى أذهان الملحدين، و فيها التقريع العجيب لهم و السخرية بحالهم: بَلِ ادَّارَكَ عِلْمُهُمْ فِى الْآخِرَةِ بَلْ هُمْ فِى شَكٍّ مِنْها، بَلْ هُمْ مِنْها عَمُونَ.

ففى الآية- كما ترى- إضـراب عن كل ما قد سـلف من النقاش، ليقول من ورائه بأسـلوب الحكاية عنهم: إن هؤلاء قد تجمعت لديهم أقصـى ما يمكن أن يفهموه عن الآخرة و أدرك بعضه بعضا، و وصـلوا من ذلك إلى الغايـة التى لا حاجـة لهم عنـدها إلى علم جديد يلقّونه و يبصّـرون به؛ و هـذا تصوير لبعض الحالات التى تعترى الملحـد من الاعتـداد بفكره و فهمه حتى ليخيل إليه أن قد تداركت و تجمعت فى ذهنه الحقائق العلمية كلها.

و لكنه لا يلبث أن يضـرب عن هـذا الوصف، ليصـفهم بحالـة أخرى: بل هم فى شكّ منها، أى إن الظنون و الأوهام تأخذهم و تردّهم فى أمرها فهم يتساءلون: أ لعلّ ما يقوله المؤمنون هو الحق؟ لا ليس كـذلك!. و لكن من المحتمل! .. و هو مظهر للاضـطراب الفكرى القلق الذى يبعث فى النفس عذابا لا يتصور شدّته إلا من يعانيه. و هذا تصوير لحالة تنتاب الجاحد و الملحد ...

ثم ينتقـل البيـان إلى آخر وصف؛ هو الوصف الثـابت الحق فى شـأنهم و هو مـدار الحالات الأخرى التى تعتريهم: بل هم عنها عمّون؛ إنهم من الآـخرة فى عماهـة مطلقـة يتخيلون معها ذبـذبات الظلام علما و فهما، و يتصورون معها أنهم حينما يشـكّون و يضـطربون إنما يبحثون و يتأملون و هيهات منهم ذلك.

و اللّه سبحانه أعلم.

***

من روائع القرآن، ص: ۲۸۹

كلمة أخيرة

و الآن، و قد انتهينا من هذه السياحة العجلى فى رحاب هذا الكتاب العظيم، و وقفنا على خلاصة سريعة من خصائصه و مظاهره و دقائقه- أريدك يا أخى القارئ أن تمحّص الفكر و الرويّة و التأمل الحر فى قصة هذا الكتاب و مصدره.

أ لم تقف فى كل ما قد مررت و وقفت عليه من خصائص، على ما يدلك أن هذا الكتاب ما ينبغى أن يكون من صنع بشر؟

أ لم تدرك، فيما قد اطّلعت عليه من تاريخه و علومه و منهجه، أنه ما ينبغى أن يكون أكذوبة كذّب بها محمد صلّى اللّه عليه و سلّم على ربّه، بعد أن غبر من حياته أربعين عاما يتوقى فيها الكذب على الناس؟

أ لم تستشعر فى كل ما قد تأملته من نصوصه و آياته أنك من هذا الكلام أمام أحاسيس و مشاعر لا يمكن أن تأتى إلى النفس مما يتكلم به سائر البشر؟

أ لم تدرك فى أعماق وجدانك، حقيقة الإعجاز فى هذا الكتاب؟

أسئلة، لا شك أن أىّ متأمل بفكر حر، لا يتردد فى الجواب عليها بإيجاب قاطع.

فإذا كان كذلك، أ فليس ما يوجبه العقل، و يفرضه كلّ من المصلحة و المنطق أن تتدبر هذا الكتاب و تتهيأ لما قد وضعك فى سبيله؟

أما إن هذه الحياة ستطوى عمّا قريب، و إن كل ما ترى من مغرياتها

من روائع القرآن، ص: ۲۹۰

و ملاذها ليوشك أن ينتهى و يزول؛ و قسما بخالق العقل الذى تميز به الإنسان، إن من وراء ذلك لحياة أخرى ستتفتح لها العين و يمتلئ بها الشعور و يفيض بها الإحساس، و ما كان القرآن ليكذب على الناس فى تأكيد هذه الحقيقة بشتى الأساليب المؤكدة. أ فترى أن شيئا من الأغراض أو الأهواء أو المقاصد المستكنّة فى نفسك اليوم تغنيك إذ ذاك أو تفيدك فائدة ما؟! تخيل نفسك، و قد ولّى عنها الشباب، و ولّت فى أعقابها الكهولة، و جاءتك الحقيقة التى لا مردّ لها و لا سلطان فى الأرض يستذلّها: حقيقة الموت و سكرته، و سائل نفسك التى بين جنبيك: ما ذا عسى أن تجنى إذ ذاك من كل هذا الذى تكبل اليوم عقلك به، أيّا كان مظهره و حقيقته و مرماه؟.

إن من الخير لك أن تحتاط ... و إن من أسمى أغراضك و مصالحك التى يجب أن تأخذ نفسك بها أن تتأهب لذلك اليوم، و إن من أهم ما يجب عليك، أن تقف على هوية نفسك و حقيقة ذاتك القائمة فى خضم الكون المائج، فكم من إنسان يمشى مكبا على وجهه فى الحياة، و هو يحسب أنه قد أبصر الحقيقة حيث ضلّ عنها الآخرون و هو إنما ضلّ عن نفسه فلم يقف على شىء من هويتها و حقيقتها، و سوف لا يستفيق إلى ذاته إلا بعد أن يتعثر و يكبو، و حينئذ ينظر بعين جديدة أخرى و يطّلع على حقيقة كانت غائبة عنه، و يتذكر الماضى الأليم، و أنّى له الذكرى؟

ثم فيم الابتعاد يا أخى القارئ عن الحق؟

أ فتحسب أنه يحرمك سعادتك التى تحلم بها؟ .. إن ذلك هو الوهم العجيب الذى يظل عالقا برءوس بعض الناس. إن اللّه عزّ و جلّ لم يشرع لعباده هذا المنهج الحق إلا إصلاحا لشأنهم و تحقيقا لسعادتهم. و مما لا شك فيه أن الجاحدين و الملحدين فى الدنيا يشقون حتى بالنعيم و يختنقون حتى بأسباب السعادة، و انظر تجد مصداق ذلك ماثلا أمامك و من حولك، و أن المؤمنين يظلون فى نعيم السعادة حتى و إن تألبت عليهم الدنيا و نال منهم الضرّ و البلاء.

و اسمع قول ربّ العالمين: مَنْ عَمِلَ صالِحاً مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثى وَ هُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَياةً طَيِّبَةً وَ لَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ ما كانُوا يَعْمَلُونَ.

من روائع القرآن، ص: ۲۹۱

إن خير ما أختم به كتابى هذا، أن أقدّم إليك- و أنت أخى الذى لا و اللّه لا أريد له إلا ما أريده لنفسى- هذه العبرة و النصيحة، فإن قبلتها فذلك حظك من هذا الكتاب و هو حظى من كل ما قدّمت و إن لم تقبل فلا أملك إلا أن أتجه إلى اللّه العلىّ القدير أستمنحه الرحمة لى و لك و أسأله لنا جميعا الهداية إلى الحق و التجافى عن الباطل.

و حسبى اللّه و نعم الوكيل، و إليه المنقلب و المآب و هو وحده نعم المولى و نعم النصير.

محمّد سعيد رمضان البوطى دمشق فى ۱ ذى الحجة ۱۳۸۷ ه الموافق ل ۴ كانون الأول ۱۹۶۸ م

تعريف مركز القائمية باصفهان للتحريات الكمبيوترية

جاهِدُوا بِأَمْوالِكُمْ وَ أَنْفُسِكُمْ فى سَبيلِ اللَّهِ ذلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ (التوبة/۴۱).

قالَ الإمامُ علىّ بْنُ موسَى الرِّضا – علَيهِ السَّلامُ: رَحِمَ اللّهُ عَبْداً أحْيَا أمْرَنَا... َ يَتَعَلَّمُ عُلُومَنَا وَ يُعَلِّمُهَا النَّاسَ؛ فَإِنَّ النَّاسَ لَوْ عَلِمُوا مَحَاسِنَ كَلَامِنَا لَاتَّبَعُونَا... (بَنادِرُ البِحار – فى تلخيص بحار الأنوار، للعلاّمة فيض الاسلام، ص ۱۵۹؛ عُيونُ أخبارِ الرِّضا(ع)، الشّيخ الصَّدوق، الباب۲۸، ج۱/ ص۳۰۷).

مؤسّس مُجتمَع "القائميّة" الثّقافيّ بأصبَهانَ – إيرانَ: الشهيد آية الله "الشمس آباذى" – "رَحِمَهُ اللهُ" – كان أحداً من جَهابذة هذه المدينة، الذى قدِ اشتهَرَ بشَغَفِهِ بأهل بَيت النبىّ (صلواتُ اللهِ علَيهِم) و لاسيَّما بحضرة الإمام علىّ بن موسَى الرِّضا (عليه السّلام) و بساحة صاحِب الزّمان (عَجَّلَ اللهُ تعالى فرجَهُ الشَّريفَ)؛ و لهذا أسّس مع نظره و درايته، فى سَنَةِ ۱۳۴۰ الهجريّة الشمسيّة (=۱۳۸۰ الهجريّة القمريّة)، مؤسَّسةً و طريقةً لم يَنطَفِئ مِصباحُها، بل تُتَّبَع بأقوَى و أحسَنِ مَوقِفٍ كلَّ يوم.

مركز "القائميّة" للتحرِّى الحاسوبىّ – بأصبَهانَ، إيرانَ – قد ابتدَأَ أنشِطتَهُ من سَنَةِ ۱۳۸۵ الهجريّة الشمسيّة (=۱۴۲۷ الهجريّة القمريّة) تحتَ عناية سماحة آية الله الحاجّ السيّد حسن الإمامىّ – دامَ عِزّهُ – و مع مساعَدَةِ جمعٍ من خِرّيجى الحوزات العلميّة و طلاب الجوامع، بالليل و النهار، فى مجالاتٍ شتّى: دينيّة، ثقافيّة و علميّة...

الأهداف: الدّفاع عن ساحة الشيعة و تبسيط ثَقافة الثَّقَلَين (كتاب الله و اهل البيت عليهِمُ السَّلامُ) و معارفهما، تعزيز دوافع الشّباب و عموم الناس إلى التّحَرِّى الأدَقّ للمسائل الدّينيّة، تخليف المطالب النّافعة – مكانَ البَلاتيثِ المبتذلة أو الرّديئة – فى المحاميل (=الهواتف المنقولة) و الحواسيب (=الأجهزة الكمبيوتريّة)، تمهيد أرضيّةٍ واسعةٍ جامعةٍ ثَقافيّةٍ على أساس معارف القرآن و أهل البيت –عليهم السّلام – بباعث نشر المعارف، خدمات للمحققين و الطّلاّب، توسعة ثقافة القراءة و إغناء أوقات فراغة هُواةِ برامِجِ العلوم الإسلاميّة، إنالة المنابع اللازمة لتسهيل رفع الإبهام و الشُّبُهات المنتشرة فى الجامعة، و...

– مِنها العَدالة الاجتماعيّة: التى يُمكِن نشرها و بثّها بالأجهزة الحديثة متصاعدةً، على أنّه يُمكِن تسريعُ إبراز المَرافِق و التسهيلاتِ– فى آكناف البلد – و نشرِ الثّقافةِ الاسلاميّة و الإيرانيّة – فى أنحاء العالَم – مِن جِهةٍ اُخرَى.

– من الأنشطة الواسعة للمركز:

الف) طبع و نشر عشراتِ عنوانِ كتبٍ، كتيبة، نشرة شهريّة، مع إقامة مسابقات القِراءة

ب) إنتاجُ مئات أجهزةٍ تحقيقيّة و مكتبية، قابلة للتشغيل فى الحاسوب و المحمول

ج) إنتاج المَعارض ثّلاثيّةِ الأبعاد، المنظر الشامل (= بانوراما)، الرّسوم المتحرّكة و... الأماكن الدينيّة، السياحيّة و...

د) إبداع الموقع الانترنتى "القائميّة" www.Ghaemiyeh.com و عدّة مَواقِعَ اُخرَ

ه) إنتاج المُنتَجات العرضيّة، الخَطابات و... للعرض فى القنوات القمريّة

و) الإطلاق و الدَّعم العلمىّ لنظام إجابة الأسئلة الشرعيّة، الاخلاقيّة و الاعتقاديّة (الهاتف: ۰۰۹۸۳۱۱۲۳۵۰۵۲۴)

ز) ترسیم النظام التلقائیّ و الیدویّ للبلوتوث، ویب کشک، و الرّسائل القصیرة SMS

ح) التعاون الفخریّ مع عشراتِ مراکزَ طبیعیّة و اعتباریّة، منها بیوت الآیات العِظام، الحوزات العلمیّة، الجوامع، الأماکن الدینیّة کمسجد جَمکرانَ و...

ط) إقامة المؤتمَرات، و تنفیذ مشروع" ما قبلَ المدرسة "الخاصّ بالأطفال و الأحداث المُشارِکین فی الجلسة

ی) إقامة دورات تعلیمیّة عمومیّة و دورات تربیة المربّی (حضوراً و افتراضاً) طیلة السَّنَة

المکتب الرّئیسیّ: إیران/أصبهان/ شارع"مسجد سیّد/ "ما بینَ شارع"پنج رَمَضان "ومُفترَق"وفائی/"بنایة"القائمیّة"

تاریخ التأسیس: ۱۳۸۵ الهجریّة الشمسیّة (=۱۴۲۷ الهجریة القمریّة)

رقم التسجیل: ۲۳۷۳

الهویّة الوطنیّة: ۱۰۸۶۰۱۵۲۰۲۶

الموقع: www.ghaemiyeh.com

البرید الالکترونی: Info@ghaemiyeh.com

المَتجَر الانترنتی: www.eslamshop.com

الهاتف: ۲۵-۲۳۵۷۰۲۳- (۰۰۹۸۳۱۱)

الفاکس: ۲۳۵۷۰۲۲ (۰۳۱۱)

مکتب طهرانَ ۸۸۳۱۸۷۲۲ (۰۲۱)

التِّجاریّة و المَبیعات ۰۹۱۳۲۰۰۰۱۰۹

امور المستخدمین ۲۳۳۳۰۴۵(۰۳۱۱)

ملاحَظة هامّة:

المیزانیّة الحالیّة لهذا المرکز، شَعبیّة، تبرّعیّة، غیر حکومیّة، و غیر ربحیّة، اقتُنِیَت باهتمام جمع من الخیّرین؛ لکنّها لا تُوافِی الحجمَ المتزاید و المتّسِعَ للامور الدّینیّة و العلمیّة الحالیّة و مشاریع التوسعة الثّقافیّة؛ لهذا فقد ترجَّی هذا المرکزُ صاحِبَ هذا البیتِ (المُسمَّی بالقائمیّة) و مع ذلک، یرجو مِن جانب سماحة بقیّة الله الأعظم (عَجَّلَ اللهُ تعالی فرَجَهُ الشَّریفَ) أن یُوفّقَ الکلَّ توفیقاً متزائداً لِإعانتهم – فی حدّ التّمکّن لکلّ احدٍ منهم – إیّانا فی هذا الأمر العظیم؛ إن شاءَ اللهُ تعالی؛ و اللهُ ولیّ التوفیق.

مرکز القائمیه اصفهان
للبحوث والتحریات الکمبیوتریة
www
للحصول على المكتبات الخاصه الاخرى
ارجعوا الى عنوان المـركز من فضلـكم
www.Ghaemiyeh.com
www.Ghaemiyeh.net
www.Ghaemiyeh.org
www.Ghaemiyeh.ir
و للايصاء من فضلكم
۰۹۱۳ ۲۰۰۰ ۱۰۹